



الأخلاق عند الغزالي

زكي مبارك



ثقافة وعلم إنسانية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة

ومدير عام التحرير

أحمد شوقي القبي

رئيس التحرير

أنور زعلول

الإدارة: ٩٢ شارع قصر لعيني - القاهرة

ت ١١ (٣٥٥) / ١١ (٣٥٥) ٢٥٤١ ٢٥٤١ ٢٥٤١ ٢٥٤١ ٢٥٤١ ٢٥٤١ ٢٥٤١ ٢٥٤١ ٢٥٤١ ٢٥٤١

شعري دوى ١٠٧٤

سلسلة القاهرة .. دما قلب العروبة والاسلام
الرياض تتوأمكاتها التاريخية والحضارية ..
فإننا الفكر والثقافة والنشر !!



الإشراف الفني :

م. محمد أبو ليلة

حسن أحمد خليل



مكتباتية التحرير.

شروط الشعر اوى

أنور عبد الدايم

محمد يوسف السيد

زكى مبارك

الأخلاق عند الغزالي

الشعب

٩٢ شارع مصر القوي بالناحية
تلويده ١٩٨٠

قدم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ونوقش في ١٥ مايو سنة
١٩٢٥ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جدا » ولقب
« دكتور في الآداب » .

مقدمة

بقلم : د . منصور فهمي

لم يكد مؤلف هذا الكتاب يجاز امحان الدكتوراه مصحوبا بالتوفيق . حي قام بفسر من اصحاب الاغراض : يدعون عنه المعريات ، وبتقولون عليه الافاويل . وقد بدا للمؤلف ان يدفع السر بالنسر ، ولكن استاده العيلسوف الدكتور منصور فهمي كتب اليه خطابا بوصفه فيه بالريق ، وبتصح له بالتثيت ، ويدعوه الى مقابله السر بالصفح الجميل .

والمؤلف سبب هنا هذا الامر الخالد ، وشكر استاذاه على نصيحته القصة . ويعاهد ربه وتومه على الا يعمل غير ما يعفد انه حتى وصواب .

أحي العرب :

طالما وجدنا في تاريخ الأفكار عامة حملات للنقد شديدة . وطالما وأنشأ علماء المسلمين وفلاسفتهم ينال بعضهم بعضا بالنقد والجريح . وطالما غلوا في النقد حتى انقلب ايذاء وإيلاما .

والكن هل أخعت شدة النقد يوما فضل المنتقد عليه ؟ وهل ضمن الرومان على المنتقدين بما هم أهل له من الحرمة والمكانة ؟ وكيف ذلك ، والنقد ليس الا اداء لظهار الحقائق واضحة جليلة ؟

والسر كان للناقد فضل في اطهار خطأ المنتقد عليه ، فلفسد كان لهذا الفضل بسبغه الى موارد العلم ، وخوضه في مسائل كانت سببا في يغلة هذا الباحث الاخير .

الا انه يجعل بنا حين ننفّر في كتب المتقدمين ، الذين يخالفوننا في أساليب البحث ، ومناهج التفكير ، أن نمثل أنفسنا في أزمئتهم ، وامكئتهم ، وأن نمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف الأدوات ، لكي نلتمس لهم العذر ، اذ رأيناهم ام يصلوا الى الأغوار البعيدة التى ينبع منها الماء صافيا نفيا .

وما أبعد العرف بين من يدخل الهيحاء بما سجدت به العصور الخوالى من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرعا بما ابتدعته العصور الحديثة من معدات النزال ! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح ، وبين النور يتفجر من ثريات الكهرباء ! ولكننا مع ذلك أبها الأخ العزيز نعجب بأصحاب القسي والنبال ، اذ لم تنقصهم الشجاعة ، ولم يفهم الثبات ، ونحمد الأضواء الضئيلة التى تنبع من زيوت المصابيح ، لأنها على ضآلتها تصدع جوانب الظلام .

فاذا رأينا الغزالي غفل عن حقيقة تنبهنا نحن اليها ، أو اغلق عليه موضوع فتحت لنا أبوابه ، أو أدركه وهن فى الرأى ، أو ناقص فى فهم فكرة ، فجدير بنا أن نقدر ظروف زمانه ومكانه ، وأن نذكر كيف كانت وسائله الى العلم والادراك ، قبل أن نصب عليه جام اللوم والتشريب .

ان اهل تلك العصر الخالية ، كانوا يعتمدون كثيرا على ذاكرتهم ، وكانوا فى الوقت نفسه يتناولون كثيرا من الموضوعات ، لأن فكرة الاحصاء وتوزيع الأعمال ، لم تكن مألوفة لديهم على نحو ما هى اليوم ، وكانوا يرون الجد فى طلب العلم طاعة لله . فمن ثم حفظوا كثيرا ، وكتبوا كثيرا ، ولكن ضاق وقتهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العلوم الكثيرة ، فخلطوا الفث بالسمين ، وعرض لهم الضعف ، والتناقض ، والاضطراب .

وكذلك كان من أكبر الخدمات أن يتناول الشباب المثقف كتب

المقدمين ، فبدرسها ، وبفهمها ، وحللها ، ثم بين ما فيها من الخطأ والصواب .

ومن أولى بذلك من طلبه الجامعة المصرية ، التي أنشئت لوصول العديم بالجديد ، وحث الحلف ، على الانتفاع بمراث السلف ، وإغاذ الجبل الحاصر ، من غلطات الجبل الغابر ؟

لا بخطيء من سناول كب المتقدمين بالدرس ، والنمحيص ، والتهذيب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياة لما يجب أن يحيا من الأفكار ، وموت لما يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن في الفسد الصحيح بهدبا المساعر ، ونوبرا للمعول .

وانما بخطيء من يبائع في حب المتقدمين ، فينسى سيئاتهم ، مع أن لهم سيئات ؛ أو يبائع في بفضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيرا من الحسنات . والفسد الحق يركز على سرد الحسنات والصواب ، فلا جور ولا محاباة ، وقد يذهب لصاحبه الى التوفيق بين الآراء المخدفة ، فيجعل من الروايا المتعددة التي ننظر منها الى الحقائق سكلا واحدا منسجم الربط ننظر من نواحيه الى تلك الحقائق . فأعداء النعد لسوا فقط أعداء لحربة الآراء ، ولكنهم أعداء لمارع التوفيق .

وانت يا أخى درست مؤلفات الغرالى ، وفهمتها ، وحللها ، وبيت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا يعم الناس منك ، وقد ذكرته بالخسر ، حين رأيت أن يذكر باللام ، حين رأيت أن يذكر باللام ، وما كان الغرالى بأكر من أن بخطيء ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب .

لقد راعهم أن يمسو فلك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان عليهم أن يذكروا أنك شاب ، وأن قلم الشباب قاس شديد ، بل إنهم عملوا بما طالبوك به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا اليك فارس اللوم ، ومن السائب .

كانت رسالتك منارا للجدل والمناقشة،، ويعلم الله أنا لن نغضب لذلك . لانا نريد أن نخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث . وهل علمناك الا أن تكون خادما للحقيقة ولو شق اليها الطريق ؟ فما دمت ترى أنك على حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السوى ، فلك أن تتمدك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولكن في رفق ونزاهة ، فان الحق لا يخدم بمثل الرفق والنزاهة . وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق فان عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فان الرجوع الى الحق فضيلة ، والتمسادي على الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق الا الضلال .

لقد علمتنا رسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أننا قطعنا شوطا بعيدا في سبيل الآراء الحرة ، المدعمة بالقوة والنهوض . وان كنا نأسف على أنه لا تزال هناك صدور ضيقة ، يؤذيها الهواء الطلق ، وكان الخير في أن تستروح به ، وتسكن اليه . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير ، وعدد المفكرين قليل .

لقد زاد اغتباطي برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الاسلامية بالنقد والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعها في هذا المدى خطوات . وان كان يحزنني أن يتألب عليك رجال المعهد الذي امدك لدخول الجامعة المصرية . ولكن الانصاف يقضي علينا بأن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون . فانا نرى بكل أسف ان الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق ، وأنصار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود . وهم جميعا من المسرفين .

واذا كان لي أن أنصحك - ومن الواجب أن أنصحك - فاني ادعوك الى حرب هذه الضلالة . وحذار أن تقاطع أحدا من أساتذتك وزملائك في الأزهر الشريف ، فانكم جميعا طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال .

لقد فات كثيرا من عشاق الجديد أن يضموا اليهم أنصار القديم
بالرفق والجمالة وأنت بحمد الله ربيب الأزهر والمعاهد الدينية ،
فماذا يضرك لو وصلت أساتذتك وزملاءك ، وجادلتهم بالتى هى
أحسن ، لتسيروا أصفياء فى التوفيق بين القديم والجديد .

اننى أخشى عليك كثيرا أيها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة
حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فماذا عسى أن
يصنع هذا الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب ،
ومختلف الأرجاء ؟

ولكن اياك أن تجزع ، وقد بدئت حياتك العلمية ، بصدمة من
تلك الصدمات الاجتماعية ، فذلك دليل على أنك خادم من خدام
الاصلاح ، وهو خير لقب تلقى به الله .

ولك خالص الدعوات ، والعطف ، والسلام .

منصور فهمى

تعقيب للمؤلف

أكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد له أن بينى وبين علماء الأزهر الشريف عرا لا تقدر على فهمها الليالى .
ولن أنسى ما حييت أنى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد
الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الظواهرى والشيخ
الزكلونى والشيخ حسين والى والشيخ سيد المصطفى . فإذا
قضت الظروف بأن تنقطع بينى وبين الأزهر جميع الصلات -
لا قدر الله ولا سمح - فانى لن أنسى ولن ينسى أحد أنى مدين
لأساتذتى فى الأزهر ، وأن خروجى عليهم ضرب من العقوق ، ونكران
الجميل .

اللهم ان كنت تعلم أنى صادق فيما أقول ، فاجزنى بخير ما
يجزى به المؤمن الصادق ، وإن كنت تعلم أنى أظهر غير ما أضمر ،
فاغفر لى وتب على فانك وحدك التواب الغفور .

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء
والرسلين .

وبعد فهذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من
الجامعة المصرية ، والذى سلقنى العلماء من أجله بالسنة حداد .

هذا هو كتاب (الاخلاق عند الفزالى) اقدمه للجمهور : ليكون
المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المفرضين من الصدق ، وحظ المرجفين
من الصواب .

هذا هو الكتاب الذى رمنت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى
فجر لحسادى ينبوعا من اللغو والثروة لا ينضب ولا يفيض . وما
انا والله بنادم على رأى رأيتسه ، أو قول جهرت به ، فلسست ممن
يخافون فى الحق لومة لائم ، أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ، ولغو
اللاغين ، من مرضى القلوب ، وضعاف العقول ، وصغار النفوس ؛
وانما يحزننى ما يلاقى أصدقائى من العنت فى دفع ما يفترى
الكاذبون ، ويختلق المفسدون .

على أن الفزالى رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ،
ولاقى ضعف ما لاقيت ، حتى لنجده يطمئن أحد اخوانه بقوله :
« رابتك أبهسا الأخ المشفق موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع

سمعتك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايع المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى ولو في قيد شبر كفر ، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الأخ المشفق على نفسك ، لا تضيق به صدرك وفل من غريك قليلا ، (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمع في افحامهم ، فتطمع في غير مطعم ، وتصوت في غير مسمع ، أما سمعت ما قيل :

كل العداوة قد ترجى ازالتها الا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطعم لأحد من الناس ، لما تلى على أجلهم رتبة آيات اليأس . أو ما سمعت قوله تعالى : « وإن كان كبر عليك أعراضهم فإن استطعت أن تبثني نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » (١) . وقوله تعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (٢) . وقوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الدين كفروا أن هذا الا سحر مبين » وقوله تعالى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (٣) .

(١) كبر : شق . النفق : سرب في الأرض .

(٢) يرجون . يصعدون . سكرت : حبست من النظر .

(٣) قبلا : ميانا ومقابلة ، وأخطأ النسخ حين ظنها جمع قبيل بمعنى كفيل .

وقد صار الغزالي بعد ذلك حجة الاسلام . ونحن لا نريد أن
يفتن الناس بنا كما فتنوا به ، فهل نرجو أن نظفر فقط بالسلامة من
تقول المفتريين ، وتريد المعتدين ؟

« على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت
خير الفاتحين » .

محمد زكي عبد السلام مبارك

الباب الأول
في العصر الذي عاش فيه الغزالي

تمهيد

أريد أن أذكر شيئاً عن العصر الذي عاش فيه الفزالي ؛ وليس ذلك لأن الفزالي صورة لعصره . بل ليعرف القارئ الى أى حد تأثر الفزالي بعصره وتأثر فيه . فمن المجازفة أن ندرس عصراً من العصور ، لنعرف من نبغ فيه من الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ؛ وإنما ندرس شخصية الكاتب ، أو الشاعر ، أو الفيلسوف . ثم نبحث عن المؤثرات التي كونت تلك الشخصية ، فقد تكون هذه المؤثرات قريبة ، وقد تكون بعيدة . وفقاً لما احاط بالشخص من الظروف .

ولتوضيح هذا أذكر أن الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين درس العصر الذي عاش فيه أبو العلاء ، ليعرف الأصول التي كونت وجهة نظره في الحياة ، ثم فعل مثل هذا حين شرع في درس أبي نواس ؛ ولكن الدكتور طه لا ينكر أن عصر أبي العلاء أنتج رجالاً يسرون غير سيرته ، ويرون ما لا يراه ؛ وأن عصر أبي نواس أخرج رجالاً لا يسيغون العبث ، ولا يجيزون المجون ؛ فمن الواجب أن ندرس أولاً ما بين أيدينا من آثار الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، ثم نتبين بعد ذلك ما تألعت منه هذه الآثار فقد تكون نتيجة لمطالعات لا صلة بينها وبين العصر الذي ظهرت فيه . كما يمكن أن تكون نتيجة له بالذات .

والأفحذنى كيف يكون الشيخ محمود خطاب السبكي صورة لهذا العصر ، وهو يكون من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس ؛ وامثال الشيخ السبكي عديدون ، ولكنى خصصته لكثرة مؤلفاته ،

وقد يعثر عليه باحث يوما في زوايا التاريخ ، افتراه يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤثرات التي كوت عقلية هذا الرجل الذي يدهش حين تحدثه عن أهل هذا الجيل ؟ !

انه لا شك في تأثير البيئة والعصر ؛ ولكن ينبغي أن نعرف أن من الناس من يعيش في قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحس بما يحس به معاصروه ، وإنما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؛ ففي مصر اليوم ، أناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ، كما في مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعينى القارئ من ضرب الأمثال .

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذى عاش فيه الغزالي واكتفى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة في عصره ، ليتمثل القارئ زمان الغزالي ومكانه وليعرف ما تمس الحاجة اليه مما أثر بالفعل في حياته العقلية : فان القرض من هذا الكتاب إنما هو ان ندرس بالتفصيل آراء الغزالي في الأخلاق .

الفصل الأول الدولة السلجوقية

— ١ —

لا نريد أن نفصل وصول تلك العشيرة التركية الى الغلبة والاستيلاء على اكثر الاقطار الاسلامية ، فانه لا حاجة الى ذلك الآن ، وانما نذكر فقط صورة مجملية لتلك المملكة الضخمة ، التي تعيا الغزالي ظلها الظليل .

ذكر الاستاذ محمد الخضري (بك) في محاضراته في الجامعة المصرية ان عشيرة السلاجقة انقسمت الى خمسة بيوت : الاول السلاجقة العظمى ، وهي التي كانت تملك خراسان ، والرى ، والجبال ، والعراق ، والجزيرة ، وفارس ، والاهواز . والثاني سلاجقة كرمان . والثالث سلاجقة العراق . والرابع سلاجقة سورية . والخامس سلاجقة الروم .

أما السلاجقة الكبرى فهي الدولة التي اسسها ركن الدين أبو طالب طغرل بك وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ - ١٠٣٩ م الى سنة ٥٢٢ هـ - ١١٢٧ م . وقد انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم .

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو أخو الب ارسلان ، ومدة ملكهم ١٥٠ سنة . من ٤٣٢ هـ - ١٠٤١ م الى ٥٨٣ هـ - ١١٨٨ م . وقد انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان .

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م . وانتهت سنة ٥٩٠ هـ - ١١٩٤ م على أيدي شاهات خوارزم بعد ان مكثت ٧٩ سنة .

— ١٩ —

‘ واما سلاجقة سورية فكانوا من بيت تتش بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق . وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م . وانتهت سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م . على ايدي الدولتين : النورية والارتقية . فكانت حياتها ٢٤ سنة .

واما سلاجقة الروم : ملوك قونية واقصرا ، فكانوا من بيت قطامش بن اسرائيل بن سلجوق ، وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م . وانتهت سنة ٧٠٠ هـ - ١٣٠٠ م . فهي اطول دول السلاجقة حياة ، اذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على ايدي الاتراك العثمانيين والمغول .

والذي كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ ، اى ١٤٣ سنة .

واستخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء ، اولهم القائم بأمر الله الذى انتهى فى عهده العصر البويهى ، وآخرهم الناصر لدين الله الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة .

— ٢ —

عاصر الفزالى اكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد شهد عهد عضد الدين ابي شجاع الب ارسلان ، وجلال الدين ابي الفتح ملكشاه ، وناصر الدين محمود ، وركن الدين ابي المظفر يركياروق ، وركن الدين ملكشاه الثانى ، ومحمد بن ملكشاه .

وقد ولد الفزالى فى آخر عهد طغرل بك ، الذى ملك بغداد ، وتقرب من الخليفة حتى تزوج الخليفة بنت اخيه . والذى تطلع الى ان يتزوج من البيت العباسى . وهو امر لم تجر به العادة .

فأرسل سنة ٥٤٣ هـ يخطب بنت الخليفة ، ثم ظفر بزواجها في حديث طويل .

أما ألب أرسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية ، وفي هذه أسست المدارس النظامية ، صاحبة الفضل على الفزالي ، وسنعود إليها بعد قليل . وأما محمد بن ملكشاه فهو الذي وضع له الفزالي كتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك .

هذا ما يهمنا من دولة آل سلجوق ، وما يريد أن نزيد .

الفصل الثاني

الباطنية

في الوقت الذي كان فيه السلاجقة يبسطون سلطانهم على فارس والعراق والجزيرة إلى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات التي أجمعنا حالها في الفصل الماضي ، كان الفاطميون يسيطرون على المغرب ، وعلى مصر ، ويهيمون ببسط سلطانهم على اقطار المشرق ، بعناية الدعاة .

والذي يعينني الآن هو اجمال دعوة الباطنية ، لأن الفزالي شغل بهم ، وكتب في الرد عليهم ، وإن لم تصلنا كتبه في هذا الباب ، وسترى حين نتكلم عن خطته في التأليف كيف اتهم بالميل إليهم ، إذ شرح آراءهم عند نقدها بطريقة تقرّبها من متناول العقول .

وأحب أن يعرف القارئ أن أكثر ما يحتل دعوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس إلا اثرا للدعوات المتعددة التي قام بها العباسيون في الشرق ، والفاطميون في الغرب ، و (كل حزب بما لديهم فرحون) .

والواقع ان الدعاة كانوا غاية في المكر والدهاء ، فقد عرفوا كيف يمثلون تلك الرؤوس الجوفاء بالخرافات ، والوساوس والأضاليل ؛ وهذه القاهرة لا تزال سماء مسكونة بالمعبودات الصغيرة ؛ كسيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة فاطمة النبوية ، ومن اليهم من الأولياء ، فيما زعم العاطميون ومن لف لهم من علماء الاسلام !!

ولولا خوف الاطالة لشرحت للقارئ طرائق الباطنية في نشر الدعوه Propagande فقد كانوا أمهر من الانجليز والفرنسيين ، والامريكان في العصر الحديث ، وكانت جنائثهم شديدة الخطر في مسخ عقول الامم الاسلامية المسكينه ، التي قيدها الجهل ، ثم رماها بين ايدي طلاب الملك من العباسيين والفاطميين . فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء .

كان دعاه الباطنيه لمكرهم ينتفلون بالطالب من حال الى حال ، فيمهمونه أولا ان الآفة التي نزلت بالامة فشتتت شملها ، وفرقت جمعها ، ليس لها من سبب الا ذهاب الناس عن أئمتهم الذين يعرفون بواطن الشريعة ، لان دين محمد - فيما يزعمون - ليس هو ما يعرفه العامة ، بل هو علم خفي غامض ، ستره الله في حجبهِ ، وعظمه عن ابتذال اسراره ، فلا يطيق حمله ، ولا يقوم بأعبائه الا ملك مغرب ، او نبي مرسل ، او عبد مؤمن امتحن قلبه بالتقوى ؛ ثم يتوعلون مع الطالب في مجاهل من ظلمات الآراء ، والأهواء ، بعضها خاص بتقديس أئمتهم ، ورفعهم الى الاختصاص بفهم أسرار التشريع ، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها بين الناس .

واشهر دعاة الباطنية في الشرق هو الحسن بن الصباح . الذي رحل الى مصر ، فلقى فيها الخليفة المستنصر ، وتلقى بها الدعوة الباطنية ، ثم عاد الى مرو لنصرة هذا المذهب بقلبه وسيفه ، فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة (الموت)

وتحصن بها ، ثم ثبت قدمه في الأقطار الفارسية ، بحيث كان يحسب له ولاتباعه ألف حساب ، ونشبت بينه وبين السلاجقة عدة حروب .

ومن شاء الزيادة على هذا القدر من امر الباطنية فليرجع الى كتب التاريخ ، ثم ليرجع الى تفصيل آرائهم ان شاء في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، فان في آرائهم غرائب وأعاجيب ، وقد ورد ذكرهم في عدة مواطن من كتب الغزالي ، وعلى الأخص كتابه « فيصل التفرقة » بين الإسلام والزندقة « فليعد اليه من اراد ان يرى مناقشته لبعض ما يقولون .

الفصل الثالث

الحروب الصليبية

- ١ -

قد عرفت ان سلطان السلاجقة امتد على بلاد الروم ، في قونيه وافصرا ، وما اليهما من البلاد ، وعرفت كيف كان التنافس بين السلجوقيين والفاطميين ، فليس من الصعب ان تعرف كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الافرنج الى قتال المسلمين ، فقد امن جانب الفواطم لعداوتهم للسلاجقة ، وانها لفرصة سانحة ، لا يصح ان يضيعها طلاب الملك ، وعشاق الحياة !

لجا قيصر الروم الى البابا رئيس النصرانية ، يستصرخه لصد أعدائه السلاجقة ، فراها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا وامرائها ، فدعاهم الى الدفء عن النصرانية ، واخراج بيت المقدس من ايدي المسلمين .

واود ان يعرف القاريء ان الساسة يعتمدون دائما على استغلال العواطف ، واخماد عقول الجماهير ، ومن هنا لم يجد

دعاة الحروب الصليبية بدا من الكذب على الحقيقة والتاريخ «
فرعوا أن المسلمين يضطهدون نصارى الشرق ، ويسومونهم سوء
العذاب ، وقد نجحوا فى استنفار أوروبا ، عامتها وخاصيتها «
وساقوهم باسم الدين الى ميدان القتال .

والدين أداة من أدوات الفتح ، والاستيلاء ، فى أيدي الشعوب
القوية ، وغل فى اعناق الأمم الضعيفة ، والويل كل الويل
للمغلوب ! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين ، كما ذلوا بعد
ذلك باسم الدين ، لأن القوى الرشيد يملك بدينه آخرته ودينه «
أما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم فى ضعفه الذى يسميه ديننا
حتى يحيق به الهلاك !

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا
به الأفاعيل ، فى حين أن المسلمين كانوا يكون فى مساجدهم يوم
الجمعة ليوقظوا الهمم الخوامد ، والنفوس الرواكذ ، فما استمع
لهم أحد ، ولا استجاب لهم مجيب ! ولم ذلك ؟ ذلك بأن الدين
لا يقوم بنفسه ، وإنما يقوم به كما قلت : طلاب الملك ، وعشاق
الحياة ! والا فحدثنى لماذا تنافى الفاطميون أبناء الرسول ، ولم
ينفضوا لزحف النصارى على أملاك المسلمين ؟

الملك . العظمة . الحياة . تلك آمال الأمم ، وأمانى الشعوب .
فإن أدى الدين الى الملك والعظمة والحياة ، فهو نعمة من الله ، لأن
الله بالمؤمنين رءوف رحيم ، أما أن نزل بهم الى الحضيض فهو
بدعه ابتدعها الأخبار والرهبان ، وأمثال الأخبار والرهبان . ومن
كان فى ريب مما نقول فليسال التاريخ .

ثم أخذ الصليبيون فى فتح بلدان المسلمين ، فاستولوا على
كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكونوا لهم فيها إمارات
سميت بالإمارات اللاتينية ، نسبة الى الأجناس التى كان يتألف
منها حملة الصليب .

وأول ما أسس من هذه الإمارات إمارة الرها بوادي الفرات
سنة ٤٩٠ هـ - ١٠٩٧ م . ثم انطاكية سنة ٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م %
ثم فتحوا بيت المقدس . وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠ مسلم ، بعد
أن سجل التاريخ من سوء رأى الفواطم ما يمنعنا من ذكره
الحياة .

— ٢ —

أتدري لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية ؟
لتعرف انه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره ، في اعداد
الخطب وتحجير الرسائل ، لحث أهل أوروبا على امتلاك اقطار
المسلمين ، كان الفزالي (حجة الاسلام) غارقا في خلوته ، منكبا
على أوراده . لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد ! ويكفى
أن تذكر أن الافرنج قبضوا على أبى القاسم الرملى الحافظ يوم
فتح بيت المقدس ، ونادوا عليه ليفتدى ، فلم يفتده أحد ، ثم
قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عددا لا يحصىه إلا الله ، كما ذكر
السبكي في طبقاته .

وما ذكرنا هذه المأساة إلا لنعد القارئ لفهم حياة الفزالي ،
ولنقنعه بأنه ليس من الحتم أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة
لعصره ، فإن كتب الفزالي لا تنبئنا بشيء على تلك الأئمة التي
عاناها المسلمون حين ابتدأت الحروب الصليبية .

ومن الخطأ أن نقصر الأخلاق على سلوك المرء كفرد مستقل
من الحياة الاجتماعية ، فلكل ظرف واجبياته ، ويتعسر وجود
حالة لا تقضى فيها الأخلاق .

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة الى « نظام الملك » : وزير السلطان الب أرسلان «
وابنه ملكشاه . مكث في الوزارة ثلاثين سنة : عشر منها في سلطنة
الب أرسلان . وعشرون في سلطنة ملكشاه . وقد مات « نظام
الملك » قتيلا ، ولكن اختلف المؤرخون في سبب قتله : فمنهم من
يرى أنه لما اسرف في النفقة على المدارس النظامية ، حتى بلغ
ما ينفقه على طلبة العلم ٦٠.٠٠٠ دينار في السنة ، وشى به
بعضهم الى السلطان ملكشاه ، وقالوا (ان الاموال التي ينفقها
نظام الملك في ذلك تقيم جيشا يركز رايته في سور القسطنطينية) .
فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه « يا بنى : انا شيخ اعجمى ، لو
نودى على من يزيد لم احفظ خمسة دنائير ، وانت غلام تركى ،
لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا ! وانت مشغول بلداتك ،
منهمك في شهواتك ، وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون
طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنواب ، اذا احتشدوا كافحوا
عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى مدى مرماها الى
ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصى ، والخمر ،
والملاهى ، والمزمار ، والطنبور ، وأنا أقمت لك جيشا يسمى
جيش الليل ، اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على
أقدامهم ، صفوا بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا
السنتهم ، ومدوا الى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فانت
وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وبركاتهم
تمطرون وترزقون » فقبل ملكشاه وسكت !

نقل هذا جورجى زيدان في كتاب « التمدن الاسلامى » عن
كتاب سراج الملوك ، ولم يعقب عليه ، بل اكتفى بأن ذكر أن « نظام
الملك » توفى مقتولا سنة ٤٨٥ هـ .

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن « نظام الملك » ولى حفيده عثمان بن جمال الملك أعمال مرو ، وأرسل السلطان إليها شحنة (١) اسمه قودن ، وهو من خواصه ، فنازع عثمان في شيء . فحملت عثمان جداته سنه ، واعتزازه بجده ، على أن قبض على قودن وسجنه ، ثم أطلقه ، فقصده السلطان ملكشاه مستغيثا شاكيا فاغتاف السلطان ملكشاه لاستبداد « نظام الملك » وبنيه ، وخرجهم على حدود سلطتهم . وأرسل إلى نظام الملك رسالة يقول فيها : (ان كنت شريكي في الملك ، فلذلك حكم ، وان كنت نائبى ، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، فهؤلاء أولادك قد تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا ، حتى فعلوا ... الخ) .

فقال نظام الملك لحاملى تلك الرسالة :

« قولوا للسلطان : اذا كنت لم تعلم بعد انى شريكك في الملك ، فاهلما ! فانك ما نلت هذا الأمر الا بتدبيرى ورايى ، أما تذكر حين قتل أبوك ، فقممت بتدبير أمرك ، وقمعت الخوارج عليك : من اهلك وغير اهلك ، واثنت في ذلك الوقت تتمسك بى ؟ فلما قدت الأمور اليك ، واطاعك القاصى والدانى اقبلت ننتحل لى الذنوب ، وتسمع فى الوشايات . قولوا للسلطان : ان دوائى مقترنة بتناجك ، فمتى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب ! » .

ويذكرون أن الرسل انفغوا على كتمان هذه الرسالة ، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك ، بلغه ما قال نظام الملك بالحرف الواحد ، فغضب السلطان ودس لنظام الملك من قتله بعد ذلك .

والأقرب الى الصواب ما ذكره الأستاذ محمد (بك) الخضرى فى محاضراته بالجامعة المصرية من أن نظام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره الى قلعة الموت ، وحصر فيها الحسين ابن الصباح ، وأخذ عليه الطرق .

(١) الشحنة فى النماير القديمة يساوى ناظر المالية فى النماير الحديثة .

وهذا لا ينافي ما نقل من النفرة التي وقعت بين نظام الملك وبين ملكشاه ، فان حشد الخلفاء والسلطين لوزرائهم معروف ، وعلى الاخص في تلك الايام المظلمة ، التي طبعت بطابع الاستبداد وكان الامر فيها للهوى ، والحكم للجبروت !!

وقد اكثر الشعراء من رثاء نظام الملك ، فمن ذلك قول مقاتل ابن عطية البكري :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمعة صاغها الرحمن من شرف
بدت فلم تعرف الايام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف



وكما بنى الفاطميون الجامع الازهر في اواسط القرن الرابع لتأييد مذهب الشيعة ، بنى نظام الملك مدارسه في اواسط القرن الخامس لتأييد مذهب اهل السنة . وهكذا كان المسلمون ينشئون المدارس لتثبيت الملك ، كما يفعل الأوروبيون والأمريكيون في هذا الجيل ، ولا عيب في ذلك : فالعلم من امضى الأسلحة في استلال السخائم من الصدور ، والسياسة ادهى وامكر من أن تفغل مثل هذا السلاح !!

وكذلك عنى نظام الملك بانشاء المدارس والرباطات ، ليغمر العلماء والزهاد بفضلله ، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر دعوته في الشام ، والعراق ، وخراسان ، وهكذا فهم روح العصر فاستغل اهله ، حتى ليذكرون أنه كان اذا دخل عليه الائمة الاكابر لا يقوم لهم ، ويجلس في مسنده ، وكان له شيخ فقير ، اذا دخل اليه يقوم له ، ويجلسه في مكانه ويجلس بين يديه ، وانه سئل عن ذلك فقال : ان اولئك اذا دخلوا يشنون على بما ليس في ، فيريدني كلامهم عجبا وتبها وهذا يذكرني بعيوب نفسي فارجع عن كثير مما انا فيه !!

واذا صحت هذه الرواية ، فإنها تدل على أن علماء ذلك العصر كانوا أضعف من أن يجهروا بالنهى عن المنكر ، وأن الخاصة كانوا لا يابون سماع النصيح من الفقراء والمجاذيب ، لأن السياسة كانت تقضى إذ ذاك بمجاملة هذا الصنف من الناس .

ومهما تكن نيات نظام الملك - والله عليم بدات الصدور - فإنه مشكور الصنيع ، فقد أكثر من المدارس ، ووقف عليها الأوقاف ، ورتب للطلبة الجرايات ، وبنى لهم الأسواق ، والمسكن ، والحمامات ، وظلت مدارسها بأوقافها زمنا ليس بالقليل ، وتخرج منها كثير من العلماء والأدباء .

* * *

ولهذه المدارس النظامية فضل على الغزالي ، فقد تلقى العلم في مدرسة نسابور . وتولى التدريس في مدرسة بغداد ، وسنعود الى تعصيل ذلك في غير هذا الباب .

الفصل الخامس

روح ذلك العصر

— ١ —

من الصعب تحديد الروح السائد في عصر من العصور ، وإنما غاية المؤرخ أن يذكر الشواهد والأمثال ، ويستخلص منها ما يرجح أن تكون عليه صورة العصر الذى يدرسه .

وأنا أرجح أن تكون السداجة هى الصفة الغالبة في ذلك العصر مع شىء من المكر فى الأمراء والعلماء . ومن الشواهد الدالة على هذه السداجة ما ذكره الغزالي فى كتابه « المنقذ من الضلال » من أن الناس كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية ببغداد :

— ٢٦ —

انها عين اصابته الاسلام ! وما نقل السبكي من ان احد معاصريه سمعه يقول : « قطعت علينا الطريق واخذ العيارون جميع ما معي ومضوا » فتبعتهم ، فالتفت الى مقدمهم وقال : ارجع ويحك والا هلك ! فقلت له اسالك بالذي ترجو السلامة منه ان ترد على تعليقتي فقط ، فما هي بشيء تنتفعون به ، فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف يدعى انك عرفت علمها ، وقد اخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ! ثم امر بعض اصحابه فسلم الى المخلاة . قال الفزالي : هذا مستنطق انطقه الله ليرشدني به في امرى ، فلما وافيت طوس اقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم اتجرد من علمي » .

والسداجة ظاهرة في هذا الحديث ، فمن الواضح ان حفظ الكتب من ظهر قلب حتى لا تبقى الى حفظها حاجة ، آفة عظيمة في تكوين العقول ، فليست قيمة العالم فيما يحفظ ، ولكن قيمته في حسن الفهم ، وأصالة الرأي ، وصواب الحكم .

ومن شواهد السداجة ما أورده نظام الملك في وصيته (١) التي تركها لخلعه من الساسة حيث يقول :

« كان الامام الموفق النيسابوري من جلة علماء خراسان ، مجبلا مهيبا ، وقد نيف على الخمس والثمانين ، وكان السائد في عقيدة أهل زمانه ان كل من قرأ عليه العلوم العربية نبغ فيها ، وبلغ الغاية ، وانساق اليه العز والجاه ، والنعمة والثراء ، ولذلك وجهني أبى من بلدة طوس الى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه ، لأقرأ على ذلك الأستاذ النابغة الجليل . وهناك حظيت به ، فوشجت بيننا أواصر المودة ، وتأكدت عرا الصداقة ولحظني بعين

(١) مقدمة السباعي لرباعيات عمر الخيام .

عنايته ، وأنزلته من نفسى اخص منزلة ، وألفها ، ولبثنا على ذلك ستين عدة . وكنت أول مانزلت به ، وجلست في حلقتة ، لقيت تلميذين في مثل سننى ، حديثى عهد مثلى بالقراءة على الامام الموفق . وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح ، وكانا آيتين في الفطنة والذكاء فأنس كل منا بصاحبيه ، ونمت بيننا نحن الثلاثة احسن صحبة وامتنها . فكان اذا قام الامام عن الدرس ، وانفضت الحلقة ، اجتمعنا فتذاكرنا ما تلقيناه عليه من المعارف . وكان الخيام من اهالى نيسابور ، أما الحسن بن الصباح فكان أبوه ناسكا ورعا متقشفا ، ولكنه كان زنديقا ، فأقبل الحسن يوما على عمر الخيام فقال له : لقد صحح في اذهان الناس قاطبة أنه ليس من تلميذ يتخرج على الامام الموفق الا مصيبا عزا واقبالا وثروة وجاها ، فهب ان ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعا فانه لا بد ان يقع لواحد منا ، فع اذا يكون حق الخائبين على ذلك الفائز الظاهر ؟ قلنا له : اقترح ما تشاء ، فقال : فلنتعاهد الآن على انه من اصاب منا الثراء فعليه ان يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء ، لا يؤثر نفسه بشيء دون أخويه . فأجبنا : ليكون ذلك كما قلت . ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا ، ومرت الأعوام على ذلك ، وغادرت خراسان متجولا في فضاء الله ، الى غزنة ، ثم الى كابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة في سلطنة السلطان الب ارسلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحبى . فأتينى يطلبان ايجاز وعدى القديم واشراكهما فيما انحاز لى من النعمة والثراء .

والذى يعنينى من هذه الحكاية هو أن يكون « السائد في عقيدة اهل ذلك الزمان أن من قرأ العلوم العربية على الامام الموفق نبغ فيها وبلغ الغاية وانساق اليه المزم والجاه » وتلك خرافة لا يسفها غير ضعاف العقول ، وصغار الاحلام ، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون « هذه العقيدة » وكيف كان الطلبة يتفنون بها في حلقات الدروس .

وقد رأينا في الفصل السالف كيف من « نظام الملك » على ملكشاه بأن أقام له جيش الليل من العلماء والفقراء ، مع أنه لا يصح الدفاع عن العلم باظهار الحاجة الى دعوات اهله ودموعهم ، فبئس السلاح سلاح الدمع والدعاء . وانما تحرس الأمم بالعلم في اقامة ما اعوج من الأخلاق وابقاظ ما خمد من النفوس ، واحياء ما اندرس من آثار العقول .

ومن الشواهد على سداجة ذلك العصر التحدث بالمنامات والاحلام وهى شارة الارباب في الواقع ، والايمان بالخيال .

— ٢ —

أما ما كان في ذلك العصر من مكر الأمراء والعلماء ، فدلائله كثيرة مبثورة في الكتب هنا وهناك ، ومؤلفات الغزالي شهيدة على ذلك ، فكثيرا ما نراه يشن الفارة على العلماء الذين يكثرون الجدل ، يتظاهرون بالغيرة على العلم والدين ، وهم في الواقع طلاب جاه ، وطلاب مال !!

ويمكن الجزم بأن الغزالي يمثل عصره أصدق تمثيل وهو يتحدث عن الأنبياء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس باسم التقى ، وهم في انفسهم أنصار غى وضلال وانما قلنا انه يمثل عصره ، لأنه يكلم في هذه الشؤون بحماسة عظيمة ، ليست صدى لمطالعاته في المؤلفات القديمة ، وانما هى اثر لفضيبته من قوم عاش بينهم ، ولقى من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء . وقد سبقه المعري بنقد المتصوفة ، ولكن المعري كان غير مسموع الكلمة في تقدمهم ، أما الغزالي فكانت كلمته في ذمهم شديدة الأثر ، لأنه صوفى ، ولأن تلامذته كانوا عوناً له على نشر ما يريد .

واليك انموذجا من كلامه عن اصناف المفرودين :

« وفرقة منهم عدلوا عن المسباح الواجب في الوعظ ، وهم وعاظ الزمان كافة ، الا من عصمه الله على التدور في بعض اطراف

البلاد ان كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للاغراب ، وطائفة شغلوا بعبارات النكت وتسجيع الالفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم الاسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر في مجالسهم الزعقات ، والتواجد ، ولو على اغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل » .
ص ٤٠٥ ج ٣ احياء .

على أن الفزالي كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية ، وسترى كيف كان ذلك في غير هذا الباب

أما مكر الأمراء والملوك فقد كاد ينحصر في ختل العامة وجرحهم الى الحروب باسم الدين ، فمن المتعسر أن تجد أمة اسلامية حاربت اختها باسم الملك في دعوة صريحة بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية ، وترمي غيرها بالمروق ، وكانت الجماهير وقودا لثار تلك الفتن في مصر ، والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المسلمين . ولعن الله الساسة أصحاب الاغراض .

الفصل السادس

البلدان التي عرفها الفزالي

نريد أن نذكر في هذا الفصل بعض البلدان التي عرفها الفزالي ، لصلة ذلك بحياته ، ونستثنى بغداد ، لأنها أشهر من أن تحتاج الى تعريف ، وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة في كتابه ذكرى أبي العلاء ، فليرجع اليه من أراد .

ونعتمد في وصف تلك البلدان على معجم ياقوت (١) لقرب

(١) توفى ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان في سنة ٦٢٦ هـ . وكتابه من أجود ما عرف العرب في القواميس الجغرافية .

مؤلفه من ذلك العصر ، ولأنه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس اذ ذاك .

طسوس

مدينة بخراسان ، تشتمل على بلدين يقال لأحدهما الطابران (وهى التى دفن بها الغزالي) وللأخرى توفان ، ولهما أكثر من ألف قرية ، فتحت فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبها قبر على بن موسى الرضا وبها أيضا قبر هرون الرشيد . وقال مسعر ابن المهلهل : وطسوس أربع مدن ، منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان ، وبها آثار أبنية اسلامية جليلة ، وبها دار حميد بن قحطبة ، ومساحتها ميل فى مثله ، وفى بعض بساطينها قبر على بن موسى الرضا وقبر الرشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل محكم البنيان ، لم أر مثله علو جدران ، واحكام بنيان ، وفى داخله مقاصير تحار فى حسنها الأوهام ، وأزجاج (١) وأروقة ، وخزائن وحجر للخلوة ، وسألت عن أمره فوجدت أهل البلد مجمعين على انه من بناء بعض التبابعة ، وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن ، فلما صار الى هذا المكان رأى أن يخلف حرمه وكنوزه وذخائره فى مكان يسكن اليه ، ويسير متخففا ، فبنى هذا القصر وأجرى له نهرا عظيما آثاره بينة ، وأودعه كنوزه ، وذخائره ، وحرمه ، ومضى الى الصين فبلغ ما أراد ، وانصرف فحمل بعض ما كان جعله فى القصر ، وبقيت له فيه بعد أموال وذخائر تخفى أمكنتها . وصفات مواضعها مكتوبة معه . فلم يزل على هذه الحال فجتاز به القوافل ، وتنزله السابلة ، ولا يعلمون منه شيئا ، حتى استبان ذلك واستخرجه أسعد بن أبى يعفر صاحب كحلان (٢) لأن الصفة وقعت له .

(١) مفردا أزوج بفتحيتين فرب من الابنية .

(٢) من مخاليف اليمن .

وقد خرج من طوس عدد كبير من ائمة العلم أشهرهم أبو حامد
الغزالي ، وخرج منها الوزير « نظام الملك » . قال ياقوت : وأهل
خراسان يسمون أهل طوس البقر ، ولا أدري لم ذلك ؟
وقال رجل يهجو نظام الملك :

لقد خرب الطوسي بلدة غزنة
فصب عليه الله مقلوب بلده

هو الثور قرن الثور في حر أمه
ومقلوب اسم الثور في جوف لحيته (١)

وقال دعبل الخزامي من قصيدة يمدح بها علي بن أبي طالب
رضي الله عنه ويذكر قبري علي بن موسى والرشيد بطوس :

أربع بطوس على قبر الزكي به
أن كنت أربع من دين علي وطير
قبران في طوس : خير الناس كلهم
وقبر شرم : هذا من العبر

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا
على الزكي بقرب الرجس من ضرو

هيهات كل امرئ رهن بما كسبت
يداه حقا . فخذ ما شئت أو فذر

وطوس هذه هي موطن الغزالي . ومولده ، وبها قبره ، إلا أن
صح ما رواه بعضهم من أنه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب من
طوس . وأنا لا أستبعد ذلك ، ما دام ياقوت يحدثنا أنه كان لطوس
أكثر من ألف قرية . وإذا يكون الغزالي يفتح الزاي لا بتشديدها ،

(١) مقلوب طوس : سوط ، ومقلوب نور : روث .

على أن في طبقات السبكي ص ٩ ج ٤ رجلا آخر يلقب بالغزالي ،
ولا ضرورة لأن يكون هذا اسما لعائلة قديمة كما ظن الدكتور
زويمر ، بل يمكن أن يكون كلاهما نسب لتلك القرية الصغيرة :
غزالة .

نيسابور

قال ياقوت : هي مدينة عظيمة . ذات فضائل جسيمة . معدن
الفضلاء ومنبع العلماء . لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت
مثلا ، ثم قال : ومن الرى الى نيسابور مائة وستون فرسخا ،
ومنهما الى سرخس أربعون فرسخا ، ومن سرخس الى مرو
الشاهجان (١) ثلاثون فرسخا . ثم قال : وأكثر شرب أهل
نيسابور من قنئ تجرى تحت الأرض ينزل إليها في سرايب مهياة
لذلك ، فيوجد الماء تحت الأرض ، وليس بصادق الحلاوة ، ثم
قال : وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات وبها ريباس ليس في
لدينا مثله ، تكون الواحدة منه منا وأكثر ، وقد وزنوا واحدة

(١) مرو الشاهجان ، هي قصبه خراسان وكان بها لمعد ياقوت عشر خزان
موفوفة تحوى نفائس الكتب . منها خزانان في الجامع احدهما يقال لها
العزيرية ، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر حقيق الزنجاني ، وكان فيها
١٢٠٠٠ مجلد ، وأخرى يقال لها الكمالية ، لا أدري الى من تنسب ، وبها خزانة
شرف الملك المستوفى أبي محمد بن منصور في مدرسته ومات المستوفى هذا في سنة
٤٤٩ هـ وكان حنفى المذهب ، وخزانة نظام الملك في مدرسته ، وخزانان للسمعانيين
وخزانة أخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها
والخزان الخاتونية في مدرستها ، والشميرية في خانقاه هناك بقول ياقوت (وكانت
سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد ، أكثرها بغير رهن) ويذكر أن فوالد
مجمعه من تلك الخزائن . وفي مرو الشاهجان يقول بعض الأعراب :

أقبرية الوادى التى خان الفها من الدهر أحداث امت وخطوب
تعالى أطاركك البكاء فأنسا كلانا بمرو الشاهجان غريب
ويقول أبو الحسين مسعود بن الحسن الدمشقى :
أخلى أن أصبحتم في دياركم فأننى بمرو الشاهجان غريب
أموت اشتياقا ثم أحيا تذكروا وبين التراقى والفسلوع لهيب
لما عجب موت الغريب صبابة ولكن بقاه في الحياة عجيب

فكانت خمسة أرطال بالعراقي ، وهى بيضاء صادقة البياض
كانها الطالع ، ثم قال : وكان المسلمون فتحوها فى أيام عثمان بن
عفان رضى الله عنه والامير عبد الله بن كرز فى سنة ٣١ صلحا ،
وبنى بها جامعا ، وقيل أنها فتحت فى أيام عمر رضى الله عنه على
يد الأحنف بن قيس ، وإنما انتقضت فى أيام عثمان فأرسل اليها
عبد الله بن عامر ففتحها ثانية .

وقد خرج من نيسابور عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم
الحافظ الامام أبو على الحسين على النيسابورى ، الذى رحل
فى طلب العلم والحديث . وعقد له مجلس الاملاء بنيسابور سنة
٣٢٧ وهو ابن ستين سنة وقد نوى سنة ٣٤٩ .

وقد أكثر الشعراء من ذم نيسابور . فمن ذلك قول أبى
الحسن الاسترأبادى :

لا قدس الله نيسابور من بلد
سوق النفاق بمفناها على ساق
يموت فيها الفتى جوعا وبرهم
والفضل ما شئت من خير وأرزاق
والخير فى معدن الثرى وان برقت
أنواره فى المعانى غير براق
وقال المرادى يدم أهلها :

لا تنزلن بنيسابور مفتربا
الا وحبلك موصول بسلطان
اولا فلا أدب يجدى ، ولا حسب
يفنى ، ولا حرمة ترعى لانسان
وقال معن بن زائدة الشيبانى يشكو ليله بنيسابور :
تغطى بنيسابور ليلى وربما
يرى بجنوب الرى وهو قصير

ليالى الـ كل الاحبة حاضر
 وما كحضور من تحب سرور
 فاصبحت اما من احب فنسازح
 واما الالى اقليهم فحضور
 ارامى نجوم الليل حتى كأننى
 بأيدى عداة سائر أسير
 لعل الذى لا يجمع الشمل غيره
 بغير رضى جمع الهوى فتدور
 فتسكن أشجان ونلقى احبة
 وبورق غصن للشباب نضير

وفى نيسابور تلقى الفزالى عن امام الحرمين الفقه والمنطق
 والاصول حتى برع انداده ، وزملاءه . وتولى فى اخريات ايامه
 التدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة ، رجع بعدها
 الى طوس ، حيث اتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه
 للصوفية .

جرجان

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، قبض بعض يدها من
 هذه وبعض يدها من تلك ، قيل ان اول من احدث بناءها يريد
 ابن المهلب بن ابي صفرة . وقد خرج منها عدد من الأدباء والعلماء
 والمحدثين . ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي . قال
 الاصطخرى : اما جرجان فانها اكبر مدينة بنواحيها ، وهى اقل
 ندى ومطرا من طبرستان ، واهلها احسن وقارا واكثر مروءة
 ويساراً من كبرائهم ، وهى قطعتان احدهما المدينة والاخرى
 بكراباذ . وبينهما نهر كبير . ولجرجان مياه كثيرة ، وضرباع
 عريضة ، وليس بالشرق بعد ان تجاوز العراق مدينة اجماع
 ولا اظهر حسناً من جرجان . قال ياقوت : وبها الزيتون والتخيل

والجوز والرمان وقصب السكر والأترج وبها أبريسم جيسد
لا يستحيل صبغه ، وبها أحجار كبيرة لها خواص عجيبة ، وبها
نعاين تهول الناظر ، ولكن لا ضرر لها .

وقد فتحت في سنة ١٨ هـ على يد سويد بن مقرن ، رخرج
منها عدد عظيم من العلماء ، كانت تشد اليهم الرحال .

وكان بها صنف جيد من الخمر ، وفيها يقول ابن خريم :

وصهباء جرجانية لم يطف بها
حنيف ولم يلمم بها ساعة غر

ولم يشهد القس المهيمن نارها
طروقا ولم يحضر على طبخها حبر

الأنى بها يحبى وقد نمت نومة
وقد لاحت الشعرى وقد طلع النسر

فقلت اصطبجها أو لغيرى فأهداها
فما أنا بعد الشيب ويحك والخمر

تعففت عنها في المصور التى مضت
فكيف التصابى بعد ما كمل العمر

إذا المرء وفى الأربعين ولم يكن
له دون ما يأتى حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذى أتى
وإن جر أسباب الحياة له الدهر

ويذكر ياقوت أن أهل الكوفة كانوا يقولون : من لم يرو هذه
الآيات فهو ناقص المروءة . . وذكر أن مسلم بن الوليد صريع
الغواني مرض مرض الموت بجرجان ، وأنه رأى نقطة لم يكن في
جرجان غيرها فقال :

الا يا نخلة بالسفح ح من اكناف جرجان
الا انى واياك بجرجان غريبان

والى جرجان رحل الغزالى ليتلقى العلم عن أبى نصر الاسماعيلى
وعلق عنه التعليقة التى حدثتك عما فعل بها العيارون وهو راجع
الى طوس .

دمشق

لو انك رجعت الى ياقوت ، وقرأت فى معجمه اخبار هذه
المدينة لرأيت كيف يضل العرب فى بيداء الخيال ، ولعرفت ان
لهم حظا من اساطير الاولين . وهذا الضلال فى ذكر من بنى مدينة
دمشق يصور لنا منزلتها المقدسة ، التى احتلت قبلا رعوس
المسلمين : فهم تارة يذكرون ان بانيها هو دماشق بن فانى بن .الك
ابن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وتارة اخرى يقولون
انها بنيت على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من
جملة الدهر الذى يقولون انه سبعة آلاف سنة وحينما يؤعمون
ان ابراهيم عليه السلام ولد بعد بنائها بخمس سنين وحينما اخر
يتوهمون ان العازر غلام ابراهيم عليه السلام هو الذى بنى
دمشق .

وأقرب من ذلك كله قول ياقوت : وقال أهل الثقة من أهل
السير ان آدم عليه السلام كان ينزل فى موضع يعرف الآن ببيت
أنات ، وحواء فى بيت لهيا ، وهابيل فى مقرى وكان صاحب غنم ،
وقابيل فى قنينة وكان صاحب زرع ، وهذه المواضع حول
دمشق .

ووجه الغرابة فيه اخلاذه الى من يسميهم « أهل الثقة »
ولئن وصل أهل الثقة الى اخبار آدم ونوح ، يا أيها المؤرخ
الخطير !!

واجب ان أنبه القارئ الى قيمة الاغراق والفلو فى وصف

البلاد فانه نعم الباعث على الرحلة والسياحة وان دل على سذاجة
الواصفين وأربعة أخماس الناس يشناقون الى رؤية دمشق حين
يقرءون انها كانت مأوى الأنبياء ومصلاتهم ، وانه كان بها مسجد
إبراهيم وقبر موسى عليهما السلام ، وانه لم توصف الجنة بشيء
الا وفيها مثله !!

وكانوا يقولون : (عجائب الدنيا اربع : قنطرة سنجة ، ومنارة
الاسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد
حديث عجيب ، فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما
أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم : أنا نريد أن نزيد في
مسجدنا كنيسنكم يعنى كنيسة يوحنا ، ونعطيك كنيسة حيث
شئتم وان شئتم ضاعفنا لكم الثمن ، فأبوا ، وجاءوا بكتاب خالد
ابن الوليد والعهد ، وقالوا انا نجد في كتبنا انه لا يهدمها أحد الا
خنىق . فقال لهم الوليد : فانا أول من يهدمها فقام وعليه قساء
أصفر ، فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراد . قالوا
ومكث في بنائه تسع سنين يعمل فيها عشرة آلاف رجل !! . وقال
موسى بن حماد البربرى : رأيت في مسجد دمشق كتابه بالذهب في
الزجاج محفورا فيها سورة (الهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر)
الى آخرها ، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف ، السى في قوله
تعالى : (حتى زرتم المقابر) فسألت عن ذلك فقليل لى : انه كانت
للوليد بنت وكانت هذه الجوهرة لها ، فماتت فأمرب أمها أن تدفن
هذه الجوهرة معها في قبرها ، فأمر الوليد بها فصيرت في فاف
المقابر من (الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) . ثم حلف لامها أنه
قد أودعها المقابر فسكتت . ونقل الجاحظ في كتاب البلدان عن بعض
السلف أنه قال : ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقا الى الجنة من
أهل دمشق لما يروونه من حسن مسجدهم . ويقول ياقوت : ومن
عجائبه انه او عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى
فيه كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن صناعاته واختلافها
ثم قال بعد كلام طويل : ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة

يبهر بالحسن والتنميق الى أن وقع فيه حريق في سنة ١٦١ فآذهب
بعض حسنه .
وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق ، فمن ذلك قول أبي
المطاع بن حمدان :

سقى الله أرض الفوطتين وأهلها
فلى بجنوب الفوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء الا استخفنى
الى بردى والنيرين حنين
وقد كان شكى في الفراق يروعنى
فكيف أكون اليوم وهو يقين
فوالله ما فارتكم قالبا لكم
ولكن ما يقضى فسوف يكون
وقال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها
فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها
خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكههن أبهى الـ
مناظر فى مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خذا
ومن أترجة لم تعد نديا
وقال البحرى :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفى لك مطربها بما وعدا

إذا أردت ملأت العين من بلد
مستحسن وزمان يشبه البلدنا
يمسى السحاب على أجيالها فرقا
ويصبح النبات في صحرائها يدا
فلست تبصر الا واكفلا خضلا
أو يانعا خضرا أو طائرا غردا
كانما القيقظ ولى بعد جيئته
أو الريح دنا من بعد ما بعدا

وقد أقرب الأفديمون في وصف دمشق ، ومسجد دمشق ،
والذى ذكرته في ذلك كاف لما أنا بصدد من صلة الفزالي بهذه
المدينة ، فقد دخلها في سنة ٤٨٩ هـ وأقام بها أياما قليلة ، ثم عاد
اليها بعد ذلك . واعتكف بالمنارة القريية من الجامع ، قال
السبكي : واتفق أن جلس يوما في صحن الجامع الأموي وجماعة
من المفتين يتمشون في الصحن وإذا بقروى اتاهم مستفتيا ، ولم
يردوا عليه جوابا . والفزالي يتأمل . فلما رأى الفزالي أنه ليس
عند أحد جوابه ، ويعز عليه عدم إرشاده . دعاه وأجابه . فأخذ
القروى يهزأ به ويقول : المفتون ما أجابوني . وهذا فقير عامى كيف
يجيبني ؟ والمفتون ينظرونه قلما فرغ من كلامه معه ، دعوا القروى
وسألوه : ما الذى حدثك به هذا العامى ؟ وكان الفزالي اذ ذلك في
زى فقير مجهول - فشرح لهم الحال فجاءوا اليه وتعرفوا به ،
وسألوه أن يعقد لهم مجلسا ، فوعدهم ، ثم سافر من ليلته .
وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكرها
المقام . وحسب القارىء هذا المقدار .

بيت المقدس

من المواطن التي قدسها العرب والمسلمون ، وتركوا أمرها للخيال بصورها كيف شاء ، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان ابن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سلني أعطك ، قال يا رب : أسألك أن تغفر لي ذنبي . قال لك ذلك . قال يا رب ، وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولد . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء فقيرا أن تغنيه . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء سقيما أن تشفيه . قال لك ذلك !! ويروون عن أبي ذر أنه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي مسجد وضع على وجه الأرض أولا ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال البيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة ، وينقلون عن كعب أنه قال : معقل المؤمنين أيام الدجال البيت المقدس يحاصرون فيه حتى يأكلوا أوتار قسيهم من الجوع ، فينبأهم كذلك إذ يسمعون صوتا من الصخرة ، فيقولون هذا صوت رجل شيمان ، فينظرون ، فإذا عيسى بن مريم عليه السلام . فإذا رآه الدجال هرب منه ، فيتلفاه بباب لد فيقتله . ويكاد الرواة يتفقون على أنها « عرصة القيامة » ومنها النسر ، واليه الحشر » يزعمون أن سليمان كان اتخذ في بيت المقدس أشياء عجيبة : منها القبة التي فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة !! وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتا وأحكمه وصقله ، فإذا دخله الفاجر والورع ، تبين الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر خياله في الحائط أبيض ، والفاجر يظهر خياله أسود ؟ وكان أيضا مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب في زاوية من زواياه عصا أنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره ، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده !! قال ياقوت : (وفد وصفها القدماء بصفات أن استقصيتها أمليت العارء) فياليت شعري ماذا عسى أن تكون تلك الصفات ؟

انه لا شك في أن كل ما وصف به بيت المقدس ليس الا صورة
لمبلغ المتقدمين من فهم حقائق الانبياء ، فليست زيارته بمخرجة
احدا من ذنوبه ، ولا براحة فقيرا من فقره ، ولا بمنقذة سقيما من
سقمه ، كما يزعمون أن الله قال في ذلك وليس هناك سند يثق به
التاريخ عن بناء المسجد الحرام وبناء بيت المقدس بعده بأربعين
سنة ، كما يتوهمون أن النبي قال ذلك ! ولن يأكل المؤمنون اوتار
قسيمهم من الجوع حين يحاصروهم الدجال في بيت المقدس ، ولن
يعود عيسى الى هذا العالم كما يتوهم كثير من الناس ، وهب ذلك ،
فمن يدرينا ان المؤمنين لن يملكوا يومئذ غير القسي والنبال ؟
ولا تنسى السلسلة التي علقها في القبة سيدنا سليمان ، والتي كان
ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، فتلك بلا ريب وليدة
الخيال ! ! وما عسى أن يكون ذلك البيت الذي كان اذا دخله فاجر
ظهر خياله اسود ، واذا دخله الورع ظهر خياله ابيض ؟

اذكر هذه الصورة العجيبة لبيت المقدس ، ثم اذكر قول ابن
عباس : البيت المقدس بنته الانبياء وسكنته الانبياء ، ما فيه موضع
شبر الا وقد صلى فيه نبي ، او قام فيه ملك ، ثم اذكر ما يزعمون
من ان اول شيء حسر عنه الطوفان بيت المقدس وأن فيه ينفخ في
الصور يوم القيامة ، وعلى صخرته ينادى المنادى يوم القيامة !
اذكر هذا كله ، ثم دعنا نخبرك بان الغزالي يتمدح في كتابه
« المنقلد من الضلال » بأنه كان يرحل الى بيت المقدس فيدخل
الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ويتعبد فيها طول النهار ! !
وانه انكشف له في انشاء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها
واستقصاؤها كما قال .

هذه المواطن التي قدسها الخيال ، ووضعت في فضلها
الاحاديث ، أثرت تأثيرا يينا في حياة الغزالي العقلية ، وطبعت نظره
الى العالم بطابع خاص . ولولا خوف الاطالة لوصفنا ما رآه في
سياحاته من المشاهد والبقاع ، ولكن الرغبة في الإيجاز أرضتنا عن
الاكتفاء بأشهر ما عرف من البلاد .

الفصل السابع

أعيان ذلك العصر

الذى يهمننا من أعيان العصر الذى عاش فيه الغزالي إنما هو ذكر أساتذته لتأثيرهم فى تكوين عقله ، غير أنه من الحسن أن نذكر طائفة من علماء ذلك العصر لأن فى ذلك نصويرا لحركة العقول اذ ذلك . ونكرر ما قلناه من أن الغرض إنما هو أن نقرب للقارئ زمان الغزالي ومكانه ، نوعا من التقريب . فاما تحديد اتجاهات الفكر فى تلك الآونة ، فلا يسمعه هذا المؤلف ، الذى يراد به درس آراء الغزالي فى الأخلاق .

الشهر ستانى

هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٤٧٩ والمتوفى سنة ٥٤٨ ، تلقى العلم فى نيسابور على أبى الحسن على بن أحمد المداينى ، وقد ذكر السبكي بقية أساتذته فى ص ٧٨ ج ٤ من طبقاته . ومن أشهر تآليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيد . قال فى مقدمته : « وبعد فلما وفقنى الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أوانسها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك فى مختصر يحوى جميع ما تدين به المتدينون ، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصارا لمن اعتبر » وقيمة هذا الكتاب ترجع الى جمعه أكثر الآراء التى عرفها المسلمون لذلك العهد ، ومن عيوبه الإيجاز والغموض فى أكثر المواطن التى تحتاج الى البسط والبيان : وقد رماه معاصروه بزيغ العقيدة « لمبالغته فى نصرة مذهب الفلاسفة » وسترى فيما بعد أن الشك فى عقائد أنصار الفلاسفة كان من علامات ذلك الجيل .

الأيوردي

هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأيوردي ، تفقه على أمام الحرمين ، وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة - وكذلك كان العلماء دائما في حاجة الى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة كأنما الدين خرافة يسيفها العوام وينكرها الخواص - وكان الأيوردي يرى نفسه أولى بالخلافة وأحق بها من سواه ، وقد جرت له هذه النزعة بلابا كثيرة ، اضطر بسببها الى مفارقة بغداد ، فرجع الى همدان واشتغل بالتدريس والتأليف ، ثم توفي مسموما بأصبهان في ربيع الأول سنة ٥٠٧ هـ .

وكان الأيوردي بارع الشعر ، وله في الصبر على أحداث الدهر آيات بينات ، ويندر أن نجد أدبيا لا يحفظ قوله :

تذكر لي دهري ولم بدر أننى
أعر وأحداث الزمان تهون

فبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه
وبت أريه الصبر كيف يكون

ومن بديع الشعر أبياته التى يتشوق فيها الى أحبابه ، وقد خلاهم ببغداد .

الا ليت شعرى هل أرائى بغيضة
أبيت على أرجائها وأقيل

هواء كأيام الهوى لا يغبه
نسيم كلحظ الغائيات عليل

وعصر رقيق الطربين تدرجت
على صمغته نضرة وقبول

واراض حصاها لؤؤ وترابها
 تضرع مسكا والمياه شمول
 بها العيش قض والحياة شهية
 وليلى قصر والهجير اصيل
 فقال لاخلاني ببغداد هل بكم
 سلو فعندى رنة وعويل
 ترنخنى ذكراكم فكانمنا
 تميل بى الصهباء حيث اميل
 لئن قصرت ايام انسى بقرىكم
 فليلى على نأى المزار طويل
 الأرجاني

هو أبو بكر أحمد بن الحسين الأرجاني ، ولد حوالي سنة
 ٤٦٠ هـ وتوفي سنة ٥٤٤ هـ أصله من شيراز وتولى القضاء بمدينة
 تستر . وهو من فحول الشعراء وله هذه الأبيات :
 سفرت كى تزود الحب منها
 نظرة حين أذنت بالتثنائي
 وأدت أنها من الوجد مثلي
 ولها للفراق مثل بكائي
 فتباكت ودمعها كسقيط الـ
 ظل فى الجلنارة الحمراء
 فترى الدمعتين فى حمرة اللو
 ن سواء وما هما بسواء
 خدما يصبغ الدموع ودمعى
 يصبغ الخد قانيا بالدماء

نخضب الدمع خدها باحمرار
كاختضاب الزجاج بالصهباء

وفى مقدور القارئ أن يرجع الى كتب الأدب والتاريخ ليعرف
من سبغوا في القرن الخامس ، فان الوقوف على آراء أولئك النوايع
من اقرب السبيل الى فهم روح ذلك العصر ، اما نحن فلا نريد
ان نطيل .

الباب الثاني
في حياة الغزال

تمهيد

أريد أن نتكلم بإيجاز عن حياة الغزالي ، لأنه لا يعيننا منها غير جانب واحد : وهو حاله حين وضع مؤلفاته في الأخلاق .

ونحب أن ننبه القارئ الى أن المصدر الموثوق به إنما هو كتابه « المنقذ من الضلال » فأما الكتب التي ترجمته فهي في أكثرها موصومة بالغلاة ، لأن الغزالي كما ستري نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصويره كرجل لا ينبغي لأحد أن يناله بنقد أو تجريح ، وأنهم لواهمون .

ولم نستثنى التراجم ، والمترجم نفسه يتكلم بسداجة وإخلاص من تطور حالته العقلية ؟ وهي التي تهمننا في هذا الباب .

الفصل الأول

أسرته

ولد الغزالي من أسرة فارسية ، لم يهتم بها التاريخ . وأنه
ليكنفى ان يعرف شيئا عن أبيه وأخيه ، لنعرف الروح السائد في
أسرته .

أما أبوه فقد نقل السبكي في طبقات الشافعية « أنه كان فقيرا
صالحا لا يأكل الا من كسب يده في عمل غزل الصوف ويطوف على
المتفقهة ويجالسهم ، ويتوفّر على خدمتهم ، ويجد في الاحسان
اليهم ، والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان اذا سمع كلامهم بكى
وتضرع ، وسأل الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيها ، وأنه كان يحضر
مجالس الوعظ ، فاذا طاب وقته بكى . وسأل الله أن يرزقه ابنا
واعظا » ص ١٠٢ ج ٤ .

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهيّن ، واعظين ، فان شئت قلت
انها دعوة اجيبت ، وان شئت قلت ان حب هذا الرجل للفقه
والوعظ نقل الى ولديه بطريق الوراثة .

وأما أخوه فقد ذكر غير واحد أنه طاف البلاد وخدم الصوفية
في عنفوان شبابه ، وصحب المشايخ ، واختار الخلوة والعزلة ،
حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم ، وأنه خرج الى العراق ،
ومالت اليه القلوب ، ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ ، فظهر له
القبول ، وازدحم الناس على حضور مجلسه ، وأن صاعد بن فارس
دون مجالسه ببغداد فبلغت ثلاثا وثمانين . وذكر ابن خلكان أنه
كان صاحب كرامات وإشارات ، وأنه كان من الفقهاء غير أنه مال
الى الوعظ . فغلب عليه . وينقلون أن قارئا قرأ يوما بين يديه
« يا مبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » فقال
شرفهم ببناء الاضافة الى نفسه بقوله يا عبادي ثم انشد :

وهان على اللوم في جنب حبا
وقول الاعادى انه لخليع
أسم اذا نوديت باسمى واننى
اذا قيل لى يا عبدها لسميع

ويروون انه حكى يوما في مجلس وعظه أن بعض العشاق كان
مشغولا بحسن صورته معسوقه ، وكان هذا موافقا له ، فجاءه
يوما بكرة وقال له : انظر الى وجهى فانا اليوم احسن من كل يوم .
فقال وكيف ذلك ؟ قال : نظرت في المرآة فاستحسنيت وجهى ،
فأردت أن تنظر الى ، فقال بعد أن نظرت الى وجهك قبلى لا تصلح
لى . وهذه الحكاية تمثل اتجاه خاطره نحو الفناء .

ومن كلامه : « من كان في الله تلفه ، كان على الله خلفه » وكان
ينصح اخاه أبا حامد الغزالي بقوله :

اذا صحبت الملوك فالبس
من التوقى أعسر ملبس
وادخل اذا ما دخلت أعمى
واخرج اذا ما خرجت أخرس

وكان أساتذتنا في الأزهر يقصون علينا أحسن القصص في تأثير
هذا الرجل على أخيه ، ويضربون لنا بورعه الأمثال ، وقد حاولنا
أن أجد سنداً لما يتحدثون به فلم أجده ، فعرفت أن أكثر ما عرفت
منه إنما هو من صنع الخيال .

ولو أننا أضفنا الى ما سلف أن الغزالي كان صغيراً حين مات
أبوه ، وأن الذى كفله مع أخيه هو رجل متصوف من أهل الخير
بوصية والده ، لعرفنا كيف تعاونت الظروف على أن تصبغ روحه
بصبغة صوفية ، وكيف أثرت هذه الصبغة على آرائه في الأخلاق .

الفصل الثاني

مولده ونشأته

ولد الغزالي في طوس سنة ٤٥٠ هـ وفيها تلقى ما تفقه به في صباه على احمد بن محمد الراذكاني ؛ ثم سافر الى جرجان حيث تلقى طرفا من العلم على الامام ابي نصر الاسماعيلي وعلق عنه التعليقة - كما كانوا يقولون - ثم رجع الى طوس وأقام بها ثلاث سنين يراجع ما بلغاه في جرجان ، ثم قدم نيسابور حيث يدرس امام الجرمين في المدرسة النظامية علوم الفقه والمنطق والأصول فلأزمه الى أن توفي في سنة ٤٧٨ هـ . ثم خرج الى المعسكر وهي محلة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك - وكان اذ ذاك في الثامنة والعشرين من عمره - وكان نظام الملك قد سمع الثناء على عقله وعلمه وأدبه . فأحضره مجلسه ، وكان منتدي العلماء ، فوجدت الفرصة لينشر الغزالي آثمن ما في خزانته من نفائس العلم وكان من نتيجة ذلك أن برع من كانوا يفسون مجلس نظام الملك وظهر عليهم ، فولاه ذلك الوزير رتبة التدريس في مدرسة بغداد سنة ٤٨٤ هـ .

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية الى أن نيف على الخمسين « ولم أزل في عنقوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبيل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين . اقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض فمراته خوض التجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، واقتحم كل ورطة ، وانفحص عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لاميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا واحب ان أطلع على بطائنه ، ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلميا الا وأجتهد في

الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا واحرص على
 العثور على سر صوفيته ، ولا متعبدا الا وانرصدا ما يرجع اليه
 حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا واتجسس وراءه للتنبه لاسباب
 جراته في تعطيله وزندقته . وقد كان التعطش الى ادراك حقائق
 الأمور دأبى وديدنى ، من أول امرى . وربعان عمرى ، غريزة
 وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلى ، لا باختيارى وحيلتى ،
 حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانحسرت عنى العقائد الموروثة
 على قرب عهد بسن الصبا .

وهذه الفقرة بدلنا على أمرين : الأول أن المذاهب الفلسفية
 كانت كثيرة الانتشار لذلك العهد ، وأن أصحابها كانوا يجاهدون في
 الدفاع عنها ، ويجدون في اذاعتها بين الناس والساني أن الغزالي لم
 يكن من أولئك الطلبة الأعياء الذين لا يعرفون غير رأى واحد ،
 يعيشون عليه ، ويموتون عليه ! بل كان طالب علم بمعنى الكلمة ،
 يعرف أن واجبه يقتضى عليه بأن يعلم حقيقته كل لحظة ، وكنه كل
 مذهب ، ومقصد كل فرقة ، ومرمى كل عقيدة .

وكان أول ما اثار فيه هذه الرغبة ما رآه من أن صبيان
 النصرارى ينشأون على التنصر ، وصبيان اليهود على اليهود ،
 واطفال المسلمين على الاسلام . وكانت هذه الملاحظة الوجيئة باعثا
 له على أن يشك في دينه حتى يتبين حقيقته — وإن لم يحدثنا عن
 ذلك — لأنه ما الدليل على أن النصرانية خير من اليهودية ، أو أن
 الاسلام خير من النصرانية ، أو أن اليهودية خير من الاسلام ، كما
 يتحدث النصرارى والمسلمون واليهود : كل على ما هو بسبيله من
 تفضيل دينه على غيره من الديانات .

وهنا يصرح الغزالي بأنه انتهى الى أنه لا قيمة للتقليد ، لأنه
 موجود في كل أمة وفي كل ملة ، وإنما القيمة كلها لليقين الذى لو
 تحدى لظاهر بطلانه من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث
 ذلك فيه شكاً ، كما أنك لو علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، وقال

قائل لا ، بل الثلاثة اكبر ، بدليل انى اقلب هذه العصا فعبسانا ،
ثم قلها وشاهدت ذلك منه ، لم تشك بسببه فى معرفة ان العشرة
اكثر من الثلاثة .

الفصل الثالث حياته الروحية

ولكن الغزالي لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التى اقنعته
بان لا قيمة لغير اليقين ، بل اندفع يحدثنا عن شكوك نرجح انه لم
يكن فيها غير صادق ، واخذ يبين انه اقتنع اولا بان اليقين ينحصر
فى الحسيات والضروريات ، ثم رأى ان الحس ليس اهلا للثقة به ،
لأنك تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ،
ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمساهدة انه متحرك ، وانه لم
يتحرك دفعة واحدة ، بل على التدرج ذرة ذرة حتى لم تكن حالة
وقوف ، ثم يذكر الغزالي انه بعد ان بطلت ثقته بالمحسوسات ولى
وجهه شطر العقليات التى هى من جنس الاوليات كقولنا العشرة
اكثر من الثلاثة ، والنفى والاثبات لا يجتمعان فى الشيء الواحد ،
والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما ، موجودا معدوما ، واجبا
محالا . ثم يزعم ان المحسوسات قالت له : بم تأمن ان تكون ثقتك
بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم
العقل فكذبنى ، ولولا ان جاء حاكم العقل لكنت تستمر على
مصدقى ، فلعل وراء ادراك حاكم العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب
العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ،
وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالته ؟

وهنا يدخل الغزالي فى مضائق من شعاب الحدس والتخمين
اقتوهم انه لا يبعد ان يكون هناك حالة فوق اليقظة التى هى بلا شك
اثبت من حالة النوم ، وتكون نسبة اليقظة اليها كنسبة النوم الى
اليقظة ، ثم يتردد فى تعيين هذه الحالة فلا يدري اهى الموت الذى

تتكشف به حقائق الأشياء لقوله تعالى (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أم هي حالة الصوفية : إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي هي لهم أنهم إذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن أحوالهم وحواسهم ، رأوا أحوالا لا توافق العقول ؟ ؟

ثم يذكر الغزالي أنه عاد إلى قبول الضروريات العقلية ، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام ، بل كانت بنور قدغه الله في صدره كما قال .

ونحن لا ننزع الغزالي في أن الله نورا يقدغه في صدور عباده ولكن نسأله : لم لا تكون الأحكام العقلية قبسا من ذلك النور ؟ ونسأله كذلك : ما هي حالة المرء الذي ينتظر هذا النور الذي تراه فوق البرهان والدليل ؟

على أن الذي يعيننا قبل كل شيء : هو أن نسجل أن الغزالي وضع مؤلفاته في الأخلاق وهو على هذه الحال . ونرجح أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس في مدرسة بغداد ، ثم لازمته إلى النهاية ، كما ستره .

الفصل الرابع

فهمه للحياة

ولاجل أن نبين وجهة نظره في أحكامه الأخلاقية ، ينبغي أن نعرف كيف كانت صحته وكيف كان مزاجه ، وكيف كان فهمه للحياة ، حين عنى بالتأليف في الأخلاق . فان معرفة مزاج المؤلف ، وصحته ، وفهمه للحياة الاجتماعية ، من أهم ما ينبغي تقديمه قبل الشروع في درس ما ترك المؤلفون .

والسند الصحيح لحياة الغزالي هو كتابه (المنقذ من الضلال)

قلندعه يصف لنا حياته في عزلته التي دامت نحو عشر سنين ،
والتي وضع في أثناءها كتاب الاحياء وهو اهم ما كتب في الاخلاق .

قال بعد كلام طويل : « تم اننى لما فرغت من هذه العلوم
اقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت ان طريقهم انما يتم بعلم
وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتزهد عن اخلاقها
الدمومة وصفائها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى نخلة القلب عن
غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم ايسر على من العمل
فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب
لابى طالب المكي ، وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن
الجنيد والتسبلى وابى يزيد البسطامى وغير ذلك من كلام
مسيحيهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت
ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لى أن
أخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالدوق والحال ،
وتبدل الصفات . فكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة ،
وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحا
وشبعان . وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حال تحصل
من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معان الفكر ، وبين أن
يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران ما معه
من علمه شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من
السكر ، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها
وأدويتها وهو فاقد للصحة ، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة
الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس
عن الدنيا .

« فعلمت يقينا انهم أرباب أحوال ، لا اصحاب اقوال ، وأن
ما يمس تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا ما لا سبيل
اليه بالسماع والتعلم ، بل بالدوق والسلوك ، وكان قد حصل معنى
من العلوم التي مارسها ، والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن

صنّفى العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر : فهذه الأصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفصيلها . وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع في سعادته الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن راس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والابانة الى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم الا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى فاذا أنا منغمس في العلائق وقد أهدت بى من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمالى ، وأحسنها التدريس والتعليم : فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتى في التدريس فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشرقت على النار ، أن لم أشتغل بتلافى الأحوال ، فلم أزل أتمكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار : أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما واحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جنس الشهوة حملة فيفترها عشمية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام ومنادى الايمان ينادى : الرجيل ! الرجيل ! فلم يبق من العمر الا القليل . وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل ، فان لم تستعظ الان للآخرة فمتى تستعد ، وان لم تقطع الان هدى العلائق فمتى تقطع ؟؟؟ .

« فبعد ذلك تتبعت الداعية ، وينجزم العزم على الهرب » والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، وإياك أن تطاوعها قائما سريعة الزوال ، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنقيص ، والأمير

المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما لا تتيسر لك العودة . فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة اشهر . اولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا تطيبها لقلوب المختلفين الى ، فكان لا ينطلق لساني بكلمة ولا استطبها البينة ، ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم وفضم الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي شربة ، ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدى ذلك الى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل الى العلاج .

والما نقلت هذه المطعة الطويلة من كتابه « المنقذ من الضلال » لأن الغزالي هندي صادق فيما يحدث عن نفسه ، وكلامه خير للباحث من استشارة التراجم المختلفة ، ولم نستشير التراجم ، والمترجم نفسه يحدثننا عن تطور حالته العقلية ؟

وهل أدل على لون نفسه في ذلك الحين من قوله بعد ما سلف :
« ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبي الأعراض عن الجاه ، والمال ، والاهل والولد والأصحاب) ! ؟

وينبغي أن ننتبه لهذه الكلمة ، فهي كافية في تصوير نفسه . ويتبين أن تعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هذه الحال عشرين سنين ، وقد كتب كتبه الأخلاقية وهو في هذه الحال ، ولا تسأل كيف ترك بغداد ، ولا كيف عاد الى أهله ، فقد رأيت كيف اعتلت صحته ، وتغير مزاجه ، وكيف سهل على قلبه ترك أولاده . وهو الذي تمدح بأنه كان يصعد منارة مسجد دمشق طوال النهار

ويفلق بابها على نفسه ، وكان يرحل الى بيت المقدس فيدخل
الصخرة كل يوم ويفلق بابها على نفسه !!

على انه بعد أن عاد الى اهله (أتر العزلة أيضا حرصا على
الخلوة ، وتصفية القلب للذكر) كما قال .

وأنا لا أهنم بما ذكر من أنه انكشف له (في أثناء هذه الخلوات
أمور لا يمكن احصاؤها ، واستقصاؤها) وإنما يهمني أن أثبت أنه
كتب ما كتب في الأخلاق وهو على هذه الحال .

ويتلخص ما سلف في ثلاثة أمور :

الأول - ما ورثه عن أبيه من نزعة الصوفية .

الثاني - ما استفاده من وصية تأييدا لتلك النزعة .

الثالث - عشر سنين قضاها في العزلة ، لها ما لها من الأثر
في تكوين نفسه ، وتكييف مزاجه ، والتأثير في كتبه .

اذن ليعلم القارئ منذ الآن أن النزعة الغالبة على فهمه للأخلاق
إنما هي نزعة الصوفية ، وسيرى ذلك مفصلا في عدة مواطن من
هذا الكتاب .

الفصل الخامس

وفاته وراثته

ترك الغزالي بغداد ، وقصد البيت الحرام ، وأدى فريضة
الحج في سنة ٤٨٩ هـ ومكث فيها أياما ، ثم توجه الى بيت المقدس
فجاور به سنة ٤٨٨ هـ بعد أن أناب أخاه عنه في المدرسة النظامية ،
ثم دخل دمشق مدة ، ثم عاد الى دمشق واهتكف في المنارة الغربية
من الجامع ، ثم ذهب الى الاسكندرية وأقام بها مدة ، ويقال أنه
كان ينوي الرحلة الى السلطان يوسف بن تاشفين ، لما بلغه من

عدله ، ولكنه لما سمع بموته عاد الى التجول في الافاق لزيارة
المشاهد والترب والمساجد ، كما يقول مترجموه ، ثم رجع الى
بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم بلسان اهل الحقيقة وحدث
بكماب الاحياء ، ثم عاد الى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية في
نيسابور ، ثم رجع الى طوس واتخذ الى جانب داره مدرسة
للفقهاء وخامعه للصوفية ، ووزع أوقانه على وظائف من ختم
القرآن ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وادامة
الصلاة والصيام ، الى أن توفي رحمه الله بطوس يوم الاثنين رابع
عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ قال السبكي : ومشهده يزار
بمقبرة الطابران .

قال الزبيدي : وجدت في كتاب بهجة الناظرين وأنس العارفين
للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الرموري ما نصه : ومما حدثنا
به من أدركتنا من المشيخة أن الامام أبو حامد الغرالي لما حضرته
الوفاة أوصى رجلا من أهل الفضل والدين - كان يخدمه - أن
يحفر قبره في موضع بيته ، ويستوصي أهل القرى التي كانت قريبة
الى موضعه ذلك بحضور جنازته وأن لا يباشر أحد حتى يصل
ثلاثة نفر من الفلاة لا يعرفون ببلاد العراق ، يغسله اثنان منهما
ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا منسورة .. فلما توفي فعل
الخادم كل ما أمر به ، وحضر الناس ، فلما اجتمعوا لحضور جنازته
واوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة ، فعمد اثنان منهم الى غسله ،
واختفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل وأدرج في أكفانه ، وحملت
جنازته ، ووضعت على شفير قبره ، ظهر الثالث ملغا في كسائه ،
وفي جانبه علم أسود ، معمما بعمامة صوف ، وصلى عليه وصلى
الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتواري عن الناس ، وكان بعض
الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصفاته ولم
يعرفه ، الى أن سمع بعضهم بالليل هاتفا يقول لهم : أن ذلك الرجل
الذي صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن اسحق الشريف

جاء من المغرب الأقصى من عين القطر ، وأن اللذين غسله هما
صاحبا . . . الخ » .

وهذه بالطبع خرافة لفقهاء المتصوفة بعد موت الغزالي ، وهي
في ذاتها تدل على أن الغزالي لم يمت إلا بعد أن اتفق العامة على
صلاحه ، فقد رمى بالزندقة في جزء من حياته ، ثم عاد في نظر
العامة من المكاشفين ، حتى ليذكرون أنه انشأ عند موته هذه
الفصيدة :

قل لآخوان راؤني ميتا	فبسكوني ورثوني حزنا
أعلى الغائب منا حزنكم	أم على الحاضر معكم ههنا
اتخالوني بأنى ميتكم	ليس ذلك الميت والله أنا
أنا في الصدر وهذا بدني	كان جسمي وقميصي زمنا

وهي طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمره ١٢١ تصوف
بدار الكتب المصرية . وهي كذلك مما لفقهاء أصحابه بعد موته ،
وما أكثر ما زور باسمه من الآثار !!

ونقل ابن الجوزي في « كتاب الثبات عند الممات » عن أحمد
أخي الغزالي أنه قال : « لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ
أخي أبو حامد وصلي ، وقال على بالكفن ، فأخذه وقبله ووضع
على عينيه ، وقال : سمعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجله
واستقبل القبلة ، ومات قبل الأسفار » .

وسبحان من تفرد بالبقاء .

وقد رثاه الأبيوردي بقوله :

يمنى على حجة الاسلام حين ثوى	من كل حي عظيم القدر أشرفه
فما لمن يمتري في الله عبرته	على أبي حامد لاح بعنفه
تلك الرذيلة تستوهى قوى جلدي	فالطرف تسهره والدمع تنرفه

فما له خلة في الزهد منكرة وما له شبهة في العلم تعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يحلفه

وقال في رنائه القاضي عبد الملك المعافى :

بكيت بعينى ناكل القلب واله فتى لم بوال الحق من لم يواله
وسيبت دمعاً طالما قد حبسته وقلت لجفنى واله ثم واله
ونحن - فى جملة من انتفع بمؤلفات الغزالي - نسال الله ان
يرحمه رحمة واسعة ، وأن يجزيه احسن الجزاء على ما قديم فى
سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، وان يتجاوز عن سيئاته
بعمه وكرمه انه نعم المولى ونعم النصير ، وهو بالمؤمنين رءوف
رحيم .

الباب الثالث
في المنابع التي استقى منها الغزالي

تمهيد

يلذكر مؤرخوا الفلسفة ان سقراط هو أول من بدأ بالتفكير في
الانسان وما يتعلق به ، وانه أول من قال : اعرف نفسك بنفسك .
ولعلمهم يريدون انه أول من بحث في الانسان بحثا منظما من حيث
واجبه نحو نفسه ، ونحو شركائه في الاجتماع ، على أن يكون ذلك
علما ذا قواعد وأصول .

أما البحث في أن بعض الأعمال شر ، وبعضها خير ، وشيء منها
نافع ، وشيء منها ضار ، فهو قديم سبق سقراط بأجيال .

فالأمة العربية التي ورث الغزالي وورث أساتذته آدابها
القديمة ، كانت تقول الشعر والنثر في تهذيب الأخلاق ، فمن
الواضح أن قول بعض الأعراب في وصية ابنه « المنية ولا الدنيا »
أقبح ضرب من التهذيب الفردي ، وقول أحدهم في حض الجيوش
على صدق اللقاء « الطمن في النحور أكرم من الطمن في الظهر »
أقبح نوع من تقديم المحاربين ، لأن الأخلاق لا تعرف موطنها بيمينه
وأما تتبع الرجل في كل حال .

وكذلك قول أكرم بن صيفي : « العقل راقد ، والهوى يظنان »
والشهوات مطلقة ، والحزم معقول . والمستبد برأيه موقوف على
مداخل الزل . أصبح عند رأس الأمر أحب الى من أن أصبح عنقا
لقنیه . لم يهلك من ماله ما وعظك . فغاذ الرأي في الحرب أجده

من الطعن والضرب . التقدم قبل التندم . ويل لعالم أمر من
جاهله . يتشابه الأمر إذا أقبل ، فإذا أدبر عرفه الكيس والأحقق .
في هذه الكلمات كثير من الآداب الاجتماعية ، وهى جزء من علم
الأخلاق .

ونجد شعراء الجاهلية والإسلام ضربوا سهم فى معرفة الطباع
البشرية ، فنرى فى شعرهم شيئا عن أثر الوراة ، وأثر الرفقة ،
وأثر الجوار ، الى غير ذلك من المعانى التى بسطها الفلاسفة حين
تكلموا فى الأخلاق . فقول ذى الاصبع العدوانى :

كل امرئ صائر يوما لشيمته وأن تخلق أخلاقا الى حين
يمائل بعض المذاهب الأخلاقية .

وقول مسكين الدارمى :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم	على سر بعض غير أنى جماعها
لكل امرئ شعب من القلب فارغ	وموضع نجوى لا يرام اطلاعها
يطلون شتى فى البلاد وسرهم	الى صخرة أعيا الرجال انصداعها

يمائل ما يضعه الفلاسفة فى الآداب الفردية .

ويمكننا ان نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق ، لأن المدح فى
الغالب تصوير للفضائل ، والدم تمثيل للردائل ، ووصف الفضائل
والردائل مما يعنى به علم الأخلاق .

فقول قعنب بن ضمرة :

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا	عنى وما سمعوا من صالح دفنوا
صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به	وان ذكرت بشر عندهم اذنوا
جهلا علينا وجبنا من عدوهم	لبشت الخلتان الجهل والجبن

هذا هجاء ، ولكن فيه تصوير لبعض الصفات الدميمة التى
يعنى بحريها علم الأخلاق .

وقول حسان بن ثابت :

اصون عرضى بعمالى لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض فى المال
احتال للمال أن أودى فأجمعه ولست للعرض أن أودى بمحتال
هذا فخر ، ولكن فى تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل
الإنسانية .

ولا تنس الحكم التى فاقت بها النفوس العربية ، فأى كلام
أكرم وامتنع من قول وابصة الأسدى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطا أذى ولا مانعا خيرا ولا قائلا هجرا
إذا شئت أن تدعى كريما مكرما أدبيا ظريفا هاقلا ماجدا حرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكأن أنت محتالا لزلته عذرا
هنى النفس ما يكفىك من سد خلة فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

والقرآن ؟

فى القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس ، وخلجات القلوب ،
وفيه حل لأكثر المشاكل الأخلاقية التى شقى فى حلها الحكماء ،
ففيه أدب الرجل مع ربه ، ومع نفسه ، ومع زوجه ، ومع آبائه ،
ومع ابنائه ، ومع أخوانه ، ومع أصدقائه ، ومع أعدائه ، ويندرج
أن تجد مشكلة خلقية لم يعن بحلها القرآن . وفى الحديث توضيح
وتتميم لما فى الكتاب العزيز ، ويكفى أن ننظر فيما يخص الأدب من
كتيب السنة لتعرف صدق ما نقول .

وبعدما جاء فى خطب العرب وشعرها ، وما جاء فى القرآن
والحديث ، وضعت كتب خاصة للسير والسلوك ، من أقدمها كليله
ودمنة ، الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وقفاه بكتابه
الأدب الكبير والأدب الصغير ، ووضعنا أبواب مطولة فى كتب الفقه
من آداب الزواج ، ومعاملة الرقيق ، ومعاملة المحاربين ، وما إلى

ذلك مما يهتم به الناس في الحرب والسلم ، ويبنى عليه الاجتماع ،
ثم كانت المقامات والخطب المنبرية ، التي اودعها الادبا
والمصلحون آراءهم في تهذيب النفوس ، وتلطيف الطباع .

كل ما قدمته كان ينبوعا صافيا ينهل منه الغزالي ويعمل وهم
يفضح مؤلفاته في الاخلاق ، وقد تبينت أحكامه ، فرأيته لا يضبط
حكما الا وقد اقتبس من حكمة ، او مثل ، او بيت من الشعر
او آية ، او حديث ، او اثر ، الى غير ذلك مما قرأه بنفسه او سمع
من أساتذته ، ولقد حاولت ان أرجع كل حكم لأصله ، ولكنى رأيت
في ذلك منافاة للإيجاز ، وهو شرط هذا الكتاب .

على أن الغزالي مع ترسمه لما سبقه من الآثار الأدبية لم يخل
من حرية الفكر ، والميل الى التجديد ، فقد خرج على الأشعري في
بعض آرائه ، وخالف الشافعية في بعض ما يقولون به ، ولكنه على
كل حال يساير المتقدمين ، ولا يخالفهم - حين يخالفهم - الا برفق
 واحتياط ، كما يفعل الحذر الهيب .

الفصل الأول

المصادر الفلسفية

درس الغزالي الفلسفة ، ولكنه درسها بنية سيئة ، درسها ليسبر غورها ، ثم ينشر مساوئها في العالمين !

وقد درسها بنفسه ، ولم يتنازل لأسناد ، فكان ذلك داعية لهذا البغض العميق ، الذي جعله ينسى الفلاسفة ، ولم يذكرهم إلا بسوء في كتبه الأخلاقية ، ولو أنه تلقاها على أستاذ تلقى الفقه ، والتصوف ، والتوحيد ، لرجو أن تخف حدته كلما وجد الفرصة سانحة ليسلق الفلاسفة بلسان حديد (١) .

فلك بأن الأساقفة ينتصرون لعلومهم ، ويؤثرون في تلامذتهم أثرًا غير قليل ، وأثر المتصوفة ، من أساندة الغزالي واضح كل الوضوح فيما صبغت به آراؤه الدينية والأخلاقية .

ولكن هل نجا الغزالي من محاكاة الفلاسفة حين كتب في الأخلاق ؟ كلا ! وإن نظرة في تقسيم الفضائل ، وطرائق كسبها ، وتنويع الرذائل ، ووسائل الخلاص منها ، ثرينا مبلغ محاكاته للفلاسفة الذين كتبوا في الأخلاق ، والآداب الاجتماعية .

وانك لتضحك بملء فيك حين تراه يقول في كتابه « المنقذ من الضلال » :

« وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية السلطانية ، وأما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأولياء . »

(١) انظر ص ٩ و ١٠ من المنقذ من الضلال .

وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس
واخلاقتها ، وذكر اجناسها وانواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ،
وانما اخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المشابرون على
ذكر الله ، وعلى مخالفة الأهواء ، وسلوك الطريق الى الله بالاعراض
عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من اخلاق النفس
وعيوبها وآفات اعمالها ما صرحوا به ، فأخذوا الفلاسفة ومزجوه
بكلامهم ، توسلا بالتجمل به الى ترويح باطلهم » ص ١٦ .

وقد لاحظ الغزالي ان هذه الدعوى العريضة قد تقبل اذا
وجهت الى فلاسفة الاسلام ، فقد قرءوا القرآن ، وعرفوا منه اشياء
من حكم الانبياء والمرسلين ، وقرأوا للصوفية كثيرا من الحكم
والامثال ، ولكن هذه الدعوى قد تظهر باطلة اذا وجهت الى فلاسفة
اليونان ، فانظر ماذا يقول في ذلك :

« ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتألهين
لا يخلو الله تعالى العالم منهم ، فانهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل
الرحمة الى اهل الأرض » ص ١٧ .

فعلى هذا لا فضل لسقراط ، ولا افلاطون ، ولا ارسططاليس
فيما وفقوا اليه ، حين كتبوا في الاخلاق ، وانما الفضل لاولئك
« الأوتاد » الذين شرفت بهم بلاد اليونان منذ آلاف السنين ولا أدري
ماذا يفعل الغزالي اذا أقسم الأغارقة بلله جهد ايمانهم انه لم يكن
لهم اله واحد وانما كان لهم ألف اله واله ، بل كان من الهتهم من
يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل !!

انه لا شك في ان الغزالي استقى من المنايع الفلسفية ، في كل
ما كتب عن الاخلاق ، وغاية الأمر ان وجهة الدين ، ووجهة التصوف ،
غلبتا عليه ، وصورتا آراءه بصورة دينية ، روحية ، تبدو للنظرة
الاولى وكأنها لا تمت للفلسفة بسبب ، ولا تأخذ منها بنصيب ،
وهي في الواقع متأثرة بما للفلسفة من اصول »

وأنه لا حرج علينا في أن نقرر أن الغزالي أصلى الفلسفة تار
المعقوق فقد كانت سبب حصاصته ، وذوبوع صيته ، ثم أطمع
فيها العامة ، ومكن الجهال من تصفير الحكماء ، وليس تكفيره
لابن سينا والغاراي بالأمر الهين ، وأن فعلته تلك لتحسب بذرة
هذه التقاليد المعقوتة التي يعانيها المفكرون الأحرار ، في جميع
الأقطار الإسلامية ، منذ حين !

٣ - اخوان الصفا

جمعية شبه سرية . اجتمعت في البصرة في منتصف القرن
الرابع . وإنما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة إذ ذاك .
وكان غرض هذه الجمعية نشر المعارف التي يرونها صحيحة في
جميع الأقطار الإسلامية ، فقد كانوا يرون : « أن الشريعة قد دنست
بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها
إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية »
وقد ألغوا إحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة العلوم المعروفة
لمهدهم - وقالوا في أول هذه الرسائل : « أن الحكماء الفلاسفة
الذين كانوا قبل الإسلام تكلموا في علم النفس ، ولكنهم لما طولوا
الخطب فيها ، ونقلها من لغة إلى لغة من لم يكن قد فهم معانيها ،
حرفها وغيرها ، حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها . ونحن
قد أخذنا لب معانيها ، وأقصى أغراضهم فيها ، وأوردناها بأوجز
ما يمكن من الألفاظ في إحدى وخمسين رسالة » .

وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن مكدونالد أن بعض الباحثين
ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية ، لما بين ما يجيء فيها أحيانا
وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المقول عند فتحهم قلعة
الموت على كثير من نسخ رسائل اخوان الصفا (١) .

(١) مبادئ الفلسفة ص ١٢٥ .

وذكر الأستاذ الكونت دى جلارزا فى محاضراته بالجامعة المصرية أن أحد اخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدى المتوفى نحو سنة ٣٨٩ هـ كان يقول « أن الشريعة لم تكن كاملة ؛ بل فيها غلطات وجب اصلاحها بواسطة الفلسفة » .

ورسائل اخوان الصفا تحتاج الى درس طويل لمعرفة ما فيها من الأغراض الفلسفية ، والدينية ، والسياسية ، ويكفى أن يعرف القارئ أن الغزالي اطلع على هذه الرسائل ، واستفاد منها ، وأن صب على أصحابها . جام سخطه وغضبه ، لأن استفادة المرء من كتاب لا تتوقف على حبه لصاحبه ، بل صرح الغزالي بأنه أقبل فى أول حياته العلمية على درس ما عرف لعهد من المذاهب والآراء .

الغرابى

هو أبو نصر محمد بن طرخان . وهو فارسى من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان - جاء الى بغداد . وأخذ علم المنطق عن أبى بشر متى بن يونس النصرانى الذى توفى سنة ٣٢٨ هـ ثم انتقل الى مدينة حران وتعلم بها الفلسفة ، وعاد بعد ذلك الى بغداد ، ثم رحل الى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان .

قال سلطان (بك) محمد فى محاضراته بالجامعة المصرية : « وهو فى مقدمة الفلاسفة الاسلاميين الذين طالعوا كتب افلاطون وأرسطو ووقفوا على أغراضها ، وأحسنوا فهمها ، يدل لذلك ما حكاه الشيخ الرئيس من أنه عرف قوامض الفلسفة ، ووقف على مقاصدها ، واستظهر القسم الإلهى منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثه ، فسئمت نفسه . وكان ذات يوم لدى الوراقين ومر عليه دلال كتب ، ويده مجلد ، وقال له : اشتر هذا . فلما علم أنه فى الفلسفة الإلهية ، قال لا حاجة لى به . فقال له الدلال : إن صاحبه محتاج الى بيعه ، ويطلب به ثمننا قليلا . وأبيعك بثلاثة دراهم . قال فأخذته ووجدته تأليف أبى نصر الغرابى ، فلما قرأته

وقفّت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته بعد أن ملأت الاستفقال
به ويُسْت من فهم أغراضه » .

وكان معشوق الفارابى من فلاسفة اليونان أرسطو ، حتى قيل
إنه وجد كتاب النفس لأرسطو وعليه بخط الفارابى : « انى قرأت
هذا الكتاب مائة مرة » ولكترة شرحه لأراء الفلاسفة لقب بالمعلم
الثانى كما لقب أرسطو بالمعلم الأول . وسئل : أنت أعلم أم أرسطو ؟
فقال : لو أدركته لكتت أكبر تلاميذه ، وتوفى الفارابى رحمه الله
سنه ٣٣٩ هـ وهو يناهز الثمانين .

وللفارابى آثار كثيرة عدا عليها الفناء . ومن مؤلفاته الباقية
« آراء اهل المدينة الفاضلة » وهو يحاكى فيه جمهورية افلاطون .
وقد انتفع الغزالى بمؤلفاته ، وان حكم بكفره مجازفة وبلا
دليل .

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا أشهر
فلاسفة المسلمين ، توفى سنة ٤٢٨ هـ وسنه ٥٨ سنة . وكان
من امهر الأطباء وكتابه « القانون » كان العمدة فى الطب فى القرون
الوسطى عند الشرقيين والغربيين . وقد عنى العرب ببسط آرائه
الفلسفية ، وبشرح ما دون فى الأخلاق ، وطبائع النفوس .

ولا ريب فى ان الغزالى انتفع بمصنفاته ، وان جازاه جزاء
صنمار حيث حكم بكفره ، مجازاة للعامة ، وطاعة للهوى . « وسيعلم
الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ابن مسكويه

ومن الفلاسفة الذين انتفع الغزالى بآرائهم فى الأخلاق
ابن مسكويه : أبو على أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ وهو

من فلاسفة المسلمين وله عدة كتب في الأخلاق ، أشهرها كتابه المسمى : « تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق » ، وهو يقع في ١٨٥ صفحة ، ويقول في مقدمته : (غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وترتيب تعليمي ، والطريق في ذلك أن نعرف أولا نفوسنا ما هي وأى شيء هي ، ولأى شيء أوجدت فينا ، وما قواها وملكاتھا التي اذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية ... الخ) .

وان مسكويه هذا ينقل عن الفيلسوف اليوناني بطريقه صريحة ، لال ف فيها ولا مداورة ، فهو من مجددی فلسفه اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقه السريعه الاسلاميه ، وكتابه الذي نوهنا عنه له أثر كبير في تكوين الغزالي من الوجهة العقلية وقد همت بوضع مقارنة بين كتابه ذلك ، وبين كتاب الأحياء ، ثم رأيت أن هذا باب اذا اطلت طال ، واستنفد وقتنا أنا محتاج اليه في غيره من الأبواب فلاكتف ببعض فقرات نفلها الغزالي عن ابن مسكويه نفلا يشبه أن يكون حرفيا ، من غير أن ينوه بالكتاب الذي نفل عنه ، وما أدرى اكان ذلك مقصودا أو غير مقصود ، ولكنه على كل حال دليل على نأثر الغزالي بمؤلفات ابن مسكويه ، والى القارئ البيان :

١ - يقول ابن مسكويه : (ومن انخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الخسائس التي لا ثبات لها فهو حقيق بالمت من خالقه عز وجل ، خليق بتعجيل العقوبة ، وراحة العباد والبلاد منه) .

ويقول الغزالي : (ومن انفك عن هذه الجملة كلها ، واتصف باضدادها ، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد) .

٢ - يقول ابن مسكويه : (ان أول ما ينبغي أن يتفرس في الطفل ويستدل به على عقله : الأحياء ، فانه يدل على انه قد أحس بالقبيح ،

ومع احساسه به يحذر به ويتجنبه ، فاذا نظرت الى الصبي فوجدته مستحيا مطرفا بطرفه الى الأرض ، غير وقاح الوجه ، ولا محقق اليك ، فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك على أن نفسه قد احست بالجميل والقبيح ، وهذه النفس مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، لا يجب أن تهمل ولا تترك .

ويقول الغزالي : (ومهما رأى فيه مخايل التمييز . فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهورا أوائل الحياء ، فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض ، فصار يستحي من شيء دون شيء والصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه) .

٣ - يقول ابن مسكويه : (ان نفس الصبي ساذجة ، لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأى ولا عزيمة تميلها من شيء الى شيء) .
ويقول الغزالي : (والطفل امانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة) .

٤ - يقول ابن مسكويه : (ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللواتي يتزين للرجال ، ثم العبيد والخول ، وان الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى يتربي على ذلك . ويسمعه من كل من يقرب منه ، ويكره ذلك عليه) .

ويقول الغزالي : (ويجب اليه من الثياب البيض دون الملون ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وان الرجال يستنكفون منه ، ويكره ذلك عليه) .

٥ - يقول ابن مسكويه : (ولا يترك لمخالطة من يسمع منه ضلّة ما ذكرته ، لا سيما من اترابه . ومن كان في مثل سنه ممن يعاشره او يلاعبه . وذلك أن الصبي في ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الأفعال . اما كلها واما أكثرها . فانه يكون كدوبا . ويخبر ويحكى

ما لم يسمعه ولم يره . ويكون حسودا سروقا نماما لجوجا
ذا فضول) .

ويقول الغزالي : (ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا
الرفاهية ، فان الصبي مهما أهمل خرج في الأغلب رديء الأخلاق
كذابا حسودا سروقا نموما لجوجا ذا فضول) .

وبين العبارتين فرق صغير ، وعبرة الغزالي أدق ، لأنها تعلق
فساد الطفل على أهمال تربيته وتأديبه .

٦ - يقول ابن مسكويه : (ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار
والأشعار التي تجرى مجرى ما تعود به بالأدب . ويحذر النظر في
الأنعار السخيفة وما فيها ذكر العشق وأهله ، وما يورثهم أصحابها
أنه ضرب من الطرف ورقة الطبع . فان هذا الباب مفسدة
للأخلاق) .

ويقول الغزالي : (ثم يشتغل في المكذب : فيتعلم القرآن وأحاديث
الأخبار ، وحكايات الأبرار ، ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر
العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك
من الطرف ورقة الطبع ، فان ذلك يفرس في قلوب الصبيان بذور
الفساد) .

ولئن قال قائل أن هذه آراء فطرية ، لا تصلح مثالا للنقل
والمحاكاة ، فإني أجيبه بأن موافقة الغزالي لابن مسكويه في بعض
الأبواب موافقة تكاد تكون تامة ، تدل على الأقل على أنه صدق
قبله ، وإن نصيبه من الإبداع قليل .

الفصل الثاني

منبع التصوف

وما زال الغزالي يكرع من مناهل الصسوقية حتى روى :
ثم اندفع يحدث الناس بما يفهمون وما لا يفهمون من أصول السلوك
وقد صرح في كتاب الميزان ، والأربعين ، والأحياء ، يحديه على

الصوفية ، ورفقه بهم ، واشفاقه عليهم . بل أظهر تبعيته لهم ،
ونسبته اليهم ، ثم اخذ يحن اليهم حنين الغريب الى دياره !!
وانظر قوله في منهاج العابدين :

« وان اللمة التى تظهر منا الآن ليست الا ممن بقى على منهاج
اسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبي ، ومحمد بن ادريس
الشافعي ، والمزني ، وحرملة ، وغيرهم من ائمة الدين - رحمهم الله
اجمعين . فهم كما قال الفائل :

وما صـحبوا الايام الا تعفـفا

وما وجدوا من حب سـيدهم بدا

افاضل صديقون اهل ولاية

الى سيد السادات قد جعلوا القصد

تحلل عقد الصبر من كل صابر

وما حلت الايام من عقدهم عقدا

وكنا في الصدر الاول ملوكا فصرنا سوقا ، وكنا فرسانا فصرنا
رجالا ، وليتنا لا نقطع عن الطريق . والله المستعان على المصائب ،
وهو المسئول ان لا يسلبنا هذا الرمق ، انه جواد كريم ، منان
رجيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » ص ٩٦ و ٩٧ .
فهل رايت تحرقا امر من هذا والدع ؟

اصل التصوف

وهذا التصوف الذى يترسم الغزالي آثار اصحابه ليس في
جملته مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وانما هو مزيج من عدة
مذاهب هندية ، وفارسية ، ويونانية ، نقلت الى المسلمين ، وصادفت
هوى في نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا
لها على حسابها القواعد والاصول .

ويمكن الحكم بأن ما فى التصوف من الدعوة الى طهارة الباطن ،
وحب الخير ، وبغض الشر ، وما الى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس
البشرية من خبيث الصفات ، يرجع فى جوهره الى روح الاسلام ،
أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد فى الحياة ، فهو
بعيد عن روح الدين ، لأن الاسلام دين فتح وسيطرة ، وهو بعد
معتنقيه لأن يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فإنه يلبس اصحابه
أرواح العبيد .

انفاس الصوفية

وانك لترى الغزالي يحاكى الصوفية فى انفاسهم وخطرات
قلوبهم ويسايرهم خطوة خطوة فى ذم الناس ، وشكوى الزمان ،
وأظهر ما يكون هذا فى ذم الأتقياء المزيفين ، وسترى أنه فى كتبه
الأخلاقية قد أشرب حب من يسميهم علماء الآخرة ، حتى ليصف
حاله بهذه الأبيات :

ظفر الطالبون واتصل الوصل	سل وفاز الأجباب بالأجباب
يقيننا مذبلين حيارى	بين الوصال والاجتناب
نرتجى القرب بالبعاد وهذا	نفس حال المحال للألباب
فأسقنا منك شربة تذهب الغم	وتهدى الى طريق الصواب
يا طبيب السقام يا مرهم الجرح	ح ويا منقذى من الأوصاب
لست أدرى بما أداوى سقامى	وبماذا أفوز يوم الحساب

ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج الى قيد من الشريعة ، ويسكت
عنها لا يقيد بها بشيء . وأكثر ما أنكره عليه معاصروه لم يأتها الا من
جهة استسلامه للخطرات الوجدانية ، التى علقت بنفسه من قراءة
كتب التصوف ، حين اعتزل الناس فى دمشق وبغداد .

على أن النقاد لم يتركوا له هذا الأديم صحيحا ، بل رموه بجهل
التصوف ، وسلوكه منه فى بيداء يفضل فيها النسيم ، حتى اضطروا

الزبيدي وغيره الى أن يثبتوا أنه لم يزد على أن حاكى ما في قوت
القلوب والرسالة القشيرية من مختلف الآراء في طرائق السلوك .

قوت القلوب

واهم الكتب التى تأثر بها الغزالي من بين كتب الصوفية كتاب
« قوت القلوب » ، فى معاملة المحبوب « تأليف أبى طالب المكى المتوفى
سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد ولا يوجد الآن فى الاسواق ، ومنه
نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو فى مجلدين ،
يقع الاول منهما فى ٢٧٠ صفحة والثانى فى ٢٩٧ .

ويعد هذا الكتاب - بحق - مصدرا لكتاب الاحياء ويكفى أن
تقرا باب التوكل مثلا فى الكتابين لتعرف انهما يسيران فى طريق
واحد ، الى غاية واحدة ، حتى لتجدهما يتفقان غالبا فى الشواهد
من الآيات ، والأحاديث ، والأخبار . ويمكن الجزم بأن الغزالي
أودع كتاب الاحياء كل ما صح لديه ، وحسن عنده ، من كتاب
قوت القلوب ، وان لم يشر الى ذلك ، وربما ستر هذا بتغيير
العناوين . فاذا قال أبو طالب المكى : (ذكر حكم التوكل اذا كان
ذا بيت) قال هو : (بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم) . وربما
وضع عنوانا لمسألة لم تعنون فى قوت القلوب ، وقد يضع صاحب
القوت مسألة تحت عنوان ، فىأنى الغزالي ويدمجها فى كلامه ،
فيخيل الى القارىء انها له ، ولولا خشية الاطالة لضربنا لذلك
الأمثال .

وقد كان قوت القلوب واحياء علوم الدين موضع رعاية الصوفية
على السواء فيما سلف من الأيام . وينقلون عن أبى الحسن الشاذلى
أنه قال : كتاب الاحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت يورثك النور ،
ولهذا القول وجه من الصواب ، فانك تجد الاسهاب والتفصيل فى
الاحياء ، وتجد الدقة وروعة الاخلاص فى القوت ، ويمتاز كتاب
القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه فيما يتعلق بمذاهب
الصوفية ، وبجمال لغته ، بخلاف الاحياء ، فانه يغرب فى التصوف ،
وحظ أسلوبه من الدقة قليل .

الرسالة القشيرية

هى رسالة فى التصوف لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ . وهى تقع فى ١٨٦ صفحة . ولها شرح مخطوط بدار الكتب المصرية تأليف شيخ الاسلام زكريا الانصارى ويسمى هذا الشرح : « احكام الدلالة فى شرح الرسالة » .

وقد كتب القشيرى رسالته هذه : (الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام فى سنة سبع وبلائين وأربعمائة) كما قال فى المقدمة فهى اذن منشور عام لاصلاح المتصوفة فى ذاك الحين ، وقد ابتدأها بصرخة تشبه التى نقلناها للفزالى من منهاج العابدين ، فهو يقول : « اعلّموا رحمكم الله ان المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا اثرهم ، كما قيل : - اما الخيام فانها كخيامهم وارى نساء الحى غير نساها حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، بل اندرست بالحقيقة ... الخ) .

وقد شرح القشيرى فى بداية هذه الرسالة اعتقاد طائفة الصوفية فى مسائل الاصول فى التوحيد ، ثم ذكر تراجم اثنين وثمانين من مشايخ الصوفية بايجاز ، ثم فسر الالفاظ التى تدور بين هذه الطائفة ، وبين ما يشكل فيها على المريدين ، كالوقت ، والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، الى آخر ما قال .

ثم وضع عدة أبواب فى المجاهدة ، والخلاوة ، والعزلة ، والمراقبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، وما الى ذلك مما يهم السالكين .

وتمتاز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شيوخ الطريق . وقد صدق الزبيدى فيما رآه من أن الفزالى اعتمد

عليها عند تأليف الاحياء . وان كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة ، ومن السهل ان يثبت الانسان اثر هذه الرسالة في اكثر ابواب الاحياء ، وما ادرى لم لم يشد الغزالي بذكر مؤلفها ومؤلفه قوت القلوب ، مع ان فضلها عليه كبير !

الفصل الثالث

من عرف الغزالي من الصوفية

ويجمل بنا ان نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالي ونريد بذلك من قرا لهم ، واستشهد بكلامهم في مؤلفاته ، لان تأثيرهم غير قليل في تكييف احكامه الاخلاقية ، وطبعها بذلك الطابع الصوفي المعروف .

الامام الشافعي

ولد رضى الله عنه بكرة ، ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ بعد ان اقام بها اربع سنين . وكان سنه حين مات ٥٤ سنة . وليس غرضنا ان نتكلم عنه من الوجهة التشريعية ، فان لذلك مجالا غير هذا المجال ، غير انه لا يفوتنا بهذه المناسبة ان نقرر ان كتاب « الام » الذى ينسب اليه ليس له ، وانما هو من تأليف البويهى كما نص الغزالي في الاحياء .

والذى يهمنا الآن : هو ان نصور الشافعي كما تصوره الغزالي ، اى من الوجهة الصوفية ، فقد كان رضى الله عنه معروفا بالتقوى ونسيان الذات ، حتى يقول : (وددت لو ان الخلق تعلموا هذا العلم على ان لا ينسب الى منه حرف) .

نماذج من كلامه

والى القارىء نماذج من كلماته التى جرت مجرى الامثال . قال رضى الله عنه : « اظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ودمغ في مودة من لا ينفعه ، وقبل مدح من لا يعرفه - المراء في »

العلم ، يقسى القلب ، ويورث الضغائن - من لم تمزه التقوى فلا عز له - سياسة الناس اشد من سياسة الدواب - لو علمت ان الماء البارد ينقص مروءتى ما شربته - ليس بأخيك من احتجت الى مداراته - من علامة الصادق في أخوة أخيه أن يقبل الله ، ويسد خلله ، ويغفر زلله - لا تشاور من ليس في بيته دقيق - لا تقصر في حق أخيك اعتمادا على مروءته ، ولا تبدل وجهك الى من يهون عليه ردك - من نم لك نم عليك - من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله » .

المزنى

هو الامام أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزنى . ولد سنة ١٧٥ هـ وتوفي سنة ٢٦٤ هـ تلقى العلم عن الشافعى وصار من تاشرى مذهبه . وكان الشافعى يقول فيه : (لو ناظر الشيطان لقلبه) !! ونقل السبكي عن عمرو بن عثمان المكي : (ما رأيت أحدا من المتعبدين في كثرة من لقيت منهم اشد اجتهدا من المزنى ، ولا اذوم على العبادة منه ، وما رأيت أحدا اشد تعظيما للعلم واهله منه ، وكان من اشد الناس تضيقا على نفسه في الورع ، وأوسعهم في ذلك على الناس) .

حرملة

هو حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة ولد سنة ١٦٦ هـ ، وتوفي سنة ٢٤٣ هـ ، وهو من تلامذة الشافعى ورواة حكمه . قال السبكي : (وقد ينفرد حرملة في بعض المسائل ويخرج عن المذهب تأصيلا وتفرعا ، كما قد يفعل ذلك المزنى وغيره في بعض الاحايين) .

المحاسبي

هو أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ، وهو شيخ الجنيد ، ويقول أنه سمى المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه وقد ألف في الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو مائتى كتاب . وكان الجنيد يقول : « كنت كثيرا ما أقول

للحرث : (عزلنى انسى) فيقول : كم تقول انسى وعزلتى ؟ لو ان نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم انسا ، ولو ان نصف الخلق الآخر نأوا عنى ، ما استوحشت لبعدهم . وانشد منشد بين يدي الحارث هذه الايات :

انا فى الفسرة ابكى ما بكت عين غريب
لم اكن يوم خروجى من بلادى بمصيب
عجيبا لى ولتركى وطننا فيه حبيبى

فقام وتواجد وبكى حتى رحمه كل من حضره .

ومن كلامه : « خيار هذه الامة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم من دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم — حسن الخلق احتمال الاذى وقلة الغضب ، وبسط الرحمة ، وطيب الكلام — الظالم نادم وان مدحه الناس والمظلوم سالم وان ذمه الناس — القانع غنى وان جاع ، والحريص فقير وان ملك » .

الجنيسد

هو فى نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الإطلاق ، توفى سنة ٢٩٨ هـ ، وكانت له احوال لا يقرها شرع ولا عقل .

ومن كلامه : « ان الله يخلص الى القلوب من بره ، على حسب ما تخلص اليه القلوب من ذكركه . فانظر ماذا خالط قلبك — الغفلة من الله تعالى اشد من دخول النار — اذا رايت الفقير فلا تبداه بالعلم ، وابداه بالرفق ، فان العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه » .

وفى كتب الغزالي مدد عظيم من الصوفية ، يؤكد بكلامهم رايه ، وكان لاولئك الصوفية مصنفات معروفة ، وكلمات ماثورة يتداولها الناس لعمده ، وانه لا شك فى انتفاعه بتلك الآثار . والرغبة فى الايجاز هى التى ارضتنا عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل .

الفصل الرابع متبع الشريعة

وأهم المنابع التى استقى منها الغزالى هو منبع الشريعة ،
ممثلة فى الآيات والأحاديث والأخبار . ويرى غير واحد من علماء
هد العصر أن الأخلاق عند الغزالى هى عين الأخلاق الإسلامية ،
وهذا رأى غير صواب ، ولكنهم حملوا عليه بما يرون من اكثاره
فى مؤلفاته من الآيات والأحاديث ، وسترى كيف أخطئوا حين تقرأ
ما فصلنا من آرائه فى الأخلاق .

ويشمل هذا المتبع ففهاء المسلمين الذين تأثر الغزالى بأرائهم
فى المعاملات . مع أنه احتاط فى النقل عنهم ، ولكن هذه الحيلة
لا تزيد عن مطالبتهم بمسايرة أصول الشرع الحنيف .

الانجيل

اطلع الغزالى على الانجيل ، واستفاد منه ، واعتمد عليه
ما شاء فى مؤلفاته . وهذا طبيعى من رجل مسلم أوصاه دينه
ان لا يفرق بين أحد من الأنبياء .

ولا عبرة بما كتبه الدكتور زويمر فى هذا الموضوع . لأن
الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالى الى مطالعته للانجيل
مع ان الغزالى لم يضل الا حين تعلق بأهذاب الآداب السلبية التى
دعا اليها الانجيل !!

ولتوضيح هذا نذكر ان الآداب التى وضعها الانجيل قسراً
طبيعية ، على معنى أنه لا يمكن أن يسكن اليها بطبيعته أحد من
الناس . فالحكمة الانجيلية التى تقول : من ضربك على خدك
الأيمن فأدر له خدك الأيسر حكمة غير معقولة ، لا يقرها عرف ،
ولا يدعو اليها قانون - والحكمة المسيحية التى تقول : من سخر
ميلاً فأمش معه ميلين حكمة غير ممكنة القبول . ومن المستحيل
أن تجد مسيحياً يدير لك خده الأيمن حين تضربه على خده
الأيسر ، أما المسيحي الذى يتبمك ميلين حين تسخره ميلاً فهو
قادر الوجود !!

ومن المستطرف ما لاحظته الدكتور زويمر على ما رواه الغزالي عن المسيح من أنه مكث يناجي ربه ستين صباحا لم يأكل . فقد قال : الحقيقة أنها أربعون . ولم تتعب نفسك يا سيدي الدكتور في هذا التصحيح ؟ المسألة برمتها خيال في خيال ، لأن الذي يمكنه ستين يوما أو أربعين يوما بلا طعام لا يصلح لشيء في هذا الوجود الزاخر بالجهد والجلاد . وهل يستطيع القسيسون والرهان أن يحيا هذه الحياة ، وهبهم استطاموا فما عسى أن تكون منزلتهم بين الأحياء ؟

وأي خطأ أقدح من قول الغزالي في الدرة الفاخرة : « اعتبروا بعيسى عليه السلام ، فقد قيل أنه لم يملك إلا ثوبا واحدا لبسه عشرين سنة ؛ ولم يأخذ معه في كل سياحاته إلا كوزا وسبحة ومشطا . وراى ذات يوم رجلا يشرب من نهر بحفنتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانيا ، ثم رأى رجلا يمشط لحيته بأصابعه ، فطرح المشط ولم يستعمله ثانيا ، وكان يقول دائما : حصاتي قدماى ، ويوتى مغائر الأرض ، وطعامى خضرتها ، وشرابى من ماء أنهارها ، ومقرى بين بنى آدم . »

وهذه من الغزالي دعوة مردودة ، لأن الإسلام لا يعرف هذا النوع من الحياة ، وكيف يدعو المسلمين إلى أن يعتبروا بما روى من عيسى لم يملك إلا ثوبا واحدا لبسه عشرين سنة ، مع أنه من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين سنة ، إلا أن تكون هذه أيضا معجزة ، وعفا الله عن لا يفهم هذه المعجزات !!

إن عيسى الذي يصورونه بهذه الصورة شخص خرافي لم يعرفه التاريخ . والا فأى أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب على صاحبه عشرين عاما لا يبلى ، ولا يعرض لابسه لفترة تلامذته وأصدقائه ؟ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالي عن المسيح من أنه قال : « إذا كان صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، ثلا

يرى الناس أنه صائم » فان في هذا الهديث دعوة الى كتمان الصوم ، والظهور بمظهر الترف ، بجنبنا للتمدح بمظهر الصيام .
ليس من العجيب أن يصدق الغزالي أن عيسى يقول : من اخذ ردائك فاعطه ازارك ، ومن ذا الذي يرضى من المسلمين أو النصراني أن يتأدب بهذا الأدب الغريب ؟!

ويستشهد الغزالي بقول عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في اناء واحد . مع أن هذا مناقض للآية الكريمة : « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . ويستشهد بقول عيسى : انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوما بيوم ، فان قلتم نحن اكبر بطونا فانظروا الى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق . وهذا يناقض الآية الكريمة « ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ومن الواضح أن الذي لا ينسى نصيبه من دنياه ، يسعى له ، ويجد في طلبه .

ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام ، وانما نرجح أن أتباعه جنوا على شريعته ، بما زوروا باسمه من الأحاديث وهذه جناية كثيرة الأمثال في الشرائع ، فان الاسلام مع تواتر سنده الأول وهو القرآن ، لم يعدم من اصحاب الغفلة واصحاب الغرض من زوروا الأحاديث باسم النبي حتى كادوا يقضون على ما للدين من قوة الحق ، وروعة الجمال .

ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو الى الزهد ، فان الدعوة الى الزهد اصل من اصولها الأولى . ولكننا نرجح أنها كانت تدعو الى الزهد بقدر ما تفل من حدة الناس ونقل من جشعهم وطمعهم قأما الدعوة الى الفرار من طيبات ما أحل الله فهي دعوة بعيدة الوقوع من الانبياء والمرسلين .

وكنا نحب أن لا يصدق الغزالي كل ما نقل عن المسيح ، ولكن الغزالي كان طيب القلب أكثر مما يجب ، وما أحوج العلماء الى الاعتصام بحبل الشك ، فان الشك وحده سبيل اليقين .

الفصل الخامس

اساتذة الغزالي وأصحابه

وبعد الذى قدمناه من ورود الغزالي للمناهل الفلسفية :
والشرعية ، والصوفية : لا نجد بدا من التنبيه الى انه افترف
كذلك من المنهل الذى ورده اساتذته وأصحابه . وقد لاحظنا أن
الذين تتلمذ الغزالي لهم كانوا فى الاغلب صوفية ، كما أن أكثر من
صحبهم كانوا صوفية .

فمن اساتذته الامام أحمد بن محمد الرذاكاتى ، وكان من
الفقهاء الصالحين ، وقد تلقى عنه دروسه الأولى فى طوس .

ومن اساتذته الامام ابو نصر الاسماعيلى ، وكان من الأمثلة
النادرة فى الورع والتقوى ، وقد تلقى عنه الغزالي فى جرجان ،
وعلق عنه التعليقة ، كما كانوا يقولون .

ومن اساتذته امام الحرمين ، وكان من اتقى اهل زمانه ، وفلا
تلقى عنه الغزالي فى نيسابور ، ويقال انه كان يحسد الغزالي ،
بالرغم من شهادته له بالتفوق والنبوغ .

ومن اساتذته الامام الزاهد أبو على الفارملى من أعيان تلامذة
أبى القاسم القشبرى وكان استاذة فى التصوف وقد عده السبكى
من أصحابه .

هؤلاء وغيرهم من اساتذة الغزالي وأصحابه اثروا فى حياته
العقلية تأثيرا غير قليل ، وطبعوا نظره الى الحياة بطابع خاص ، وفى
مقدور القارىء أن يرجع الى تفصيل حياة هؤلاء الذين اختصرنا
أخبارهم فى طبقات الشافعية . أما تلامذة الغزالي فسنعود اليهم
فى غير هذا الباب .

الباب الرابع
في مؤلفات الغزالي

تمهيد

تكلم ابن السبكي في طبقاته عن مؤلفات الغزالي ، وتبعه الزبيدي في شرح الاحياء ، ثم كتب جرجى زيدان في صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالي ، وتمتاز هذه الكلمة بشيئين : الاول ترتيب تلك الكتب بحسب موضوعاتها ، والثاني الاشارة الى اماكن وجود النسخ النادرة ، مخطوطة كانت او مطبوعة . الا انه لحسن حظ العلم نجد اكثر ما نوه جرجى زيدان بندرته أصبح اليوم في المكاتب والأسواق .

واهم كتب الغزالي فيما نحن بصدد من درس الأخلاق ، « كتاب الاحياء » ، وسنكتب عنه كلمة مفصلة ، وكتاب « ميزان العمل » وهو يقع في ٢١٥ صفحة ، ونحسبه يفصل في دقته كتاب الاحياء ، بل يشبه أن يكون خلاصة له ، وميزان العمل هذا مغايل لكتابه « معيار العلم » . وقد قال في مقدمته : (لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لا تنال الا بالعلم والعمل ، وافتقر كل واحد منهما الى الاحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغتنا منه ، ووجب معرفة العلم المسعد ، والتمييز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك ايضا الى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه . الخ) وقد نص على انه وضع اكثر هذا الكتاب على طريقة التصوف .

وبلى هذين الكتابين في الاهمية كتاب « الأربعين » . وهو جزء من كتاب « جواهر القرآن » ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وقد وضع به للاحياء ، وهو قريب منه في الموضوعات وفي التبويب .

ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب « منهاج العابدين » وهو آخر مصنفاته ، ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب ، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة . ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربى أنه ليس له ، وإنما هو لأبى الحسن على بن عليل السبتي ، وسترى بعد قليل ما زور باسم الفزالى من التأليف .

وهناك « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » ، كتبه للسلطان محمد بن ملكشاه ، وعن هذا الكتاب أخذنا رأى الفزالى في آداب الكتاب وواجبات الملوك ، وحقوق الوزراء . وسترى بعد ، كلمة في نسبة هذا الكتاب الى الفزالى ، وهو يقع في ١٢٤ صفحة وتجده مشحونا بالأقاصيص ، وهى فكرة حسنة في الترغيب والترهيب ، ولم يختص بها كتابه هذا ، ولكنها فيه اظهر من سواه .

ولا تنس كتابه « المنقذ من الضلال » ففيه صورة صادقة لحياته العقلية ، وهو يمثل وجهة نظره فيما شهدته من الحركة العلمية في عصره ذلك ، وقد كتبه بسداجة ظاهرة تكشف لنا عن قلب أبيض ، ونفس تجيش بالاخلاص .

وكتابه « المستصفى في الأصول » كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقبيح ، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم ، وحسن الأداء .

ورسالته « مشكاة الأنوار » تمثل لنا رأيه في منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بنى عليه العالم من دقائق الجمال ، وقد توسع في شرح قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » الى آخر الآية .

ويعد الفزالى من اكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته فخص كل يوم أربعة كراريس (١) وأهمها جميعا كما قدمنا هو كتاب الاحياء وهو سبب ما رزق من الخلود .

الفصل الأول

طريقته في التأليف

والغزالي في التأليف منهج جميل ، فهو يشرح أولا المذهب الذي يريد نقده ، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن ألف كتابا في مقاصد الفلاسفة ، حين هم بتأليف كتاب في تهافتهم ، ويقول في كتابه ذلك (ولنفهم الآن ما نورده على سبيل الحكاية مهما لا مرسلات من غير بحث عن الصحيح والفاقد ، حتى اذا فرغنا منه استأنفنا له جدا ونשמيرا في كتاب مفرد نسميه تهافت الفلاسفة) .

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية ، وقد ذكر في « المنقذ من الضلال » ص ٢٠ ، ٢١ أن بعض اهل الحق انكر عطيه مبالغته في تقرير حججهم ، وقالوا : هذا سمى لهم ، فانهم كانوا يهجزون عن نصره مذهبهم بمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقه لها ، وتربيته اياها ، واجاب بأنه استحسن أن يقرر شبهتهم الى حد الامكان ثم يظهر فسادها ، وهذا منهج لا نسرف ان كبرونا انه جميل .

ومما تمتاز به خطة الغزالي في التأليف ، الاعتماد على الخطايبات في اصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل ، يبدأ بذكر ما ورد في حمدها من الآيات ، يعقب بسرد ما جاء عنها من الاحاديث ، ثم الاخبار ، ثم الآثار ، وينطلق بعد ذلك في ذكر القصص والحكايات التي تسنولى على قلب القارىء ، وترسم في

نفسه اثر تلك الفضيلة ، وما لها من مقام محمود ، والامر كذلك اذا تكلم عن رذيلة من الرذائل ، وهو في هذا الباب لا يعتبر مبتكرا ، فقد سبقه القصاص ، ولكنه آخر عفى على الأولين ؛ وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذه الخطة ، وهو استنكار على غير أساس . ويكفي أن تقرأ كتب سميلاز الانجليزى المتوفى في ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ لتعرف حسن هذا المنهج في رأى المعاصرين ، فانى لم أر احدا يستنكر منهج سميلاز في الاكثار من الأفاصيل للترغيب في مكارم الأخلاق .

وتمتاز كتب الفزالي الأخلاقية بأنها صالحة لكل قارئ ، فلم يقصد المؤلف وضعها لطائفة معينة ، أو فريق خاص ، وانما وضعها لجمهور المسلمين .

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الفزالي : وهى اقباله على الخيال فهو يحسن ويقبح بطريقة فنية بديعة ، تخلق العقول ، وتمتع القلوب . وانظر كيف يشبه من يحسب المحسن انما يحسن باختياره انه يشبهه بالنملة ترى سواد الخط على البياض يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك الى القلم : اذ حدقتها الصغيرة الضعيفة ، لا تمتد الى الاصبع ، ومنها الى اليد ، ومنها الى القدرة المحركة لليد ، ومنها الى الارادة التى القدرة مسخرة لها ، ومنها الى المعرفة التى يتوقف انبعاث الارادة عليها ، ومنها الى صاحب القدرة والعلم والارادة (١) .

ويشبه الضعيف القلب ، بالحمار فى معلقه ، والدجاج فى قفصه يرمق ما تعود من صاحبه ، لا يكاد ينفك عن ذلك ، وبقاعدت نفسه عن معالى الأمور ، وانقطعت همته ، فلا يكاد يقصد امرا شريفا (٢) .

(١) ٢٧٩ الاربعين .

(٢) ٧٦ منهاج .

والذى يعبر بنظره كتاب الاحياء وكتاب الأربعين وكتاب المنهاج، يرى البدائع الفنية ، والوان البيان ، فى طرق الترغيب والترهيب، وهو يجيد فى التخيل حتى يقلب القارئ على أمره ، ويشككه فى نفسه ، ويحمله قهرا على أن يدرس نفسه من جديد ، وهذا وجه الخطر فى مؤلفات الغزالي ، اذ كانت فى الأغلب وسواس صوفية فشيت بألوان السحر والفتن ، فلا يسلم منها الا العالون والاقوياء .

الفصل الثانى

الصوت المردد فى مؤلفات الغزالي

ومع محاكاة الغزالي لمن تقدمه من المؤلفين ، فانا نراه يكرر كثيرا الأفكار ، والمبارات ، والأمثلة ، حتى لنظن بضاعته واحدة ، فى جميع مؤلفاته ، ويمكن الحكم بأن الاحياء ، والأربعين ، والميزان ، والمنهاج ، والتبر المسبوك ، والأدب فى الدين ، وبداية الهداية ، وجزءا كبيرا من مؤلفاته فى الفقه والتوحيد ، اقول يمكن الحكم بأن جميع هذه المؤلفات يندر أن تكون بينها فروق جوهرية . ولو أننا وازنا بين كتبه فى باب كتاب الاخلاص لوجدنا الأمثلة واحدة ، والعبارات واحدة ، وانما تختلف بالاطناب والايجاز .

واذ كان الرجل مفتونا بأراء الصوفية فانا نجد تأثره بهم يختلف اختلافا قليلا بحسب الظروف ، فهو فى المنهاج ، أقرب اليهم منه فى الاحياء ، فما يحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك ،

ونلاحظ أنه ليست هناك غاية موحدة يسعى لنصرتها الغزالي بمصنفاته العديدة : فهو تارة يلوذ بأكتاف الشريعة ، فيمنع ما تمنع ويبيح ما تبيح . وتارة يساير الصوفية ، فينصرهم فيما يسمون اليه من الانفراد بفهم أسرار الوجود ، وهو مع ذلك يصرح بأن علم المكاشفة لا يودع الكتب ، ولا يصح أن يلقى لغير الخواص !

وينتج مما سلف أن الفزالي ليس من المبتكرين المبدعين ، وإنما يمتاز بصبره على قرع ذلك الناقوس الذي أراد أن يوقظ به الناس من سباتهم ، وإن لم يكن ذلك الناقوس من صنع يديه ، وقد أفاق الناس ولم يروا غير الفزالي ، ثم هرعوا إليه ، فوجدوا كتاب الأحياء في يمينه ، وما زالوا به يحلمون .

الفصل الثالث

كتاب الأحياء

هو أهم ما كتب الفزالي في الأخلاق ، ألفه في أخريات حياته حين جنح إلى اعتزال الناس ، ثم قرأه في دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة ، منها الوجيز ، ومنها المبسوط .

وقد أسسه على أربعة أرباع : ربع العبادات ، ويشتمل على كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وربع العادات ، ويشتمل على كتاب الأكل ، وكتاب آداب التكاثر ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الخلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وربع المهالكات : ويشتمل على كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ،

وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وربع المنجيات : ويشتمل على كتاب التوبة ، وكتاب الصبر ، والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والاخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكير ، وكتاب ذكر الموت .

ونظرة الى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الفزالي بكتاب الاحياء ، وليس كثيرا أن ذكرنا هذا البرنامج ، فان الاحياء عمدتنا فيما قصدنا اليه من تحرير ما وضع الفزالي في الاخلاق ، ومن الخير أن نذكر رأى الفزالي نفسه في ذلك الكتاب الممتع الجامع فقد قال بعد أن بين ما اختطه في شرح العبادات ، والعبادات ، والمهلكات ، والمنجيات : « ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الاول - حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه .

الثاني - ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه .

الثالث - إيجاز ما طولوه ، وضبط ما قرروه .

الرابع - حذف ما كرروه ، وإثبات ما حرروه .

الخامس - تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً ، إذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه » .

الفصل الرابع

اغلاط الاحياء

نذكر هنا شيئا من المآخذ التي أخذها المتقدمون على الفزالي فيما يخص كتاب الاحياء . لأن في ذلك بيانا لقيمة هذا الكتاب في نظر المتقدمين ، ولأن فيه تمهيدا لما نحن بسبيله من نقد آراء الفزالي في الاخلاق .

١ - نقل السبكي في طبقات الشافعية أن ابا عبد الله المازري قال وقد سئل عن الاحياء : « ان الفزالي يستحسن أشياء مبنها على ما لا حقيقة له ، مثل قوله في قص الأظفار : تبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة » ١

٢ - وانكروا عليه كما نقل الزبيدي ، قوله في الاحياء : ليس في الامكان أبدع مما كان ، واستندوا في انكارهم الى أن هذا يؤهم عجز الجنب الالهى ، وهو كفر صريح ، وانما انحصر انكارهم في هذه الوجهة لاغراقها في المباحث الدينية ، ولو كان لهم نصيب من العلم والفن لعدوا هذا عقبة في سبيل الاختراع .

٣ - ونقل الزبيدي عن الأجوبة المرضية للشعراني أن مما انكر على الفزالي قوله : يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال ، ان قطعت قطعاً مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، كما يجوز تمزيق الثوب ليرقع به ثوب آخر ! وقد أجاب الزبيدي على هذا بجواب مضحك جاء فيه : (وبالجمل فلو كان جميع أموال الدنيا وامتعها بيد الفقير ورأى حضور قلبه مع الله تعالى لحظة باتلافها كلها ، بحرقتها أو رميها في بحر لكان ذلك بطريق الاجتهاد ، ولا لوم الا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله اسرافاً وسفهاً) وقد فات الزبيدي أن غرض المنكر ليس منصبا على التبديد والاسراف ، وانما هو موجه الى الخروج من الوقار ، فانه لا مزية في أن غرض

الشرع من التجميل انما يرجع الى الرغبة في أن يسبغ على المؤمن
رداء الجلال .

٤ - ومما أنكروا عليه قوله في الاحياء : المصود بالرياضة
تفريغ القلب ، وليس ذلك الا بالخلوة ، والجلوس في مكان مظلم ،
فان لم يكن مظلما لف رأسه في جيبه ، أو تدثر بكساء أو رداء فانه
في مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال
الربوبية (٤١) .

وقد تنبه ناقدوه الى أن التقليل من الطعام قد يورث الجنون !
فمن يدرينا أن ما يسمعه المريض هو نداء الحق ، أو أن الذي
يشاهدوه هو جلال الربوبية ، ومن يضمن أن لا يكون ما يجده هو
من الوسواس والخيالات الفاسدة !

٥ - وأنكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد : اذا كان الأولاد
عقوبة شهوة الحلال ، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام (١)

٦ - وأنكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات
عند السباع في برية ليمتحن توكله على الله هل صح أم لا (٢)
قالوا وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع معرضه
لأسباب الهلاك ؟

٧ - ومما أنكروا عليه قوله : كان بعض الشيوخ في بدايته
يكسل عن قيام الليل ، فالزم نفسه العيام على رأسه طول الليل
لتصير نفسه بحيث تجيبه الى قيام الليل اختيارا ، وكذلك عالج
بعضهم حب المال : فباع جميع أمتعته ورمى ثمنها في البحر خوفا
من أن يقع في حب تركية الناس له ، ووصفه بالجد ، أو الرياء في
فعلها ، ولذلك كان بعضهم يستأجر من يشتمه على ردوس الأشهاد
ليعود نفسه الحلم ، وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند اضطراب
الوج ليعود نفسه الشجاعة ، وكان بعضهم اذا خاف النوم يقف
على رأس حائط عال حتى لا يأخذه النوم (٣) قال ابن القيم : واني

لا تعجب من أبى حامد هذا كيف يأمر بهذه الأمور التى تخالف ظاهر الشريعة ، وكيف يحل لأحد أن يقوم على رأسه طول الليل ، وكيف يحل رمى المال فى البحر ، وكيف يحل سب المسلم بلا سبب ، وهل يجوز لمسلم أن يستأجر من يشتبهه ، وهل يجوز لأحد أن يقوم على رأس جدار عال ويعرض نفسه للوقوع بالنوم فتتكسر رقبتيه فيموت ؟؟

٨ - ومما أنكروا عليه حكايته عن ابن الكريتي شيخ الجنيد أنه قال : نزلت فى محطة فعرفت فيها بالصلاح ، فشت قلبى ، ونفر منه ، فدخلت الحمام ، وسرقت ثيابا فاخرة ولبستها ، ثم ليست مرفعتى فوقها ، وخرجت فجعلت أمشى قليلا قليلا ، فلحقونى وأخذوا منى الثياب ، وصفعونى وسمونى لص الحمام ، فسكنت نفسى (١) قال الغزالى ، فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر الى الخلق ومراعاتهم لهم ، وأهل النظر الى النفس وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه ، اذا رأوا صلاح قلوبهم فى ذلك ، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا فى الحمام (١١) قال ابن القيم : سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الأحياء ! فليته لم يحك فيه مثل هذه الأمور التى لا يحل لأحد السكوت عليها ؛ ثم نقل نص الامام أحمد والشافعى فى أن من سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده . ثم قال : وتعجبى من هذا الفقيه الذى استلب التصوف علمه وعقله ، أكثر من تعجبى من هذا المستلب الثياب من الحمام ! فيأليت أبا حامد بقى مع قواعد الفقه واستغنى عن هذه الهدايئات .

٩ - وأنكروا عليه تقرير ما حكاه عن أبى الحسن الدينورى أنه حج اثنتى عشرة حجة ، وهو حاف مكشوف الرأس ! قال ابن القيم : وهذا من أعظم الجهل لما فى ذلك من الأذى للرأس والرجلين ، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكان هؤلاء

الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف ، وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فنعوذ بالله من تلبيس إبليس . فان مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام ، اذ يظنون ان فعل مثل هذا من الصواب .

١٠ - وانكروا عليه تفسيره عن ابي الخير الاقطع التيتاني قوله : اني عقدت مع الله عهدا ان لا آكل شيئا من الشهوات ، فعددت يدي الى ثمرة في شجرة فقطعتها ، فبينما انا امضها اذ ذكرت العهد فرميت بها من فمي ، فداربى فرسان وقالوا قم ! واخرجوني الى ساحل بحر اسكندرية ، واذا امير وحوله خيل وجند ، فقالوا انت من اللصوص ، واذا معهم جماعة من لصوص السودان ، فسألوهم عني ، فقالوا لا نعرفه ، فكذبهم الامير وشرع يقدم يدا ويقطعها الى ان وصل الى ، وقال لي : تقدم ومد يدك ، فمدتها فمقطعت الى آخرها !! قالوا : فانظروا ما يفعل الجهل العظيم بصاحبه ، فلو ان عند التيتاني رائحة علم ، لعلم ان ما فعله حرام عليه ، وليس لابليس عون على الزهاد والعباد اكثر من الجهل ، وما اظن غالب ما يقع لهؤلاء الا من الجنون .

١١ - وانكروا عليه قوله : ان الاشتغال بعلم الظاهر بطالة (!) قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه . وأصل ذم الصوفية للعلم انهم راوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم الى الرياسة الا بعد طول زمان ، بخلاف طريقته المبتدعة من لبسهم الزى ، وصلاتهم بالليل ، وصيامهم بالنهار ، ونقصير الثياب والاكمام .

١٢ - وانكروا عليه حكايته عن ابي تراب النخشبى انه قال لمريد له : لو رايت ابا يزيد مرة واحدة ، كان انفع لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة (؟ !) قال ابن القيم : وهذا الكلام فوق الجنون بدرجات .

١٣ - وأنكروا عليه تقريره لرمى الشبلى ما كان معه من الدنانير في دجلة ، وقوله : ما أعزك عبد الا أذله الله تعالى . قال ابن القيم : وأنا أتعجب من أبى حامد أكثر من تعجبى من هؤلاء الجهلة بالشريعة ، كيف يحكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم ؟ لا على وجه الإنكار ، وإى رائحة بقيت من الفقه عند أبى حامد حتى يكتب عنه شيء من العلم ؟ فان الفقهاء كلهم يقولون ان رضى المال في البحر لا يجوز .

١٤ - وأنكروا عليه تقريره قول أبى سليمان الدارانى : اذا طلب الرجل الحديث ، او سافر في طلب المعاش ، او تزوج ، فقد ركن الى الدنيا (١) ؟ قالوا : هذه الاشياء الثلاثة مخالفة لقواعد الشريعة . وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد : « ان الملائكة لتضع أجنتها على طالب العلم » ؟ وكيف لا يطلب المعاش . وقد قال عمر رضى الله عنه : « لان أموت من سعى رجلى اطلب كفاف وجهى أحب الى من ان أموت غازيا في سبيل الله ؟ » وكيف لا يطلب التزويج ، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول : « تناكحوا تناسلوا فانه مباه بكم الأمم يوم القيامة ؟ » .

١٥ - وأنكروا عليه تقريره قول أبى حمزة البغدادي : انى لاستحى من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان : وقد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شبعى زادا تزودت به (١) قالوا : ومن العجيب اعتذاره عن أبى حمزة بقوله : كلام أبى حمزة صحيح ، ولكن يحتاج الى شرطين : أحدهما أن تكون للانسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعا ونحوه . الثانى ان يمكنه التقوت بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذى معه طعام بعد اسبوع ، أو ينتهى الى محلة أو حشيش يجد به ما يقوته . قال ابن القيم : أقبح ما فى هذا القول صدوره من فقيه فانه قد لا يلقى أحدا . وقد يضل ، وقد يمض فلا يصلح له الحشيش ، وقد يلقاه من لا يطعمه ، وقد يموت فلا يدفنه أحد .

١٦ - وأنكروا عليه ما أجاب به من سألته عن رجل يدخل
البادية بلا زاد حيث قال : هذا من فعل رجال الله - قيل له فان
مات ؟ قال : الدية على العاقلة (١) قالوا : هذه فتوى جاهل
بقواعد الشريعة ، اذ لا خلاف بين فقهاء الاسلام انه لا يجوز لأحد
دخول البادية بغير زاد ، وان فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاص
مستحق للعقوبة في الآخرة .

١٧ - وأنكروا عليه ايضا ما حكاه عن شقيق البلخي انه رأى
مع شخص رغبيا ليفطر عليه من صومه فهجره ، وقال : تمسك
رغبيا الى الليل !

١٨ - وكذلك أنكروا عليه قوله : أعلم ان ميل قلوب أهل
التصوف انما هو الى تحصيل العلوم الدنية ، دون العلوم النقية ،
ولذلك لم يحضوا على دراسة العلم ، ولا تحصيل ما صنفه
المصنفون ، وانما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده ،
والاشتغال بذكر الله فقط (٢)

١٩ - وأنكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه
السلام : « واجنبني وبنی أن نعبد الأصنام » . فقد قال :
الأصنام الذهب والفضة . وعبادتهما حبهما والاغترار بهما .
وواضح ان هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد .

٢٠ - وأنكروا عليه أيضا تقريره قول سهل التستري : ان
للربوبية سرا لو ظهر لبطلت النبوة ، وان للنبوة سرا لو ظهر
لبطل العلم ، وان للعلماء بالله سرا لو ظهر لبطلت الأحكام
والشرائع (٣)

وأنا أكتفى بهذا القدر من أغلاط الأحياء ، ففيه صورة واضحة
لآراء العلماء في ذلك الكتاب ، وسترى في باب غير هذا ان هذه
الحركة العنيفة لم تخدم بموت الغزالي ، بل ظلت نائرة عدة

أجيال . وما عجبت لشيء عجبى للزبدى ، فقد نولى تنفيذ هذه
الآخذ ، واحدا واحدا . وهو بعسف ممقوت . يكفى أن يعلم أنه
لا يرتكز على قاعدة مسلمة ، من عرف ، أو تشريع ، وإنما يستند
على قواعد من التصوف بنيت على الماء . ومن أراد التحقق من
صحة هذا الحكم فليرجع الى الجزء الأول من شرح الاحياء ، من
ص ٢٧ الى ص ٤٠ .

ومن الأجوبة السخيفة ما أجاب به السبكي عن الغزالي في
قص الأظفار فقد قال : وأما ما ذكروه في قص الأظفار فالأمر
المسار اليه يروى عن على كرم الله وجهه غير أنه لم يثبت وليس
في ذلك كبير أمر ولا مخالفة شرع ، وقد سمعت جماعة من الفقهاء
يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطيء . ومن داوم عليه أمن من
وجع العين . ويروون من شعر على كرم الله وجهه هذا :

أبدأ بيمينك وبالخنصر	في قص أظفارك واستنصر
واختم بسبابها هكذا	فافعله في الرجل ولا تمر
وأبدأ ليسراك بابهامها	والأصبع الوسطى وبالخنصر
ويبيع الحصر سبابة	بنصرها خاتمته الأسر
هذا أمان لك قد حربه	من رمد العين كما قد قرى

والسخف ظاهر كل الظهور في هذا الجواب ، والا فما هي
الصلة بين قص الأظفار بهذه الكيفية ، وبين الأمن من وجع العين ؟
وكيف قال على بن أبى طالب هذا الشعر السخيف وقد كان من
أفصح الناس ؟

الواقع أن الغزالي كان فتنة من فتن العصور القديمة ، وقد
نسى العلماء في الدفاع عنه أن هناك عفلا يجب أن يحكم ، وأنه لن
يخلو العالم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون !

الفصل الخامس

غفلة الغزالي وعناده

— ١ —

أما غفلته فدليلها ما في كتبه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وهي تفرب من ستمائة حديث .

وأنا لا أشك في نزاهة الغزالي وبعده من الكذب على رسول الله ، فمحال على مثله في ورعه وتقواه أن يزور على النبي حديثا ، أو يضع في كتبه أحاديث يعلم أنها من الموضوعات . وحقيقة الأمر أن الرجل كان « يمتاز » بقسط كبير من الفعلة والبسطة ، والا فكيف صدق أن النبي يقول : « أن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » . وأقل الناس علما بالبلاغة يدرك أن رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث وكيف يصدق ما روى من أن جبريل نزل فقال : « أن الله يقرئك السلام » . ويقول : اتحب أن أجعل هذه الجبال من ذهب فتكون معك أينما كنت ؟ » .

وما لى أطيل في نقد ما جاء في الأحياء مما لا اسناد له من الأحاديث وهي مسطورة في طبقات الشافعية ، في ثمان وثلاثين صفحة من الجزء الرابع . والضعف فيها ظاهر لا يحتاج الى دليل .

— ٢ —

وأما عناده فدليله اصراره على ابقاء ما جاء في كتبه من الأغلاط ورميه نافديه بالغباوة ، والحسد ، والكذب ، مع أنه كان يجمل به أن يتأمل تقدمهم برفق ، ويميز بين الثب منه وبين السمين ، ولكنه اندفع كالصخر حطه السيل من شاهق ، وأخذ يرميهم بالزيف والفسوق .

وبيان ذلك انه ما زال يغرب معاصروه في الانتكار عليه حتى ضاق تلامذته ذرعا بذلك ، فكتب اليه احدهم يرجوه دحض تلك المزاعم فنصف كتابا سماه : « الاملاء في اشكالات الاحياء » . وما نريد الآن تلخيص هذا الكتاب ، فهو في أيدي الناس ، وانما نذكر مقدمته لنرى كيف ابتأس بما فعل أولئك المنكرون ، فان في هذا صورة لجانب من جوانبه الأخلاقية ، وهو يدلنا على الأقل على مبلغ ثقته بنفسه ، وإيمانه بصحة ما جاء في الاحياء ، وعدم اكترائه بآراء الناس .

قال : (سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقبيها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل مغانيها ، عن بعض ما وقع في الاملاء الملقب باحياء مما أشكل على من حجب فهمه . وقصر علمه . ولم يفر بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، واظهرت التحزن لما شوش به شركاء الطعام ، وامثال الانعام ، واجماع العوام ، وسفهاء الاحلام ، وعار اهل الاسلام : حتى طعنوا عليه . ونهوا عن قراءته ، واقتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابدته ، ونسبوا عليه الى ضلال واضلال ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيف في الشريعة واختلال ، فالى الله انصرافهم ومآبهم . وعليه في العرض الأكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، « وسيعلم الدين ظلموا اى منقلب ينقلبون » . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ، ولو ردوه الى الرسول والى اولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولكن الظالمين في شقاق بعيد . ولا عجب فقد ثوى (١) دلاء الطريق وذهب ارباب التحقيق ، فلم يبق في العالب الا اهل الزور والعسوق متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ،

(١) هلك .

ومتقاطعين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا أو محبة نناء ،
او مغالبة نظراء . قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر . وتآلفوا جميعا
على الفعل المنكر . وعدمت النصائح منهم في الأمر ، وصافوا
بأسرهم على الخديعة والمكر ، ان نصحهم العلماء أغروا بهم ، وان
صمت عنهم العقلاء أذروا عليهم ، اولئك الجهال في علمهم ،
الفقراء في طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لا يفلحون
ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا يظهر عليهم موارثة الصدق ، ولا
سطة حولهم أنوار الولاية ، ولا تتحقق لديهم اعلام المعرفة ،
ولا يستر عوراتهم لباس الخشية . لأنهم لم ينالوا احوال النقاء ،
ومراتب النجباء وخصوصية البدلاء ، وكرامات الأوتاد ، ولو
عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق . وعلموا علم اهل الباطن (١٠٠) ،
الى آخر ما قال .

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة ان الغزالي نصر بعد
ان نفسه معاصروه على التشبث بأدبال الصوفية . ويمكننا ان
نتوقع ما سيجيب به في كل ما اخذ عليه من الوجهة الشرعية ،
ويجب ان نفهم ذلك منذ الآن ، لنخرج كل ما نقلناه في آرائه
الأخلاقية من الشذوذ هذا التخريج ولنرجع أسرافه في بعض
المواطن الى هذا الأصل الذي اختاره وارتصاه وهو التصوف والا
فمن هم النقباء ، والنجباء ، والبدلاء ، والأوتاد ، ان لم يكونوا
جماعة من المتصوفة الذين سستبيحون ما لا يباح ؟ !

ومن ظرف ما اجاب به الغزالي فيما اخذ عليه من الأغلاط
النحوية ، انه قليل الخبرة بالنحو ، ثم ما اجمل نصحه للامدته
بأن يصلحوا ما يعثرون عليه من اشباه هذه الأغلاط . اويا لبيته
نصح بمثل هذا في اصلاح ما ضل فيه من الأحكام !

الكتب على الفزالي

ومما يجب التنبيه له أن الفزالي لم يسلم من الكتب عليه فقد وضعت المؤلفات باسمه ، واتجر به المضللون . ويذكر الزبيدي من هذه الكتب : (السر المكتوم في أسرار التجوم) وينص على أن هذا الكتاب نسب أيضا إلى الفخر الرازي ، وأنه سئل عنه فأنكره . ومما دس على الفزالي كتاب : تحسين الظنون ، وكتاب النفخ والتسوية ، وكتاب المضمون به على غير أهله . قال السبكي : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه ، ثم قال : معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه مختلفا موضوعا عليه . قال الزبيدي : والأمر كما قال : فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى القديم بالجزئيات ، وكل واحد من هذه يكفر الفزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟

وقد ذكر الاستاذ الدكتور على العناني في محاضراته بالجامعة المصرية أنه بعد أن يكون « المضمون به على غير أهله » هو ما بأيدي الناس ، لأن هذا الكتيب الضعيف لا يدل على المعنى الذي قصده الفزالي من « المضمون به على غير أهله » ويرجح الدكتور العناني أن يكون « المضمون به على غير أهله » كتابا ضخما يشمل آراء الفزالي الفلسفية التي يضمن بنشرها على الجمهور .

وعندي أن رأى الدكتور العناني صواب لأمرين : الأول أن الفزالي كان ينصح دائما بأن لا يلقي للامة غير الكلام البسيط فمن العقول أن تكون له آراء خاصة تخالف ما في كتاب الاحياء وامثال كتاب الاحياء الثاني ما ذكره الزبيدي من أن كتاب « المضمون به على غير أهله » يشتمل على التصريح بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ، فان هذه المسائل لا توجد في النسخة التي يتداولها الناس .

وقد رجح جورجى زيدان فى فهرس تاريخ « الآداب العربية »
ان كتاب : « التبر المسبوك » مرسوم على الغزالى ، وقد حاولت
تحقيق ذلك ، فوجدت ما يقرب راي جورجى زيدان وما يبعده .
اما ما يفرضه فهو اسقاط اسم من ترجمة من الفارسية . وظهر
الكتاب بمظير الضعف فى كثير من الموضوعات ، واما ما يبعده فهو
تغارب مادته من مؤلفات الغزالى الاخلاقية ، واحالته على الاحياء فى
كلامه عن رذيلة الغضب الا أن يكون من دسه عليه غشى فعلته تلك
بهذه الفرائن الصناعية ، التى بوهم القارئ ان لا وضع ولا
اختلاق . ومما لا مريه فيه ان مصمعات وضعت باسم الغزالى ،
فاما عددها فلا يزال مظهره الارتياح .

ولا يعوتنا فى ختام هذا الباب ان نذكر القارئ بما لاحظناه
فيما سلف من اختلاف آراء الغزالى فى كتبه ، باختلاف سنه ،
وصحته . فقد وضع مؤلفاته فى ظروف مختلفة ، كان فى بعضها
يحكم العغل والشرع ، وكان فى بعضها يساير الصوفية فى اوهامهم
ووساوسهم . والرجل فى الواقع معدود ، فقد كان يؤلف فى
اوقات لا تصلح مطلقا للتأليف ، لانه يشترط فى المؤلف ما يشترط
فى الفاضى من الصحة وهدوء البال .

الباب الخامس
في مباحث تمسّ الأخلاق

تمهيد

نبين في هذا الباب قيمة العمل في ذاته ، شر هو أم خير ،
حس أم قبيح ، ضار أم نافع . ثم نتكلم عن الإرادة ، وعن
الضمير ، وعن الأغراض والنتائج ، والوسائل والغايات . وسبيلنا
في هذا الباب ان نجمل الآراء الفلسفية اجمالاً لنبين بازائها آراء
الغزالي نوعاً من البيان .

الفصل الأول

الخير والشر

العمل الذى يجب أن يعمل ، أو يحسن أن يعمل ، هو الخير والعمل الذى يجب أن لا يعمل ، أو ينبغى أن لا يعمل ، هو الشر .
فللخير درجات ، وللشر درجات .

هذه لغة اليوم . أما الفزالى فكان تارة يسمى ما يجب أن يعمل واجبا ، وما يحسن أن يعمل مستحبا ، وما يجب أن لا يعمل حراما وما ينبغى أن لا يعمل مكروها وما عدا أولئك فهو مباح .

وكان تارة أخرى يقسم الأفعال الى : حرام ، وواجب ، ومباح . أما الحرام فهو المقول فيه : اتركوه ولا تفعلوه . وأما الواجب فهو المقول فيه : افعلوه ولا تتركوه . وأما المباح فهو المقول فيه : ان شئتم فافعلوه وان شئتم فاتركوه .

الحسن والقبيح

وربما قسم العمل الى : حسن ، وقبيح ، ومباح – واليك إجمال ما فصله فى كتابه « المستصفى فى الأصول » :

هناك اصطلاحات ثلاثة مختلفة فى اطلاق لفظ الحسن

والقبيح :

الأول - ان الأفعال تنقسم الى ما يوافق غرض الفاعل ، والى ما يخالفه ، فالموافق يسمى حسنا ، والمخالف يسمى قبيحا ، والثالث يسمى عبثا .

الثانى - الحسن ما حسنه الشرع بالثناء على فاعله . ويقول الفزالى : يكون المأمور به شرعا ، ندبا كان أو ايجابا ، حسنا في المباح لا يكون حسنا .

الثالث - الحسن ما لفاعله أن يفعله - فيكون المباح حسنا مع المأمورات .

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع أو قبحه . وهنا يجزم الفزالى بأن العمل لا يكون حسنا لذاته ، ولا قبيحا لذاته ، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال ما يدرك حسنه بضرورة العقل ، كأنقاذ الغرقى والهلكى . ومعرفة حسن الصدق ، ومنها ما يدرك قبحه بضرورة العقل : كالكفران وإيلاء البريء ، والكلب الذى لا غرض فيه .

ويحتج المعتزلة لذلك : بأننا نعلم قطعا أن من استوى عنده الصدق والكذب آثر الصدق ، ومال اليه ان كان عاقلا ، وليس ذلك إلا لحسنه . وان القوى اذا رأت ضعيفا مشرفا على الهلاك يعيل الى انتقاذه ، وإن كان لا يعتقد أصل الدين فينتظر ثوابا ، ولا يوافق ذلك غرضه ، فقد يتعجب به ، بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف اذا أكره المرء على إفشاء السر أو نقض العهد .

ويجب الغزالي : بأنه لا ينكر اشتها هذه القصايا بين الخلق
وكونها محمودة ، ولكنه يصر على أن مستندها : اما التدين
بالشرائع واما الأغراض .

مشارات الغلط

ولكن الأغراض قد تدق ، فلا يتنبه لها الا المحققون ، من أجل
ذلك به على مشارات الغلط ، وهي ثلاثة :

الأول - ان الانسان يطلق اسم القبح على ما يحالف غرضه ،
وان كان يوافق غرض غيره . فان كل طبع مشغوف بنفسه ،
فيفضى بالقبح مطلقا ، وربما يضيف القبح الى ذات الشيء ، فيكون
قد قضى بأمور ثلاثة ، هو مصيب في واحد منها ، وهو اصل
الاستقبح ، ومخطيء في امرين : احدهما اضافة القبح الى ذاته ،
اذ غفل عن كونه قبيحا لمخالفته غرضه ، والثاني حكمه بالقبح
مطلقا ، ومنشؤه عدم الالتفات الى غيره بل عدم الالتفات الى احوال
نفسه ، فانه قد يستحسن في بعض الأحوال عين ما يستقبحه اذا
اختلف الغرض .

الثاني - ما هو مخالف للغرض في جميع الأحوال ، الا في
حالة واحدة نادرة ، قد لا يلتفت اليها الوهم ، بل لا تخطر بالبال ،
فيراها مخالفا في جميع الأحوال ، فيفضى بالقبح مطلقا ، لاستيلاء
احوال قبيحة على قلبه ، وذهاب الحالة النادرة عن ذكره .

الثالث - سبق الوهم الى العكس ، فان ما يرى مفرونا
بالشيء يظن ان الشيء ايضا مقرون به مطلقا لا محالة ، ومثاله
نفره من نهشته الحية من الجبل المبرقش اللون ، لانه وجد الأذى
مقرونا بهذه الصورة فتوهم ان هذه الصورة مقرونة بالأذى ، فان
الوهم عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان من
المبيت في بيت فيه ميت ، مع قطعه بأنه لا يتحرك ، ولكنه يتوهم
في كل ساعة حركته ونطقه .

نقض حجة المعتزلة

وبعد أن بين الغزالي هذه المرات أخذ يناقش ما احتج به المعتزلة وهو يرى أن الانقاذ إنما يترجع على الإهمال في حق من لا يعتقد الترائع ، لدفع الأذى الذي يلحق الإنسان من رقة الجنسية ، وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه ، وسببه أن الإنسان يقدر نفسه في تلك البلية ويقدر غيره معرضا عنه وعن انقاذه ، فيستقبحه منه بمخالفة غرضه ويعود فيقدر ذلك الاستقباح من المشرف على الهلاك في حق نفسه فيدفع عن نفسه ذلك الفبح المتوهم ، فإن فرض في بهيمة أو في شخص لا رقة فيه ، فهو بعيلا تصوره . ويبقى أمر آخر : هو طلب الثناء على إحسانه . فإن فرض حيث لا يعلم أنه المنقذ ، فقد يتوقع أن يعلم فيكون ذلك التوقع باعثا . فإن فرض في موضع يستحيل أن يعلم ، فقد يبقى في النفس ميل يضاهي نفرة طبع الملدوغ من الجبل المبرقش وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فظن أن الثناء مقرون بها على كل حال ، والمقرون باللبذ للذيد ، كما أن المقرون بالمكروه مكروه .

بل الإنسان إذا جالس من عشقه في مكان ، فإنه يحس من نفسه بتفرقة بين ذلك المكان وغيره ، إذا انتهى إليه . ولذلك قال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومي :

وحب أوطان الرجال اليهم ما رب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم جهود الصبا فيها فحنوا لذلك

وكذلك إخفاء السر ، وحفظ العهد . إنما تواصى بهما الناس

لما فيهما من المصالح . فمن يحتمل في سبيلهما الضرر ، فأنما يحتمله لأجل الثناء ، فان فرض حيث لا ثناء ، فقد وجد معرونا بالثناء ، فيميل الوهم الى المقرون باللديد وان كان خاليا عنه .

تحرير هذا البحث

هذه خلاصة ما يراه الغزالي في تأييد أهل السنة ، وتخطئة المعتزلة . وتكون النتيجة على رأى أهل السنة أنه لا حسن ولا قبح قبل ورود الشرع ، وأنه لا ثواب ولا عقاب قبل ورود الشرع وهذا الرأى خطأ من وجهين :

الأول - مخالفته لجوهر الشريعة ، فان الشريعة انما جاءت لهداية الناس ، ولا معنى للهداية غير ارشادهم الى ما حسن أو قبح من الأفعال ليفعلوا الحسن ، ويجتنبوا القبيح . ولو كانت الأعمال خالصة في ذاتها من صفة الحسن والقبح ، لما كانت هناك حاجة الى الشرائع ، ولكان خيرا للناس أن لا يحملوا أعباء التكليف .

الثانى - استهائته بالشخصية الانسانية ، فانه اذا صح أن لا حكم للعقل قبل ورود الشرع ، فان معنى ذلك أن الشخصية الانسانية لا تصلح لفهم حقائق الأشياء ، وما أدرى كيف صلحت بعد ذلك لحمل أمانة الدين الحنيف ؟

والواقع أن الأشاعرة يجنون على العقل حين يحكمون بأن التحسين والتقبيح لا يكون الا بالشرع . فالزنا عندهم قبيح ، لا لضرره كما يحكم بذلك العقل ، بل لأن الشرع حكم بقبحه ، وعلى ذلك لو حكم الشرع بحسن الزنا لكان حسنا ، ولوجد الأشاعرة من أوجه المغالطة ما يشبتون به أنه حسن ، ولهذا الرأى نتيجة من أسوأ النتائج : وهى الركون الى ما وقع فى الشرائع من الأغلاط ، فقد ينذر أن توجد شريعة لم تمتد اليها يد التحريف ، فاذا شئت

ان تتحاكم الى العقل لتتقى الشرائع من أوشاب المسخ والتشويه ،
وقف في وجهك الجهال باسم الدين ، وقالوا ما لنا وللعقل ؟
« انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آبارهم مهتدون » !!

الضار والنافع

لا يفرق الغزالي بين كلمة شر وكلمة ضار ، كما يفعل علماء
الأخلاق . فمن الواضح انى قد اعمل عملا ضارا ولكنه غير شر ،
اذا حسنت النية ، وخفى وجه الصواب .
لكن العمل الضار شر مطلقا عند الغزالي ، لان القاعدة عنده
ان العمل ليس شرا الا لانه ضار ، وليس خيرا الا لانه نافع يعرف
هذا من قوله في ص ١٣٩ ج ٣ احياء : (ان الكذب ليس حراما
لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب او على غيره) ويعرفه
كذلك من تقسيمه الحرام الى ما حرم لصفة في عنه ، وما حرم لخلل
في اثبات اليد عليه : فلا يحرم من المعادن الا ما يضر بالاكل ،
ولا يحرم من النبات الا ما يزيل العقل ، او يضعف الصحة ،
او يزيل الحباه ، ولا يحرم السم اذا خرج عن كونه مضرا : لقلته ،
او لعجزه بغيره . وحرمة المال المقصوب ظاهرة لان الفصب ايداء
للغير ، والايداء ضرر .

وانما كان الضار شرا على كل حال ، لان الحاكم بالخير او الشر
هو الشرع . وعلم الشرع فريضة على كل مسلم ، والجاهل لا عذر
له الا اذا كان حديث عهد بالاسلام ، وهو عذر ضيق محدود ،
لا يوجد الا في بعض الأحوال .

العمل والاعتقاد

ولكن اذا غلب المرء على امره ، فاعتقد ان الشر خير ، ثم عمل
بمفضى اعتقاده ، فماذا عسى ان يكون في رأى الغزالي ؟

يظهر لمن تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير في العمل ، والخير في الاعتقاد ، اذ يراه يقول في ص ٤٧ من الجزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتي بايجاب شيء ، وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه . بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى . فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ، ومن وجد في فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصي بوطئها وان كانت زوجته » .

ويراه يقول في ص ١١ من كتابه « المنقذ من الضلال » :
« والطبيعيون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان فراوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بغاظر حكيم مطلع على غايات الأمور الا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، ولا سيما الانسان . الا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوى الحيوان ، فظنوا ان القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطالان مزاجه ، فتندم . ثم اذا انعدمت فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحذوا الآخرة . وهؤلاء أيضا زنادقة . لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحذوا اليوم الآخر وأن آمنوا بالله وبصفاته » .

وتهافت الغزالي في هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان والانسان ، فهو اذن اقوى ايمانا وارسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح . ولكن الباحث في منافع الأعضاء مضطر الى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يعترى النفس من قوة وضعف ،

وهو بالتالى مضطر الى الايمان بأن النفس تموت . واذن فهو
زنديق فيما يرى الغزالى ! وكيف ذلك والغزالى يرى أن من وجد
على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت
أجنبية ! ؟

لقد صرح الغزالى فى عدة مواطن من كتبه ، بأن من حمل على
شرب الخمر لا يحد ؛ وصرح فى ميزان العمل بأن الامزجة شكل
الأخلاق ؛ فهو يرى الاختيار شرطا للمواخدة ، كما أوضح ذلك
حين تكلم عن حديث النفس فى الجزء الثالث من الأحياء ، فكيف
يحكم بكفر الرجل العالم الذى اقنعه العلم مثلا بأن النفس تموت ؟
أيرى الغزالى أن من المحرم شرعا أن يدرس التشريع ؟ وإذا كانت
الشريعة تدعو الى تحكيم العقل كما نطق بذلك القرآن ، أفليس
معنى ذلك أنه ليس للشريعة أن تضع بنفسها نتيجة ذلك التحكيم ،
والا كان إيمانا بقوة الحديد ؟

الحق أن الغزالى مال كثيرا الى ترضية العامة حين بحث
صحة الايمان ، حتى رأيناه يذكر أن المرء قد يتكلم بما هو كفر
وهو لا يدري !

وما أغرب قوله فى كتابه المنقذ من الضلال : « ثم رد
ارسططاليس على افلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين ،
ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، الا انه استقى أيضا من
وذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها . فوجب تكفيره ، وتكفير
متبعيه ، من المتفلسفة الاسلاميين : كابن سينا والفارابى ،
وأمثالهم » .

والغزالى الذى اسرف هذا الاسراف فى الحكم على الايمان وفق
كل التوفيق حين دعا الى حسن الظن بالناس . وانظر ما قاله فى
تحريم الغيبة بالقلب « ليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا الا اذا
انكتشف لك بعيان لا يعبل التأويل . . حتى أن من اسننكه فوجد

منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تغمض بها ومجها وما شربها ، أو حمل على الشرب قهرا . فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب ، وإساءة الظن بالمسلم بها » .

وعندى أن الرجل لا يكفر إلا إذا عرف الحق وعاند ، فأى فيسلوف رأى رأيا شاذًا عن حسن قصد فهو ناج ولو كان رايه يخالف الدين مخالفة صريحة . فكان من الحق على الفزالي أن يقيم الأدلة على ما عند ابن سينا والفارابي من العناد ، وسنعود الى تفصيل هذا الرأى فى غير هذا الباب .

مقياس الخير والشر

ومع أن الفزالي قرر أن لا دخل للعقل فى حسن العمل وقبحه وأما الأمر فى ذلك للشرع ، فقد رأيناه يقيس العمل بمقياس العقل والشرع معا ، حين يريد أن يحكم : أخير هو أم شر . فالعمل بخير إذا وافق العقل والشرع ، وشر إذا خالف العقل والشرع .

ولم يفرد الفزالي بابا لهذا البحث ، ولكنه نوه بهدولوه فى مواطن كثيرة ، فقد جاء فى ص ٨١ من ميزان العمل فى تعريف السخاء ما نصه : « هو أن يتيسر عليك بدل ما يقتضى الشرع والعقل بدله من طوع ورغبة ويتيسر عليك إمساك ما يقتضى الشرع والعقل إمساكه من طوع ورغبة وجاء فى ص ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه : « وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها فى شيء مما يختص بها إلا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذى يسوغه » وقال فى ص ٥٧ من الجزء الثالث من الأحياء « وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والفضيب تحت إشارة العقل والشرع » وقال فى وصفه العمل الصالح : « وذلك بأن يكون موزونا بميزان العقل والشرع » ص ٢٢ ج ٣ أحياء » .

اغفال الفزالى لهذا المقياس

هكذا يقاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع فيما يرى
الفزالى . ولكن ما هو الشرع ؟ وما هو العقل ؟

ان الفزالى نفسه وضع في الأخلاق احكاما لا نفلنها تستند
على عقل او دين ! ولنضرب مثالا بما وضعه لنظام الطعام . جاء في
الميزان ص ١٨٤ ما نصه : « واما المطعم فهو الاصل العظيم . اذا
المعدة مفتاح الخيرات والشرور - ولهذا أيضا ثلاث مراتب : ادناها
قدر الضرورة وهو ما يسد الرمق ويبقى معه البدن ، وقوة العبادة
وذلك يمكن تفليله بالعادة تارة بتقليل الطعام شيئا فشيئا حتى
يتعود الصبر عنه عشرة ايام وعشرين . وقد انتهى الزهاد في القدر
كل يوم الى حصصة وبعضهم في الوقت الى عشرين يوما وقيل
اربعين . وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها » وقد اطال القول
في فضائل الجوع في الربع الثالث من الاحياء حتى قال : « روى
أن عيسى عليه السلام مكث يتأجى ربه ستين صباحا لم يأكل
فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فاذا رغب موضوع بين
يديه فجلس يبكى على فقد المناجاة ، واذا شيخ قد أظله ، فقال
له عيسى : بارك الله فيك يا ولى الله ، ادع الله تعالى لى ، فانى كنت
في حالة فخطر ببالى الخبز فانقطعت عنى ! فقال الشيخ : اللهم
ان كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفر لى ! بل كان
اذا خطر لى شيء أكلته من غير فكر ولا خاطر ! » .

وقال أيضا « الفائدة السابعة من فوائد الجوع - فمستحب
المواظبة على العبادة . فان الأكل يمنع كثرة العبادات لانه يحتاج
الى زمان يشغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج الى زمان في شراء
الطعام وطبخه ، ثم يحتاج الى غسل البدن والخلال ، ثم يكثر
ترداده الى بيت الماء لكثرة شربه والاقوات المصروفة الى هذا
مصرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثرة ربحه » .

ففى الكلمة الاولى نراه بدعو الى تقليل كمية الطعام حتى
تصل الى حمصه ، وتطويل المدة حتى تصل الى عشرين يوما او
اربعين ، ثم يعد هذه الرياضة رتبة عظيمة . فباليت شعرى ،
ايرضى بذلك العمل ، وهو لا يرضى بأقل من أن يكون المرء حيا ،
فيه فصائل الحساة من قوه ونشاط ؟ ام يرضى بذلك الشرع ،
وهو لا يرضى بأقل من أن يكون الرجل جديا يضرب فى الأرض ،
ويحرس الثعور ، ويرهب القوم الكافرين ؟

وفى الكلمة الثانية ، يصف عيسى بما لا ينبغي أن يوصف به
الانبياء ، والا فكيف ينبغي لنبي أن يناجى ربه ستين صباحا ملا
طعام وهو مسئول عن الدعوة الى دينه ، وقلما ينجح فى الدعوة
ضعيف ؟ هذه جراحة فى وصف الانبياء والمرسلين ، فما احسبهم
الا رجالا أشداء تمت لهم صفات الفتوة والرجولة ، أما هذه
الرهينة التى تصورها الغزالي فلا تنتج غير الضعف والخمول ،
وما كان الانبياء كسالى ولا واهنين .

وفى الكلمة الثالثة ، يستكثر على المريد أن يضيع وقتا فى
فراء الطعام وطلبه ، ثم غسل يده ، وتخليل أسنانه ، وما أدرى
كيف يسير الناس ، اذا قاسوا الخير والشر بهذا المقياس !

الواقع أن الغزالي وضع مؤلفاته فى الاخلاق مشربة بنزعة
صوفية بل صرح بأن مدار أكثر كتابه الميزان على مذهب التصوف .
والتصوف ليس مذهب الاحياء ، ولكنه مذهب الاموات . وما ظنك
بمذهب يجيز للغزالي أن يصور للنظر للمستقبل بهذه الصورة
المذكورة حين يقول « وارفع الدرجات درجة من لا يلتفت الى غده
ويقصر همهته على يومه ويومه على ساعته ، وساعته على نفسه »
وقدر نفسه كل لحظة مرتحلا من الدنيا أو مستعدا للارتحال » .

وما اظن أمة تفهم الاخلاق هذا الفهم ، ثم تقدر على الجلاء فى
عالم الاحياء . ولم يبعد من وصف الاخلاق فى رأى الغزالي بأنها
اخلاق العبيد لا

الفصل الثانى

الارادة

— ١ —

وردت كلمة الارادة فى كتب الفزالى لأغراض متعددة : فتارة يريد بها السلوك فى طريق الله ، ومنها المريد الذى يرد كثيرا فى كلامه ويريد به السالك فى ذاك الطريق ، طريق الصوفية .

وللارادة بهذا المعنى شرط يتقدمها : وهو رفع السد الذى بين المريد وبين الحق ، وهذا السد فيما يرى الفزالى اربعة اشياء : المال ، والجاه ، والمعصية ، والتقليد .

ويرفع حجاب المال بخروج المريد عن ملكه ، حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة . ويرفع حجاب الجاه بالبعد عن مواطنه مع ايثار الخمول . ويرفع حجاب التقليد بترك التعصب للمذاهب . أما المعصية فلا يرفعها الا التوبة ، والندم ، والعزم على عدم العود والخروج من المظالم .

والتجرد من هذه الحجب هو فيما يرى الفزالى كالتطهين للصلاة ولا بد للمصلى من امام . فكذا لا بد للمريد من أستاذ ، وقد وضع عدة آداب للمريد مع أستاذه ، وليس ذلك مما يعنيننا الآن . ويكفى أن يعرف القارئ ما يقصد من كلمة مريد التى يكثر دورانها فى « الميزان » و « المنهاج » و « الاحياء » .

— ٢ —

وتارة يذكر الارادة ويريد بها ما ينبعث عن المعرفة ويستحق القدرة والارادة بهذا المعنى هى المقصودة عند علماء الأخلاق . ولها عند الفزالى أسماء مختلفة : فنراه حيناً يسميها القوة العاملة اذ يقسم قوى النفس الانسانية الى قوة عالمة ، وقوة

عامة ، ويذكر أن الثانية « هي قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الإنسان الى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه القوة العامة النظرية » الميزان ص ٢٦ .

ونراه حيناً آخر يسميها النية . ويعنونها كذلك في الأربعين والاحياء . فلو أنك نظرت في الفهرست لتعرف في أى موضع تكلم عن الإرادة ، ثم نظرت في الفصل الذى شرحها فيه ، لما رأيتها الإرادة التى يتكلم عنها الأخلاقيون ، وإنما رأيتها الإرادة التى عنها الصوفية ، واشتقوا منها كلمة مريد . فأما الإرادة التى هى من موضوعات الأخلاق ، فاسمها عند الغزالي النية ، وله في شرحها كلام طويل .

— ٣ —

يقول الغزالي « أن النية والإرادة والتقصّد ، عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب ، ويكتنفها أمران : علم وعمل . والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط . والعمل يتبع لأنه ثمرة و فرع . وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون اختياري لا يتم الا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة ، ومعنى الإرادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض ، أما في الحال ، وأما في المال » ص ٣٨١ ج ٤ احياء .

ويقول (النية هي الإرادة المباعدة للقدرة ، المنباعدة عن المعرفة . ويبانه أن جميع أعمالك لا تصح الا بقدرة وإرادة وعلم ، والعلم يهيج الإرادة ، والإرادة باعثة للقدرة ، والقدرة خادمة الإرادة) ص ٣٦٢ من الأربعين .

وواضح أن الإرادة كما يراها الغزالي لا تختلف عما نراه الآن فإنك لا تجد فرقاً بين كلامه هذا وبين قول جول سيمون (والواقع

اننا لأجل أن نعمل يجب أن نريد ؛ ولأجل أن نريد يجب أن نعرف
ماذا نريد ، ولماذا نريده (الواجب ص ١٩) .

— ٤ —

وبقرر الغزالي فوق ما تقدم أنه لا يكفي أن يعلم الإنسان صواب
العمل ليريده وينفذه ، بل لا بد من أن بقوى في نفسه كون الشيء
موافقا له ؛ فإذا جرمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد أن يفعل ،
وسلمت عن معارضته باعبر آخر صارف عنه ، أنبعثت الإرادة ،
ونهضت القدرة لتنفيذ المراد .

ويقرر كذلك أن نهوض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ،
وقد يكون بباعثين اجتماعا في فعل واحد . وإذا كان بباعثين فقد
يكون كل واحد من القوة بحيث لو انفرد لكان كافيا لانهاض القدرة ،
وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع ! وقد يكون أحدهما
كافيا لولا الآخر ، ولكن قام الآخر بمعاونته . فالباعث الثاني
أما شريك أو رفيق أو معين . ولهذا التقسيم مزية في تقدير ما في
العمل من خير أو شر بتقدير البواعث ؛ فإن العمل تابع للباعث
عليه ، فيكنسب الحكم منه ، أن خيرا فخير ، وأن شرا فشر .
بل ربما كانت النيات أقوى في التقدير من الأعمال ، ومن هنا كانت
نية المرء خيرا من عمله ، كما جاء في الحديث الشريف ، وكما ذكر
الغزالي من أن أعمال الجوارح ليست مرادة الا لتأثيرها في القلب لا
ليميل الى الخير ، وينفر من الشر (١) .

تربية الإرادة

تربى الإرادة فيما يرى الغزالي بتكرار طاعة الميل المحمود
وتكرار مجاهدة الميل المذموم . وفي ذلك يقول : « وإذا حصل الميل
بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فان

(١) انظر ص ٢٦٢ من الأربعين .

المواظبة على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات فالمائل الى طلب العلم أو طلب الرياسة ، لا يكون ميله في الابتداء الا ضعيفا . فان اتبع مقتضى الميل ، واشتغل بالعلم ، وتربية الرياسة ، والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه النزوع . وان خالف مقتضى ميله ، ضعف ميله ، وانكسر ، وربما زال . بل الذى ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاة فداوم على النظر ، والمجالسة ، والمخالطة ، والمحاوراة ، تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه . ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعا في وجهه حتى يضعف . . . لان بين الجوارح والقلب علاقة ، حتى انه ليتأثر كل واحد منهما بالآخر . الا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكانه الأمير والراعى . والجوارح كالخادم والرعايا والاتباع » .

والغزالي لا يرى للعمل قيمة بغير النية ، وان شئت الإرادة . واذا كانت النية هى التى تقوم بالعمل ، فمن الخير أن تكون قوية ، لأنه كما تكون الرغبة فى عمل طيب ، أو النفرة من عمل خبيث ، يكون جزاء المعامل : فيكثر أجره أن قوى حبه للخير ، وبغضه للشر ، ويقل فيما عدا ذلك . وقد تضمن فى هذه مواطن من كتبه بأن المعول على القلوب ، حتى لنجده يذكر أن الصغيرة تنقلب كبيرة بالإصرار والمواظبة ، أو بالاستهانة بما لها من الخطر . وان الكبيرة اذا وقعت بغتة ، ولم يتفق اليها عود ، واستعظمها المرء ، كانت مرجوة العفو ، وفى ذلك يقول :

« فان اللذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ، لان استعظامه يصدر عن نفور القلب منه ، وكراهيته له ، وذلك النفور يستع من شدة تأثره به . واستصغاره يصدر عن الالف له ، وذلك يوجب شدة الأثر فى

القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده
باليثبات » ص ٢٣ ج ٣ .

أهمية الإرادة

الإرادة شرط للمسئولية ، وشرط للجزاء . فالذى يعمل وهو
ناسر وغافل لا يجازى ولا يؤاخذ . وإنما كان الأمر كذلك فيما يرى
الغزالي : لأن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة ، والقلب عند
الغزالي هو كل شيء . فليست الحسنة حسنة إلا لأنها تصلحه ،
أو تزيد فى صلاحه ، وليست السيئة سيئة إلا لأنها تفسده أو تزيد
فى فساده . والجريمة الهائلة إذا اقترفها المرء وهو مضطرب متردد ،
لا خطر لها عنده ، لأن القلب لا يتأثر بما يفعل المرء وهو كاره ،
والهفوة التافهة عظيمة الخطر إذا أتاها المرء وهو راض مسرور ،
لأنه بقدر ما تحلو السيئة يعظم أثرها فى تسويد القلب وفساده ،
والدنب الواحد يختلف قيمته حين يأتى رجلاً : أحدهما عارف به ،
وثانيهما جاهل له ، فهو بالنسبة للأول كبيرة ، وبالنسبة للثانى
صغيرة ، لأن الإرادة تختلف قوة وضعفا باختلاف درجة العلم ،
إذا كانت ثمرة له .

ويقول الغزالي بعد كلام طويل « فهكذا يجب أن تفهم تأثير
الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب ، وتبديل صفاتها فقط
دون الجوارح ، فلا تظنن فى وضع الجبهة على الأرض غرضاً من
حيث أنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث أنه بحكم العادة
يؤكد صفة التواضع فى القلب . ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم ،
فانه إذا مسح رأسه وقلبه تأكدت الرقة فى قلبه » ص ٢٨٤ ج ٤ »

الجبر والاختيار

وقد اختلف العلماء ، ولا يزالون مختلفين ، فى حرية الإرادة ،

فمنهم من يقول انها مجبورة ، ومنهم من يقول انها مختارة ، ومنهم من يحكم بأنها دائرة بين الجبر والاختيار .

وأنا أرجح الراى الأخير ، لأن الواقع أن هناك مؤثرات تحمل الارادة على الاتجاه الى جهة معينة ، كالوراثة ، والصحة ، والبيئة ، والظروف الخاصة . والارادة فيما عدا ذلك حرة مختارة فالذى ورث عن أبيه أو أمه خلقا من الأخلاق ، يسير مضطرا الى ما يوافق ذلك الخلق . والذى يحمله ضعف صحته على اللد في الخصومة لا يستطيع اجتناب هذه الخصلة . والذى تقضى عليه البيئة التى يعيش فيها باحترام زى خاص ، يشعر بالاضطرار الى التزى بهذا الزى . فأنا أستطيع نزع العمامة لألبس الطربوش ، ولكنى لا أستطيع لبس القبعة ، لأنى مقهور على مساية الوسط الذى اعيش فيه ، وأن زعمت ثم زعمت أننى مختار . والذى يقهره ظرف من الظروف على اتيان جريمة من الجرائم غير مختار . وسيرقى القضاء يوما فيحلل الظروف التى وقعت فيها الجريمة ليتبين صحة المسؤولية ، فكثيرا ما يعاقب المجرم وهو غير مسئول .

فاذا انتفت موانع الاختيار فالارادة حرة في الإقبال على الفعل ، أو الانصراف عنه . وفي هذه الحالة تصبح للخير قيمته ، وللشر قيمته ويصير الخير جديرا بالمثوبة لأنه أحسن وهو مختار ، والشرير خليقا بالعقوبة لأنه أساء وهو مختار . أما المضطر الى فعل الخير أو الشر لسبب من الأسباب فهو فيما ارى غير أهل للثواب والعقاب .

والغزالي لا يقول بحرية الارادة حرة مطلقة ، ولا يعجزها العجز المطلق . ويقول « بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا . وخلق الاختيار والمختار جميعا ، فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب ، وأما الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له ، فانها بخلقت مقدورة بقدرة هى كسب وصفة . وكانت الحركة نسبة الى

صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا . وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك البفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة واعدادها ؟ وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد ، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكْتِسَاب « ص ١٢٠ ج ١ احياء .

والواقع أن رأى الفزالي هذا لا يفصح عن قيمة ما في أعمال المرء من الاختيار ، فهي في رأيه ليست جبرا لأنها تفترق عن الرعدة وهي ليست اختيارا لأن المرء لا يحيط بتفاصيل ما لحركاته من الأجزاء . مع أن الاختيار لا يتوقف البتة على معرفة الأجزاء والاعداد ، لأن العمل الاختياري قد تكون له لجزايم ضرورية ، لا يَنْهِيه لها المرء ، ولا تكون غفلته عنها قاذحة في اختياره .

ويقرر الفزالي مع هذا « أَنَّ فَعَلَ الْعَبْدِ وَإِنْ كَانَ كَسْبًا لَهُ ، لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ مُرَادًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَلَا يَجْرِي فِي الْمَلِكِ وَالْمَلَكُوتِ طَرْفَةٌ عَيْنٌ ، وَلَا لَفْظَةٌ خَاطِرٌ ، وَلَا فِلْتَةٌ نَاطِرٌ ، إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَبَارَادَتِهِ وَمَشِئَتِهِ ، وَمِنْهُ الشَّرُّ وَالْخَيْرُ ، وَالنَّفْعُ وَالضَّرُّ ، وَالْإِسْلَامُ وَالْكَفَرُ ، وَالْعَرَفُ وَالنَّكَرُ ، وَالْفَوْزُ وَالْخُسْرُ ، وَالْفَوَايَةُ وَالرُّشْدُ ، وَالطَّلَاعَةُ ، وَالْعَصِيَانُ ، وَالشَّرْكُ وَالْإِيمَانُ » ص ١٢٠ ج ١ (١) .

وأنا لا أفهم ما هو هذا الكسب الذي يقره أهل السنة ، ويتابعهم الفزالي في إقراره . فهم لا يقولون بأن العبد مضطر ، ولا كانوا جبرية ، والجبرية في رأيهم خاطئون . ولا يقولون بأنه مختار ، ولا كانوا معتزلة ، وهم قد سلقوا المعتزلة بالسنة حداد . فلم يبق إلا أن العبد لا هو حر ولا هو مختار ، وإنما هو مكتسب . وهذا الكسب أيضا مراد لله . إذن فما الذي بقي للعبد المحسكين ؟

(١) ٢٤١ ، ص ١٢٠ ج ١ احياء .

الحق ان هذه وسوسة أوقعهم فيها الخلف !

واساس هذه الوسوسة انهم يحسبون حرية الارادة خروجاً على الله في ملكوته ، والغزالي يضرب المثل بزعيم الضيعة يستنكف ان يكون لأحد العمال رأى معه ، وما كان أغناه عن ضرب هذه الأمثال !

ان حرية الارادة الانسانية لا تضر الله شيئاً ، فما بال أهل السنة يابون الا ان تكون طرفة العين ، وهى حركة طبيعية ، اثرها لارادة الله ؟

ولا قيمة لما يجيب به المتعسفون من أن اختراع الله للقدرة كاف في اقرار الكسب للمرء ، فانه لا خلاف في أن الله واهب القدرة ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسيرها أنى شاء ، ومتى شاء ، والا كان التكليف ضرباً من العبث ، ولو كره المتكلفون . فلم يبق الا أن الارادة حرة ، وذلك هو ما وضع الله من قانون ، فلا يبتئسوا بما نقول !

على أن العهد قريب بما قال الغزالي في تربية الارادة ، فاذا كان ما أريده هو ما يريد الله ، فأى الارادتين تربي ؟ ان هذا الاتناقض »

ونعود فنكرر انه قرر في مكان آخر من الاحياء « ان النية غير داخله تحت الاختيار ، » وقد عرفت أنه يريد بالنية الارادة ، وان وابه وسط بين الجبر والاختيار ، أفلا يكون متناقضاً في حكمه : تارة بأن النية حرة ، وتارة بأنها مجبورة ؟

الحقيقة ان الارادة التى يقرر الغزالي انها غير مختارة ليست هى الارادة بمعنى القصد ، وانما ذلك ما يسمى ارادة صادقة ، وهى التى يعقبها التنفيذ . فمن الجائز أن أقصد الى أى عمل في أى وقت ، ولكن ليس في مقدورى أن أرغب رغبة صادقة في كل ما يعين لى من الأعمال ، في جميع الأحيان . وفى ذلك يقول الغزالي « فقد تنيسر في بعض الأوقات ، وقد تتمرد في بعضها . نعم من كان الغالب على

قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال احضار النية للخيرات ،
فان قلبه مائل بالجملة الى اصل الخير فينبعث الى التفاصيل
قالبا ، ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك ،
بل لا يتيسر له في الفرائض الا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر عذاب
النار أو نعيم الجنة ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه
يقدر رغبته ونيته » .

وخلاصة رأى الغزالي أن المرء حر في الإقبال على ما شاء من
الأعمال ، وإن كان في إقباله إنما ينفذ إرادة الله ، ولكنه ليس صادق
النية في كل حين ، وإنما تصدق النية بالترغيب في الجنة والتخويف
من النار .

ولا يفوتنا أن تنبه على ما دعا اليه في تربية الخلق من مخالطة
الاخيار ، فان في ذلك اعترافا ضمنيا بتأثير الوسط في الإرادة
الإنسانية ، ونقله إياها من حال الى حال . وهذا نوع من الجبر ،
ولكنه جبر معقول .

الفصل الثالث

الضمير

هو صوت ينبعث من أعماق الصدور ، أمرا بالخير ، أو ناهيا
عن الشر ، وإن لم ترج مشوبة ، أو تخش عقوبة .

والغزالي كما رأيت لا يرى شيئا حسنا لذاته ، أو قبيحا لذاته ،
فالشرع هو المكيف للأعمال حسنا وقبيحا ، فلا مجال بالطبع لأن
يفرد بابا للضمير ، إذ كان التكليف إنما ينزل من السماء . والضمائر
التي ترد في كلامه إنما يريد بها مكونات الصدور ، وهي السرائر
من باب واحد . والإنسان فيما يرى ليس مسئولا عن مراقبة
ضميره ، إذ هو لا يعرف الضمير . وإنما يسأل عن مراقبة ربه ،

وخشيته ، في السر والعلانية فليس هناك جراحة باطنية تدرك الخير والشر ، وان لم تتعرض لهما الشرائع ، وانما هناك رب يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، والمرء عن خشيته مسئول .

غير انه لا يصح لنا ان ننسى ان هناك اسبابا لشوء الضمير ، فالفلسفة توجد لدارسها نوعا من الشعور بالمسؤولية ازاء بعض الجوانب ، والأخلاق توجد للباحث فيها نوعا من ادراك الواجب ، والشرعة كذلك تورث المتدين بها نوعا من الوجدان .

ولا نبعد عن الصواب اذا قررنا ان الغزالي يؤمن بالنوع الأخير من الضمير ، وان لم ينوه به ، ولم يختصه بالبيان . واليك قوله في ص ٨٥ ج ١ من الاحياء « ومنها ان يكون اعتماده في علومه على بصيرته ، وادراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره » وقد ردد في كتبه هذا الحديث « الائم ما حاك في صدرك ، وان أفتوك وأفتوك » وليس ذلك الا اشادة بهذه الحاسة الباطنية التي يفزع المرء اليها عند ما يلتبس عليه وجه الصواب . الا انه يجب ان نعرف ان نص الشريعة من كتاب أو سنة هو عنده فوق الفتوى وفوق الضمير .

والحق ان الضمير لا وجود له في ذاته ، حتى تؤاخذ الغزالي باغفاله ، وانما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسمائية . حتى انك لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات ، حسبما توحى التقاليد . فمثلا جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من تنقصه فيها المهارة عرضة لاحتقار الرأي العام ، وللع ضمير !! ونهب مال الغريب لا حرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ، فمن الواضح انهم لا يقاسون عند نهبه تائب الضمير . بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنه ، فيكون ضميره في سن العشرين ، اضعف او أقوى منه في سن الثلاثين ، حسبما توجب الظروف . ومن هنا صح لساعر أن يقول :

يقولون مل بعد الثلاثين ملعب
فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب ؟
كما صح غيره أن يقول :
صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه
فلما علاه قال للماطل أعود

وعندى أن فكرة الضمير اذا صح أن تكون عامه ، فحجب أن
نقصر على المافع البشريه . على معنى أن الضمير هو الحاسة التى
تتألم لما يوجع له الانسان من حيث هو انسان ، بغض النظر عن
دينه ، ووطنه ، وملهه . فان للانسانيه وشائج لا ينال منها اختلاف
المذهب . ولا بباين اللغات ، ولا تباعد الأقطار .

الفصل الرابع

الأغراض والنتائج

هل يكون العمل خيرا باعتبار نتيجته ، او باعتبار المقصود منه ؟
وبعبارة أوضح : هل يكون خيرا لأنى أردت به الخير ، أو لأنه أنتج
الخير ، وإن لم أرد ذلك ؟

ويظهر أنه لاستخلاص رأى الغزالي فى الجواب على هذا
السؤال ، ينبغي أن نسايره فى الأعمال المختلفة ، لنعرف رايه فى كل
نوع منها على أفراد .

وقد رأيناه يقسم أعمال الانسان الى طاعات ومعاص ومباحات .
أما الطاعات فلا تكون خيرا الا بالنية ، وهى الغرض فى التعبير
الحديث . ويقول فى ذلك (ان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب
الحكم منه . ولذلك قيل : « انما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة

لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع) وهو يستتج بناء على هذا الأساس أنه لا قيمة للصوم إذا أراد الصائم الانتفاع بالحمية ، ولا للعتق إذا أراد السيد أن يتخلص من مثونة عبده ، ولا للزواج إذا أراد المرء أن يصح مزاجه بالحركة والانتقال ، ولا للزواج إذا أحب الشخص أن يتعلم أسباب الحروب : لأن النية لا تصح عند الغزالي إلا إذا خلصت من الشوائب ، وتقرب العبد بها إلى الله . ولا مانع عنده من وجود باعث آخر ، ويسميه الباعث النفسى ، على شرط أن يكون أضعف من الباعث الاصلى . فان كان مساويا له ، صار العمل لا له ولا عليه كما يقول . وان كان أقوى منه فهو مضر ومفرض للعقاب .

والغزالي ينصح بالتدبر قبل الشروع في الطاعة ليعرف المرء أى الباعثين أقوى : باعث النفس أو باعث القرية ، وإى النصيبين أدنى : نصيب الله أم نصيب الشيطان . ولكنه يقول : « ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا » .

ويلاحظ أن في هذا تناقضا مع حكمه على العمل الذى غلب فيه الباعث النفسى بأنه مضر ومفرض للعقاب ، والعمل الذى يضر ويفضى للعقاب ، لا يكون تركه منتهى بغية الشيطان ، فكان على الغزالي أن يفرق بين العمل في ذاته وبين غرض العامل منه ، لأن العمل الغليب غير ضار في ذاته ، وان ساء الغرض منه . والمفروض أننا نتكلم عن أعمال هي في نظر الشرع طاعات ، وهي في ذاتها خيرا ونافعة ، فكيف تتقلب بسبب النية ضارة ؟

ولم يفرق الغزالي بين الأعمال الاجتماعية والأعمال الفردية فمن الواضح أن بعض الأعمال يرجع إلى فائدة المرء وحده كالعبادات وبعضها يرجع نفعه إلى جمهور الناس . وما أحسب الغزالي ينهى

عن الأعمال الاجتماعية ، مهما ساء القصد ، اذ لا اقل من أن تكون تمرينا للنفس على عمل الخير . وقد صرح في غير موطن بان التخلف مفض الى الخلق ومتى كان العمل نافعا للناس ، فالدعوة اليه واجبة ؛ والعامل حر في الاستفادة من حسن نيته ان شاء .

واما المعاصي فهي شر على كل حال . والغزالي هنا يقدر النتائج ، فمن عمل شرا عن جهل فهو آثم ، ولا عذر له من جهله لأن الجاهل غير معذور الا اذا كان قريب عهد بالاسلام ، وهذا عذر محدود . وقد علمت أنه يرى ان المعصية شر لأنها ضارة ورأيت كذلك ان فاعل المعصية آثم وان لم يعلم وجه اثمه ، فتحتم أن تكون العبرة هنا بالنتائج لا الأغراض بخلاف الطاعات فقد تنقلب معاصي صرفه اذا خبيث النية ، كمن يتعلم العلم ليستميل الناس .

الفصل الخامس

الوسائل والغايات

اذا كانت الغاية شريفة ، فلا يجب فيما يرى الغزالي أن تكون الوسيلة دائما شريفة ، فالغاية عنده قد تبرر الوسيلة . وقد أوضح هذا حين تكلم عن المواطن التي يجوز فيها الكذب فقال : « الكلام وسيلة الى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام ان أمكن التوصل اليه بالصدق وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا . » وكما ان عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، او صلاح ذات البين .

او استمالة قلب المجنى عليه ، الا بكذب فالكذب مباح (١) . وبعد
ان بين الحالات الثلاث التى يجوز فيها الكذب كما نص الحديث ،
وهى الصلح والحرب ومحادثة المرأة ، قال : « فهذه الثلاث ورد
فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها اذا ارتبط به غرض
مقصود صحيح له أو لغيره (٢) » ثم ضرب لذلك الامثال الآتية :
١ - أن يأخذه ظالم ويسأله من ماله . فله أن ينكره .

٢ - أن يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله ،
فله أن ينكر ذلك ، اذ للرجل أن يحفظ دمه ، وماله ومرضه ،
بلسانه ، وان كان كاذبا .

٣ - أن يسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره .

٤ - أن يصلح بين الضرائر من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة انها
أحب اليه .

وقد تنبه الغزالي الى خطر هذا الباب ، فبين ان الكذب
لا ينبغي أن يقترب كلما كانت له فائدة ، بل يجب أن تكون فائدته
اقوى وأظهر من فائدة الصدق ، والا وجب أن يكون الرجل من
الصادقين . وانظر قوله « ولكن الحد فيه أن الكذب محظور ، ولو
صدق فى هذه المواضع تولد منه محظور ، فينبغى أن يقابل أحدهما
بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحظور الذى يحصل
بالصدق أشد وقفا فى الشرع من الكذب . فله الكذب . وان كان
ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع ، فيجب الصدق . وقلا
يتقابل الامران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل الى الصدق
أولى . لأن الكذب يباح لضرورة ، ولحاجة مهمة . فان شك فى كون
الحاجة مهمة ، فالأصل التحريم » ص ١٤١ ج ٣ .

(١) من ١٢٩ ج ٢ احياء .

(٢) ١٤١ ج ٣ .

غير أن هذه الحيلة لا تلزم الرجل فيما يرى الغزالي إلا إذا كان يترك الكذب لغرض من أغراضه . أما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير ، والاضرار به . وهذا من الغزالي نظر بعيد .

وقد استثنى من الكذب للمصلحة ، الكذب على رسول الله بوضع الأحاديث في فضائل الأعمال ، وفي التشديد في المعاصي ، فليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ، فإن الكذب عليه من الكبائر التي لا يقاومها شيء .

وضع القصص

وبهذه المناسبة ، نذكر أن الغزالي صرح في الجزء الأول من الأحياء ص ٣٧ « من الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق الى الحق » وهذا يرى أن « هذه من نزعات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب » وهذا منه اسراف . بل هو نفسه أول من يؤاخذ على وضع القصص أن كان في وضعها مؤاخذة . ويكفى أن نعرف أنه يذكر في كتبه من قصص الأنبياء والصالحين ، ما لم يقم على صحته أى دليل . والرواية الكاذبة ليست أقل خطرا من التأليف !

وكما جاز الكذب في سبيل الفسادة ، كذلك تجوز في سبيلها الغيبة . وقد صرح الغزالي بجواز الغيبة في المواطن الآتية :

١ - التظلم . فإن من ذكر قاضيا بالظلم ، والخيانة ، واختلاف الرشوة ، كان مفتابا عاصيا . أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم ، اذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . ولا أدري لم لا تستباح أعراض الظالمين ؟

٢ - الاستمانة على تغيير المكروه ، ورد المعاصي الى منهج الطاعة .

٣ - الاستفتاء . كما يقول للمفتي : ظلمنى أبى أو زوجى
أو أختى ، وكف طريقى الى الخلاص . والأسلم التعريض ،
ولكن التعيين مباح بهذا العذر .

٤ - تحذير المسلم من الشر . فإذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع
أو فاسق ، وخفت أن نعدى اليه بدعته وفسقه . فلك أن
تكنف له بدعته وفسقه . مى كان الباعث لك الخوف عليه
من سرابة البدعة لا غير . واحذر أن يكون الحسد هو
الباعث !

٥ - أن يكون الغتاب مجاهرا بالفسق ، بحيث لا يستنكف من أن
يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به .

وهنا يحاط الغزالي : فيبين أنه ليس لك أن تفتاب المجاهر
بقسقه إلا بما يتجاهر به . فمن كان يشرب الخمر فليس لك أن
تذكر زناه ، إذا كان يستره ، وهذا منه نظر دقيق .

والغاية الشريفة ، تبيح النسيمة ، كما أباحت الكذب والغيبة .
فلأنسان أن ينم ، إذا كان فى النسيمة فائدة لمسلم ، أو دفع
لمعصية . كما إذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ،
دفعاً للجاني عن المعصية ، ورداً لحق المأخوذ ماله . والنسيمة فى
هذا المثال إذا كانت ضراً فى جانب الظالم ، فهي نفع فى جانب
المظلوم ، وهو أولى بالأسعاف . بل دفع الظالم عن الظلم خير له فى
حاضره ، وإبعاد له عن الضرر فى مستقبله ، إذا كان مستعداً للاقلاع
عن الفساد .

باب السادس
في الأخلاق

تمهيد

كلمة اخلاق وجدت قبل الفزالي ، ففي الحديث « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » وقد عرف العرب فيما عرفوا عن اليونان كتابا لارسطو في الاخلاق ، ووضع ابن مسكويه كتابا في صناعة تهذيب الاخلاق ، ويوشك كتابه ذاك أن يكون كتابا في علم الاخلاق ، على نحو ما كان يفهم اليونان ، ومن اقتفى اثرهم من فلاسفة المسلمين .

والذي يعنيني الآن هو علم الاخلاق كما فهمه الفزالي . واقرن الى بعد مراجعة كتبه لم أجده يساير من تقدمه من مجددي الفلسفة اليونانية ، وانما يفهم من علم الاخلاق شرح طرائق السلوك ، وفقا لما سنته الشريعة السمحة ، ورسمه الصوفية ، ومن هنا نحوهم من الفقهاء . ولعلم الاخلاق فيما يريد أسماء متعددة : فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة ، وأخرى يسميه علم صفات القلب ، وحينما يسميه أسرار معاملات الدين ، وربما سماه اخلاق الأبرار ، وهو اسم لبعض مؤلفاته . وأهم كتبه في الاخلاق ليجده سماه احياء علوم الدين . فعلم الاخلاق عنده هو تكييف النفس وردّها الى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الاسلام ، ومن سبقهم من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء .

واذا كنّا نجد ابن مسكويه مثلاً يستشهد كثيرا بكلام ارسططاليس وجالينوس ، ويتحدث عن الرواقين ، ومن اليهم من الحكماء ، فانا نجد الفزالي يؤيد أبحاثه بكلام ابن أدهم والتستري ،

والمحاسبي ، ومن اليهم من الصوفية ، وربما نقل ما روى عن عيسى وموسى ، وداود ، ومن اليهم من الأنبياء .

تعريف الخلق

نرى الغزالي في ص ٥٦ من « الميزان » يعرف الخلق الحسن بأنه اصلاح القوى الثلاث : قوة التفكير ، وقوه الشهوة ، وقوة الغضب ، ونراه في ص ٦٤ منه يعرف الخلق الحسن بفعل ما يكره المرء . ويستشهد بالحديث : (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالتهوان) وبالأية (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) ونراه يقول في ص ٤٧ « وأما حسن الخلق فبان يزيل جميع العادات السيئة التى عرف الشر تفاصيلها ويجعلها بحيث يفضها فيتجنبها كما يتجنب المستقلرات ، وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها » .
وانما ذكرنا هذه التعاريف المبهمة ، التى لا تغنى شيئا^١ في التحديد ، لندل على ميل الغزالي الى الخطاييات ، فقد لا تخلو منها صفحة من كتبه في الأخلاق .

ولكنه في ص ٥٦ ج ٣ احياء عرف الخلق تعريفا دقيقا فقال : « الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هي المصدر خلقا سيئا » ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ، ولا القدرة على الجميل أو القبيح ، ولا التمييز بين الجميل والقبيح . وانما هو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الامساك والبدل . ثم قال : فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

الفصل الاول

تربية الخلق

ليس للغزالي رأى محدود في الفطرة البشرية : فهو تارة يراها خالصة تصلح لكل شيء ، وتقبل كل صورة ، وتارة يراها اميل الى الخير منها الى الشر . يدل على ذلك قوله « واذا كانت النفس بالعبادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح ، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت اليه ، والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس الى هذه الامور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهي الميل الى اكل الطين ، فقد يقلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فاما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالبلبل الى الطعام والشراب : فانه مقتضى طبع القلب ، لانه امر رباني ، وميله الى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض على طبعه » ص ٦٣ ج ٣ .

وما نريد ان نناقش هذا الراى باكثر من ان نلفت النظر الى ان الميل الى مقتضيات الشهوة لا يبعد كثيرا عن الميل الى الطعام والشراب ، فهو جزء من الفطرة البشرية ، كما ان الميل الى الخير جزء من الفطرة البشرية ، وانما توجه النفس بمقتضى الظروف . فكما ان المرء لا يشتهي في كل لحظة ان ياكل او يشرب ، فهو كذلك لا يشتهي في كل لحظة ان يكون خيرا او شريرا ، وانما يظهر ميله الى الخير حين يوجد موجب الخير ، ويظهر ميله الى الشر حين يوجد موجب الشر . بل قد تقوى الموجبات حتى ترد الرشيد غوية او ترد القوى رشيدا . ولولا صلاح الفطرة للخير والشر لما احتجنا الى تربية الاخلاق .

كيف يربى الخلق

يرى الغزالي ان من الناس من ولد حسي الخلق بفطرته ، بحيث لا يحتاج الى تعليم ، ولا الى تأديب كعيسى بن مريم ، ويحيى

ابن زكريا ، عليهما السلام ، وكذا سائر الانبياء . ولا يبعد فيما يرى
أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكْتِسَاب ، فرب صبي خلق
صادق اللهجة سخيا جريئا .

وما أريد أن أناقش الغزالي في حكمه بأن الانبياء لا يحتاجون
الى التعليم والتأديب ، ويكفى أن أذكر أن عصمة الانبياء - في غير
تبليغ الرسالة - كانت مما اختلف فيه العلماء ، وأن في القرآن
شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وما تأخر للنبي صلى الله عليه
وسلم من الذنوب .

والطريق الى تربية الخلق فيما يرى الغزالي هو التخلق : أى
حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد
مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فعليه أن يتكلف فعل الجود :
وهو بذل المال ، حتى يصير ذلك طبعاً له .

والغزالي يهتم كثيرا بريضة النفس على ما يرهب المرء فيه من
مكارم الاخلاق ، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب
العلاقة بين القلب والجوارح ، ويقول فى ذلك :

« كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى
لا تتحرك الا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجرى على الجوارح
فانه قد يرتفع منه اثر الى القلب . ويعرف ذلك بمثال : وهو أن
من أراد أن يصير الخلق فى الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتباً
بالطبع ، فلا طريق له الا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب
الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكي الخط الحسن ، فيتشبهه
بالكاتب تكلفاً . ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة فى
نفسه ، فيصدر منه فى الآخر الخط الحسن طبعاً ، كما كان يصدر
منه فى الابتداء تكلفاً . فكان الخط الحسن هو الذى جعل خطه
حسناً . ولكن الاول بتكلف ، الا انه ارتفع منه اثر الى القلب . ثم
انخفض من القلب الى الجارحة ، فصار يكتب الخط الحسن

بالطبع . وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس ، فلا طريقاً له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقهاء . حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس .

ومن هنا كان الغزالي يرى أن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ، لأنها بدون التكرار لا تصبح صفة للنفس . ولا معنى للشقاء المؤبد إلا أن تصير إحدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس .

الفصل الثاني

امكان تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذي قبله ، فان تربية الخلق معلقة على ازالة الخلق السبىء . ويرى الغزالي أن تغيير الخلق ممكن ويقول في ذلك تعليقا على قوله عليه السلام : « حسنوا أخلاقكم » لو لم يكن ممكنا لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، فان الأفعال نتائج الأخلاق ، كما أن الهوى الى أسفل نتيجة الثقل الطبيعي ، بل كيف ينكر تهذيب الإنسان مع استيلاء عقله ، وتغيير خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من التوحش الى التأنس ، والغرس من الجماح الى السلاسة .

ويظهر أن الغزالي شهد من يرى أن الخلق كالخلق لا يمكن تغييره ، والا كان طمعا في تغيير خلق الله . وقد ذكر في ذلك أن إخلق الله قسمان : قسم لا فعل لنا فيه ، كالسما والكوكب ، وقسم فيه قوة لقبول كمال بعده ، إذ وجد شرط التربية . وتربيته قد تتعلق بالاختيار ، فان النواة ليست بثفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية ، وغير قابلة لأن تصير ثفاحا ، وإنما تصير نخلا إذا تعلق بها اختيار آدمي في تربيتها ويقول : « فلذلك لم أردنا أن نخلق بالكلمة الغضيب والشهوة من

انفسنا ونحن في هذا العالم عجزنا عنه ، ولكن لو أردنا قهرهما
واسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه » .

اقسام الطبائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبلات الى سريعة القبول ، وبطيئة
القبول ، باعتبار التقدم في الوجود ؛ ويقسم الناس في تعيير الخلق
الى اربع مراتب - الاولى : الانسان القفل الذي لا يعرف الحق من
الباطل والجميل من القبيح . وهو اقل الاقسام للعلاج : فلا يحتاج
الا الى مرشد والى باعث يحمله على الاباع - الثانية : أن يكون قد
عرف القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح . بل زين له سوء
عمله ، يتعاطاه انقيادا لشهوته ، واعراضا عن صواب رأيه ، فأمره
صعب من الاول ، اذ تضاعفت علته . فيلزم (١) فلح ما رسخ فيه
من تعود الفساد (ب) وصرف النفس الى ضده - الثالثة : أن
يعتقد أن القبيح حق وجميل . ويرى الغزالي أن هذا لا يرجى
صلاحه الا على الندرة ، اذ تضاعفت عليه اسباب الضلال -
الرابعة : أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد ، وتربيته
على العمل به ، يرى فضله في كثرة الشر ، واستهلاك النفوس ،
ويتباهى بفساده ، ويراه مما يرفع قدره . قال الغزالي : وهذا
أصعب المراتب وفي مثله قيل : من التعذيب تهذيب اللئيم لئلا يدب
وغسل الأسود ليبيض . ثم قال . فالأول : من هؤلاء يقال له
جاهل ، والثاني : جاهل وضال ، والثالث : جاهل وضال وفاسق ،
والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير .

ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالي لا يريد من تغيير الخلق الا قهره
واسلاسه ، وقد صرح بذلك في قوله :

« وظننت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات
بالكسبة ومحوها ، وهيهات ! فان الشهوة خلقت لغائدة . وهي
ضرورية في الجبلية ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو

انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه . ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال . وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذي هو وسط بين الافراط والتفريط . »

كيف يعرف المرء عيوب نفسه

يرى الغزالي أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج .

واذا كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم ، حتى أن أحدهم ليرى القذى في عين أخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه ، فقد وضع الغزالي أربعة طرق لمعرفة عيوب النفس .

الاول - أن يجلس المرء بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الأفات ، ويحكمه في نفسه ، ويتبع أشارته في مجاهدته .

الثاني - أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقبيا على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه ، وأفعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، نبهه اليه .

الثالث - أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه ، إقارن عين السخط تبسدي المساوي . ولعل انتفاع الانسان بعبدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مDAHن يخفى عنه عيوبه .

الرابع - أن يخاطب الناس ، فكل ما رآه مذموما عند الخلق اتهم نفسه به . فإن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، وما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شيء منه . فليتنفقد نفسه ويظهرها عن كل ما يذمه من غيره .

علامات حسن الخلق

يتحاكم الغرالى فى هذا الباب الى القرآن ، اذ ان الله تعالى ذكر فى كتابه صفات المؤمنين والمنافقين ، وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق ، وسوء الخلق . وبعد ان سرد جملة من الآيات قال : « فمن اشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض ، يدل على البعض دون البعض . فليستعمل بتحصيل ما فقد ، وحفظ ما وجد » ص ٧٤ ج ٣ .

والظاهر انه لا يكفى دائما أن يتحاكم المرء الى القرآن ، فقد تكون هناك خلّة واحدة يحتاج الى تحرير ، اذ لا يدرى المرء أهو مخطئ فى النخلق بها أم مصيب . وقد ننبه الغرالى الى هذه النقطة فى غير هذا الباب ، وهو يرى أن المطلوب فى علاج البخل مثلا هو « الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفى غاية البعد عن الطرفين » ويقول « فان أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذى يوجب الخلق المحذور ، فان كان أسهل عليك وألد من الذى يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون امساك المال وجمعه ألد عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد فى المواظبة على البذل . فان صار البذل على غير مستحق ألد عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواظبة على الامساك . فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتيسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك من الالتفاف الى المال ، فلا تميل الى بذله ولا الى امساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه الا امساكه لحاجة محتاج ، أو بذله لحاجة محتاج . ولا يترجى عندك البذل على الامساك (١) . »

وفي هذا مغالبة للطبيعة البشرية ، وما أحسب خلق الكرم يتطلب أن يتساوى البذل والامسالك ، وانما يحاول الغزالي أن يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس ، وهو أمل بعيد .

الفصل الثالث

الطريق الى تهذيب الأخلاق

يتخذ الغزالي البدن مثالا للنفس : فكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون لحفظ الصحة ، وان كان مريضا فشأنه جلب الصحة اليه ، فكذلك النفس : ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها . واكتساب زيادة صفاتها ، وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك اليها . وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن ، الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها : فان كانت من حرارة فبالبرودة ، وان كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب ، علاجها بضدها : فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتى تكلفا . وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتيات للعلاج الإبدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، لأن مرض البدن يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فإنه يدوم بعد الموت أبدا لا يباد (١) وكما أن كل مبرد لا يصلح لعله سببها الحرارة إلا اذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة وبالقلة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه ان لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك التناقض التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرفه ان المسئلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرفه

درجتها ، أهى ضعيفة أم قوية ، فإذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصناعة المريض ، وسنه ، وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذى يطب نفوس المريدين ينبغى أن لا يهجم عليه بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص ، وطريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم . بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد ، وفى حاله ، وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته .

وهذه الطريقة تدل على بصر الفزالى بعلاج الأخلاق ، وتدل من جانب آخر على تقدم الطب فى ذاك الزمان (١) .

وقد فصل طرائق التهذيب باختلاف الطبائع ، ووضع بجانب كل رذيلة علاجها الخاص . وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون الكبر اذ ذاك بالسؤال . وهذا فيما أرى استشفاء من ذاء بداء ، فقد بولد السؤال أمراضا فى النفس تحتاج فى اقتلاعها الى مجاهدة وعناء ، ولكن الصوفية يبيحون ما لا يباح !!

الفصل الرابع

غاية الأخلاق

الخير هو ما تعتقد أنه خير ، والشر هو ما تعتقد أنه شر .
والسبيل الى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع .
ولكن ما هى الغاية من عمل الخير ؟ وما هو الغرض من تجنب الشر ؟

(١) انظر من ٣٤ ، ٦٥ ج ٢ احكام ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من الميزان .

غاية الأخلاق - فيما يرى الفزالي - هي السعادة الأخروية وقد فصل هذا في الفصل الأول من « الميزان » ويقول في ص ١١٧ من هذا الكتاب . « ان السعادة الحقيقية هي الأخروية ، وما عداها سميت سعادة ، أما مجازا وأما غلطا ، كالسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة . وأما صدقا ، ولكن الاسم على الأخروية اصدق ، وذلك كل ما يوصل الى السعادة الأخروية ويعين عليها . فان الموصول الى الخير والسعادة ، قد يسمى خيرا وسعادة (١) .

وهذا يدل على أن الفزالي ليست له غاية اجتماعية . فالذي يسعف مريضا ، أو يفيث ملهوفاً ، أو يأسو جريحا ، أو يواسي فقيرا ، لا يهتم شفاء المريض . ولا إغاثة الملهوف ، ولا براء الجريح . ولا سد حاجة الفقير ، ما دامت نيته قد خلصت في عمله ، ووثق بجزاء الآخرة ! وكل سعادة ينتجها العمل الطيب في هذه الدنيا إنما هي سعادة مجازية ، وواجب المرء أن يفهمها كذلك . وله أن يعدها سعادة نسبية ، على معنى أن ما يوصل الى السعادة الأخروية قد يسمى خيرا وسعادة !! وقد نص . في ص ١٣٦ من الميزان على أن من يتجنب الفحشاء يحافظه على كرامته لا يسمى عفيفا ، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله ، فكل عمله تجارة ، وترك حظ لحظ يماثله !!

ونسأل الفزالي سؤالين اثنين :

أولا - إذا أسعفت مريضا وكان لا يهتمك برؤه ، لأن سعادتك ليست نتيجة لمسماك في هذه الدنيا . وإنما يهتمك أن تصح بيتك فتشأب في أخراك ، ألا تكون تاجرا في غاية كالأخلاقه ؟

ثانيا - إذا تركت الزنا بوفيرا لكرامتك أو لصحتك ، كيف لا تكون عفيفا ، ولماذا طلبت العفصه ، ودعا إليها الشرع ؟ اليس ذلك لأن فيها حفظا للصحة ، وتوفيرا للكرامة ؟ وإذا كنت تحسد العفل معيسا للخير والشر ، فخيرى ايجاد العقل ما يحكم

به على ضرر الزنا وأنه شر أكثر من أنه مود بالصحة ، ذاهب بالكرامة ؟

ونعود فنذكر أن الفزالي سخر ممن يرون السعادة الآخروية في نعيم الجنة ، وما فيها من الحور والولدان ، وإن نطق بذلك الكتاب ، ورأى أن سعادة الآخرة هي رضاء الله . أفلا يصح لنا قياسا على هذا أن نعد الطمع في السعادة الآخروية عند اغاثة الملهوف ، واسعاف الجريح ، يناق ما تسمو اليه الأخلاق ، وإن واجب الرجل الخير أن يرى سعادته في سعادة من اغاثه وواساه ، لا أن يلقى جزاءه على ذلك في الآخرة ، وإن لم تثمر أعماله في الأولى ؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الفزالي للفاية الأخلاقية على هذا النحو جعله يخطئ في فهم كثير من أسرار الشريعة ، ففريضة الحج مثلا يحسبها الفزالي نوعا من الرياضة الروحية ، فتراه يملأ باب الحج من كتاب الاحياء بالأدعية والأوراد ، حتى لتجد لكل خطوة يخطوها الحاج دعاء خاصا بها ، وحتى لتحسبه غفل عن قوله تعالى : (ليشهدوا منافع لهم) إذ تراه يستكثر أن يحج المرء لينتفع بموسم التجارة !

ونظرة صغيرة الى حرص الشريعة على وحدة المسلمين ، ترىنا السر في فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ؛ فالتجارة التي تنبه اليها الفزالي ثم استنكرها ، ليست شيئا بجانب ما يستفيده المسلمون حين يتلاقى حجاجهم ، وينفض كل منهم اخبار قومه ليعرفوا ما يحيط بهم من المشاكل الدولية ، وليستعدوا لدور ما قد يحيط ببعض ثغورهم من خطر . ولكن الفزالي يرى العمل كله في العبادة المجردة ، ويرى الجزاء أيضا عبادة مجردة ، وكثيرا ما نص الصوفية على أن لذائد الجنة ليست مادية ، ولكنها تسبيح وتقديس وتهليل !

الفصل الخامس

هل تورث الاخلاق

قرر الفزالي حين تكلم في التربية ان قلب الطفل « جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، ومائل الى كل ما يمال به اليه . فان عود الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد في الدنيا والآخرة . وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك » ص ٧٧ ج ٣ .

وهذا يدل على أن الفزالي يرى أن الفطرة الانسانية قابلة لكل شيء ، وأنه ليس لها قبل التربية أي لون . فالخير اذن يكتسب بالتربية . والشر يكتسب بالتربية . وليس للانسان بفطرته ميل خاص : لا الى الشر ، ولا الى الخير ، وإنما يسعد أو يشقى بما يقدم اليه أبواه ومعلموه .

ويؤيد هذا قوله في تهذيب الأخلاق « وكما أن الغالب على اصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعثرى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معسلاً صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي بالاعتقاد والتعليم تكنسب الرذائل . وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال . وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتفذية بالعلم » ص ٦٤ ج ٣ .

ولكننا نجد الفزالي يقرر في ص ١٢٧ من « الميزان » أن النسب الديني امانة الديانة وحسن الخلق ، لأن العرق نزاع . ونجده كذلك يحض في تربية الطفل على أن تكون الموضع امرأة صالحة

متدينة تأكل الحلال » فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ،
فاذا وقع عليه نشوء الصبي انعجت طينته من الخبث ، ويميل
طبعه الى ما يناسب الخبائث » ص ٧٧ ج ٣ .
وهذا صريح في الحكم بوراثه الاخلاق ، اذ لا يمكن ان تعتبر
الرضاعة نوعا من الأدب والتدريب ، اذ كانت تسبق الادراك
والتمييز . يضاف الى هذا انه يقرر أن الطفل قد يشاهد عليه الميل
الى الحياء ، وأنه يجب استقلال هذه الغريزة فيه . ومن الواضح
انه لو كانت العطرة جميعا خالصة من كل الميول ، لكان واجبا أن
يفرس الحياء في الطفل بالتربية والرياضة . لا أن ينمى ، اذ لا ينمى
غير الموجود .

ومما تقدم نرى للفزالي رأيين مختلفين في وراثه الاخلاق ،
فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجه خالية من كل نقش،
وقابلة لكل صورة ، يحكم بأن الاخلاق لا تورث . وحين يدعو الى
ان لا ترضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بانها تورث ؛ فهل
يمكن رفع ما بين هذين الأمرين من ظاهر الخلاف ؟
تحرير هذا البحث

الواقع أن الفزالي لم يعن بهذا البحث ، لذلك كان كلامه فيه
متناقضا ، وغير محدود . ولو أنه عنى به عناية خاصة لبين لنا أن
الاخلاق تورث ، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل
صورة . فالعطرة البشرية صالحة لكل غرس ، لأن الاخلاق التي
يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع ، بل
الكهول يقدرون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهدة ،
والطبائع التي يرثها المرء من أبويه لا تعاوده الا عند خمود مزياه
التي كسبها بنصح أسالذته ، أو تأثير بيئة صالحة سافته اليها
الأقدار .

اذن لا تناقض في كلام الفزالي الا من حيث الظاهر . فهو
يقول بوراثه الاخلاق في ثنابا آرائه المبعثرة هنا وهناك ، وان كان
يجعل للتربية السلطان الأكبر في تكوين النفوس .

الباب السابع
في الفضائل

تمهيد

نتكلم في هذا الباب عن تحديد الفضيلة ، وبيان امهات الفضائل وما لها من الفروع ، ثم نذكر طائفة من الفضائل التي عنى بدرسها الفزالي : كالصدق ، والصبر ، والتوكل ، والخمول ، وما الى ذلك مما تدور عليه حياة الأفراد ، وينبنى عليه الاجتماع ، ليرى القارئ ما يسمو اليه في تصور المثل الأعلى للحياة .

تحديد الفضيلة

لا يفرق الفزالي بين كلمة فضيلة ، وكلمة خلق ، فهما عنده عبارة عن هيئة النفس ، وصورتها الباطنة .

وأساس الفضيلة فيما يرى يرجع بعضه الى ما أخذ عن أرسطو وبعضه الى ما أخذ عن أفلاطون . فهو يأخذ من أرسطو نظرية (التوسط) التي يسميها الاعتدال ، فقوة الغضب مثلا ان مالت عن الاعتدال ، الى طرف الزيادة سميت تهورا ؛ وان مالت الى الضعف سميت جبنا ، فاما ان ظلت وسطا بين الزيادة والنقصان فهي التسجاعة . فالمحمود هو الوسط ، وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان ، كما يقول .

ولا يجمد الفزالي على هذه النظرية حتى يعترض عليه بأن من الفضائل ما لا وسط له ، بل يقرر أن العدل ليس له طرفان : زيادة ونقص ، بل له ضد واحد ، ومقابل واحد : هو الجور .

ويأخذ عن أفلاطون نظرية المماثلة ، أى مشابهة الله ، فهن الله فيما يرى أفلاطون : هو الوحدة التى تجتمع فيها وتتصلح جميع كمالات المخلوقات . والرجل الفاضل عند أفلاطون هو الذى ينظر الى الله بلا انقطاع كما ينظر الفنان الى الانموذج . والفراى يقرر أن المرء يقرب من الله بقدر ما يقرب من رسول الله ، ومعنى ذلك أن الرسول جمع مكارم الأخلاق ، وقد حضنا على أن ننخلق بأخلاق الله ، ما عدا الكبرياء . فمشابهة الرسول واحتداؤه عند الفزالي تماثل تماما مشابهة الله عند أفلاطون .

وأخذ ايضا عن أفلاطون نظرية السوافى L'harmonie ويسمىها العدل . والتوافى عند أفلاطون هو تناسب القوى والملكات لتكمل فى المرء جوانبه الخلقية . واليك ما يقول الفزالي فيما يشابه هذا المعنى « وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم مطلقا بحسن العينين دون الأنف والفم والخد ، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان ، لابد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فاذا استتب الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهى : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة . وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث . أما قوة العلم فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات وبين الجميل والقبيح فى الأفعال . فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة . وأما قوة الغضب فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها فى حد ما تقتضيه الحكمة . وكذلك الشهوة حسننها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة ، اعنى إشارة العقل والشرع » .

ويجب أن ننبه الى هذه الكلمة الأخيرة ، وهى (إشارة العقل والشرع) فان الفزالي يدمج فيها النوافى والمماثلة معا ؛ أما المماثلة فهى فى لفظ الشرع ، وقد وضع لهذا أخلاق الرسول ممثلة فى

القرآن . وإما التوافق فهو لفظ العقل ، إذ يرجع كل الملكات الى طاعته . وانظر قوله « فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هي القدرة ، ومثالها مثال المنفذ المضي . والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فانه يحتاج الى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإرشاد » .

والامر كذلك في قوة العلم وقوة الشهوة . وقد نص في « الميزان » على أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب واستشهد بالقول المأثور : بالعدل قامت الأرض والسموات وهذا الترتيب الواجب خاضع للعقل بالطبع ، وهذا ما يراد بنظرية التوافق .

امهات الفضائل

أصول الفضائل فيما يرى الغزالي اربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل . وقد نص على انه يعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدري الصواب من الخطأ في جميع الأحوال الاختيارية . ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة . ويعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في اقدامها واحجامها . ويعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

ولهذه الأصول فروع ، كما يرى الغزالي ، فمن اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الراى ، واصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال ، وخفيا آفات النفوس .

واما خلق الشجاعة فيصدر عنه : الكرم ، والنجدة والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والشبات ، وكظم الفيض ، والتودد .

وأما خلق العفة فيصدر عنه : السخاء ، والحياء ، والصبر ،
والمسامحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ،
وقلة الطمع .

وقد نص في « الميزان » على أن الحكمة فضيلة القوة العقلية ،
والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ،
والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب « فليس
جزءاً من الفضائل ، بل هو عبارة عن جملة الفضائل (١) » .

وقد لاحظ الغزالي أن في هذه الفروع شيئاً من الغموض ،
فكتب في شرحها ثلاثة فصول مطولة في الميزان ، وبين معها كذلك
ما ينشأ من الانحراف والتفريط ، من أنواع الرذائل ، وسنرجع إليها
في غير هذا الباب .

الفضائل السلبية

في مقدورنا أن نقسم الفضائل إلى ايجابية وسلبية : فالأمل
فضيلة ايجابية ، لأنه يحمل صاحبه على العمل في سبيل الحياة .
والزهد فضيلة سلبية ، لأنه يرضى صاحبه بما قد يكون عليه من
سوء الحال .

وبعد أن نفهم هذا ننظر في الفضائل التي عني بدرسهما
الغزالي ، فنجدها في الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة
الفقر ، وفضيلة الزهد ، وفضيلة التوكل ، وفضيلة الخوف ،
وفضيلة المحمول ، وفضيلة التواضع ، وفضيلة الجوع .

ولم يعن الغزالي بشرح الفضائل الايجابية : كالشجاعة ،
والاقدام ، والحرص ، وما إلى ذلك مما يحمل المرء على حفظ
ما يملك ، والسعى لنيل ما لا يجد . فانه لا يكفي أن يسلم الرجل

(١) ص ٩٠ .

من الآفات النفسية ، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة . وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف . فإن الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

الفضائل الفردية

ويمكننا أن نقسم الفضائل الى فردية واجتماعية . فالقناعة فضيلة فردية ، لأنها تخص صاحبها بالذات . والأمانة فضيلة اجتماعية لأن المرء يحتاج إليها حين يعامل الناس .

والغزالي يعنى فى الأغلب بالفضائل الفردية ، حتى لتحسبه يكتب مؤلفاته لأفراد يعيشون فى عزلة وانفراد . فلو أنك أردت أن تدخل فى عالم السكون ، لوجدت لدى الغزالي من آداب الوحدة والعزلة ما يقنعك ويرضيك . ولكنك لو أردت أن تدخل فى عالم السياسة ، لما وجدت لديه فكرة واحدة يمكن أن تكون نبراسا يهتدى به الساسة من الوزراء والسفراء .

درجات الأخلاق

وبعد معرفة أمهات الفضائل وما لها من الفروع ، يخطر بالبال هذا السؤال . هل يرى الغزالي أن فى مقدور المرء أن يصل الى أعلى درجات الأخلاق ؟

ونجيب بأنه يرى ذلك فى مقدور المرء . وانظر قوله :

« وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم اليه ، ويقتدون به فى جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد » .

والدرجة العليا عنده هى درجة النبوة ، والصوفية فيما يرى

يقربون من هذه الدرجة ، والبك ما يقول عنهم في كتابه « المنقلا
من الضلال » :

« لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين
على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ،
ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا : فان جميع
حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور
مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور
يستضاء به » .

وأظن أننا هدمنا هذا الحكم من أساسه بما أسلفنا من نقد
أحوال الصوفية ، فان ما استحسّن الغزالي من أحوالهم لا يمكن
ان يكون مقتبسا من نور مشكاة النبوة ، وهل كانت النبوة يا هذا
وساوس وأضاليل ؟ تعالت النبوة عما تصفون !

أين مقياس العقل والشرع ؟ هاته ، هاته : فهو وحده فصل
الخطاب !

الفصل الأول

فضيلة الصدق

ابتدأ الفزالي الكلام على هذه الفضيلة بقوله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وبفوله عليه السلام : « ان الصدق يهدي الى البر ، والبر يهدي الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا . وان الكذب يهدي الى الفجور ، والفجور يهدي الى النار . وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » . ثم قال : ويكفى في فضيلة الصدق ان الله تعالى وصف الانبياء به في معرض المدح والثناء فقال : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » وقال : « واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادقا الوعد وكان رسولا نبيا » . وقال : « واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا » .

مراتب الصدق

للصدق فيما يرى الفزالي ستة معان : صدق في القول ، وصدق في النية والارادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين . فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق ، ومن صدق في شيء فهو صادق بالاضافة الى ما فيه صدقه .

الاول - صدق القول . وهو اشهر انواع الصدق ولا يجوز العدول عنه الا لمصلحة . كتأديب الصبيان والنساء ومن يجرى مجراهم . وفي الحذر من الظلمة ، وفي قتال الاعداء ، والاحتراز

من اطلاعهم على اسرار الملك . قال الغزالي : « فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه ان يكون نطقه الله فيما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدين . فاذا نطق به فهو صادق ، وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه . لان الصدق ما اريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء اليه . فلا ينظر الى صورته ، بل الى معناه . نعم في مثل هذا الموضع ينبغي ان يعدل الى المعارض ما وجد اليها سبيلا ، فقد كان رسول الله اذا توجه الى سفر ورى بغيره . كيلا ينتهي الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب في شيء . قال رسول الله : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا ونمى خيرا » . ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : « من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان في مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النية ، فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير » .

الثاني - صدق النية والارادة ، ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو ان لا يكون له باعث في الحركات والسكنات الا الله .

الثالث - صدق العزم . فان الانسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول : ان رزقني الله مالا تصدقت بجميعه ، او شرطه ، فهذه العزيمة قد يصادفها في نفسه وهي جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فالصدق هنا عبارة عن التمام والقوة .

الرابع - صدق الوفاء بالعزم ، فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال ، اذ لا مشقة في الوعد والعزم ، فاذا حقت الحقائق ،

وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة ، ولم يحصل
الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه .

الخامس - صدق الأعمال ، وهو ان تكون أعمال المرء الظاهرة ،
صورة لحالته الباطنة . بخلاف أعمال الرياء .

السادس - الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف
والرجاء والزهد والرضا والتوكل والحب ، لان لامثال هذه الأمور
مبادئ يطلق بظهورها الاسم ، ثم لها حقائق ، والصادق من نال تلك
الحقائق . . وفي هذا المعنى شيء من الغموض .

الفصل الثاني

فضيلة الصبر

يرى سقراط ان الفضيلة اساسها العلم . فمتى علم الانسان
الخير فعلة ، ومتى عرف الشر تركه . ويقرب راي الغزالي من هذا
في اساس الصبر ، الا انه يشترط ان تصل المعرفة الى اليقين
حتى تثمر الصبر واليك قوله في هذا المعنى : « ترك الأعمال
المستهانة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث للدين
الذي هو في مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال يثمره
المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا
والآخرة . فاذا قوى يقينه ، اعنى المعرفة التي تسمى ايماننا ،
وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى باعث

الدين ، واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تقتضاه الشهوة (١) وقال في موطن آخر . « والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية ، والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى (٢) » ويذكر أميل بوراك في كتابه :
Cours Elémentaires de Philosophie

ص ٣٤٣ ان العلم لا يكفي أساسا للفضيلة . فمعرفة الواجب لا تكفي للقيام به . بل لا بد من حبه وارادته ارادة حرة ثابتة . وهذا التقييد يساوى ما اشترط الغزالي من اليقين ، لأن المرء متى يتيقن نفع شيء أحبه ، أو كاد يحبه . ويرى الدكتور منصور فهمي والأستاذ هبده خير الدين أن المعرفة التي يراها سقراط أساس الفضيلة لا بد أن تكون المعرفة الجازمة التي تورث الإرادة ثم التنفيذ . واذن فلا اعتراض على سقراط .

أسماء الصبر

ويقرر الغزالي أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر المرء عنه ، فهو جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف الإيمان ، فإن كان صبورا ، عن شهوة البطن والفرج سمي عفة . وإن كان في احتمال مكروه سمي صبورا ، وضده الجزع . وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، وضده البطر . وإن كان في الحرب سمي شجاعة ، وضده الجبن . وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلما ، وضده التدمير . وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة الصدر وضده الضجر . وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر .

(١) ٦٧ ج ٤ .

(٢) ٧٠ ج ٨ .

وان كان عن فضول العيش سمي زهدا ، وضده الحرص . وان كان صبرا على يسير من الحظوظ سمي قناعة ، وضده الشره .

درجات الصابرين

وللإنسان بالنسبة للصبر ثلاثة احوال :

الأولى - ان يفهر داعى الهوى ، فلا تنفى له قوة المنازعة ، ويتوصل الى هذه الحال بدوام الصبر .

الثانية - ان تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، وهى اسوأ الاحوال .

الثالثة - ان تكون الحرب سجالا بين الهدى والضلال .

حكم الصبر

ويقسم الصبر باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم . قالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المكروهات نفل ، والصبر على الاذى المحظور محظور ، كمن تقطع يده او يد ولده فيسكت ويصبر ، وكمن يفصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيظه ، فيصبر عن اظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على اهله . فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على اذى يناله بوجهه مكروهة في الشرع ، كنظر الأجنبية الى امراته .

ضرورة الصبر

ويرى الفزالى ان المرء محتاج الى الصبر فى كل حال : فهو يحتاج اليه فى السراء ، كما يحتاج اليه فى الضراء . بل هو اليه فى السراء احوج ، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . والصبر هنا يكون بان يراعى المرء حقوق الله فى ماله بالانفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق .

والطاعة تحتسج الى صبر ، لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية . وللصبر على الطاعة ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك تصحيح النية والاخلاص ، والصبر على شوائب الرياء ، والعزم على الاخلاص والوفاء . والثانية حالة العمل ، كي لا يفتر قبل الفراغ منه . والثالثة بعد انتهائه اذ يحتاج الى الصبر عن افئسائه والتظاهر به ، والنظر اليه بعين العجب .

ويحتاج المرء الى الصبر عن المعاصي ، وعلى الاخص التي صارت مألوفة بالعادة ، اذن تنضاف العادة الى الشهوة . ثم ان كانت المعصية مما يسهل فعله كان الصبر عنها اتقل على النفس ، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والنساء على النفس تعريضا وتصريحا ، والنزح المؤذى للقلوب .

والصبر على اذى الناس فضيلة ، واعظم منه الصبر على انواع البلاء : كموت الاعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة .

ويرى الغزالي أن توجع القلب ، وبكاء العين ، لا ينافي الصبر ، لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الانسان الى الموت .

والذي كفى جميع الشهوات واعتزل الناس ، لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ، ويريد الغزالي بهذا ان يؤكد احتياج المرء الى الصبر في جميع الاحوال والأفعال .

تحصيل الصبر

ويمكن تحصيل الصبر باضعاف باعث الشهوة ، وتقوية باعث الدين . ويضعف باعث الشهوة بتقليل مادته من حيث النوع والكثرة ، او قطع اسبابه ، او تسليئة النفس بمباح من جنس ما يشتهي . ويقوى باعث الدين بأمرين : الأول اطعامه في فوائد المجاهدة بالتفكر في الاخبار الواردة عن الصبر وعواقبه . والثاني ان يعود هذا الباعث مصارعه باعث الهوى حتى يمرن على جهاده ومقاومته .

الفصل الثالث فضيلة الخمول

الغزالي يسمي الخمول فضيلة ، ويخيل الى انه لافضل فيه !! ولكن سمية الغزالي هذه تدلنا عن شيء خاص يوضح رأيه في الأخلاق : ذلك انه حين دعا الى الخمول ، لم يدع الى التجرد من الخصائص الذاتية التي توجب ذبوع الشهرة وبعد الصيت ؛ وقد خص الشهرة المدمومة بما يأتي من طريق التكلف . وهو لا ينكر ان يشتهر المرء بعمله في غير جلبة ولا ضوضاء .

وقد نبه بلطف الى ان حسن السمعة قد يفسد المعلمين بنوع خاص ، فقد يعود المعلم على كثرة الطلبة ، فيفتر نشاطه حين يقولون . وفي هذا المعنى يذكر عن أبي العالية انه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام . ولم ينس الغزالي أن التجمهر حول الأمراء فتنة لهم ، وذلة لتابعيهم ، فذكر في هذا المعنى كلمة جامعة لعمر ابن الخطاب .

ويقول الغزالي : « فان قلت فاي شهرة تريد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ، فكيف فاتتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء ، دون الأقوياء ، وهم كالفرق الضعيف اذا كان معه جماعة من الفرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم ، فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم .

وأما القوى فالأولى أن يعرفه الفرقى ليتعلقوا به فيحييهم ويثاب على ذلك » .

فالرجل الخير فيما يرى الغزالي هو الذي لا يعرف غير الواجب ولا يهمه أقبل الناس عليه ، أم أمضوا عنه ، لأنه بالواجب مشغول .

الفصل الرابع

فضيلة التوكل

كتب الغزالي عن التوكل اربعا وخمسين صفحة في الاحياء وثلاث عشرة صفحة في كتاب الأربعين ، وسبعا وعشرين صفحة في منهاج العابدين . وهو يبالغ في المنهاج اكثر مما يفعل في الأربعين والاحياء ، فان كلامه في الكتابين الآخرين واحد ، وان اختلف في الإيجاز والاطناب ، وكثيرا ما يحيل في الأربعين على الاحياء .

واول ما نلاحظه ان الغزالي اهتم بهذه الفضيلة ، حتى احتاج الى ان يعتذر عن تطويله في كتاب المنهاج ، اذ كان التطويل يخالف شرط ذلك الكتاب . وهذا الاهتمام نفسه يوضح لنا جانباً من هم الجوانب في فهمه للحياة .

ونقرر منذ الآن أن ما كتبه عن التوكل صريح في الدعوة الى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الطمأ والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الارزاق !

ونحن نعلم أن العلماء يجب ان يضربوا الامثال بأنفسهم للناس كما فعل عمر حين خرج بعد الخلافة يتجر في الأسواق . ولكن الغزالي يقول « فالاهتمام (١) بالرزق قبيح بلوى الدين » وهو

(١) ناقشني الاستاذ محمد بك جاد المولى يوم الامتحان فيما احذله على الغزالي من تقبيحه الاهتمام بطلب الرزق ، وهو يرى ان « الاهتمام » هو القبيح ، فأما طلب الرزق فلا قبح فيه ولكن يلاحظ ان الغزالي قابل الاهتمام بالقساة ، والقناعة في طلب الرزق ليست فضيلة ، بل الفضيلة هي الاهتمام بالرزق . ولا رلت ارى انه لا معنى لان يكون الاهتمام بالرزق قبيحا بلوى الدين حتى نكون بالعلماء اقيح . ولكن علر الغزالي انه ينظر الى هذه المسألة نظرة صولية كما قال فصيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب السجار .

بالعلماء أقبح ، لأن شرطهم القناعة . والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة ان كانوا معه الا اذا أراد ان لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق العالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى ، فانه تفرغ لله عز وجل ، واعانة للمعطى على نيل الثواب » ص ٢٨٦ ج ٤ .

ولو انه دعا الحكومات الى الأخذ بيد العلماء ، واغنائهم عن السعى الى الرزق لتتخصر جهودهم في نشر العلم ، لكان له قسط من الصواب . اما زعمه ان الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن ، وأن الاولى للعالم ان يكتفى بما يعطيه الناس ليعينهم على نيل الثواب ، فهو رأى يهوى بصاحبه الى الحضيض ، ولا يتناسب مع مكانه العلماء .

كرهية السؤال

ومع ان الغزالي يبيح للعالم السؤال ليعين المعطى على نيل الثواب ، فانا نجد في مكان آخر يقرر أن السؤال حرام في الأصل وانما يباح لضرورة ، او حاجة قريبة من الضرورة ، لأن في السؤال اظهار الشكوى من الله باظهار الفقر ، ولأن السائل يدل نفسه بسؤاله ، وليس للمؤمن ان يدل نفسه لغير الله ، ولانه يؤدي المستول : فقد لا تسمح نفسه بالبدل عن طيب قلب . فان بدل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الأخذ .

ويمكن الحكم بأن الغزالي يحتاط ابلغ احتياط في اباحة السؤال ولكن يبقى انه من اهانة العلم والدين ان يقبل المرء بكليته على العبادة املا في ان يطعمه سواه ، فانه لا يعقل ان تكون نوافل

العبادات مما يترك في سبيله طلب المعاش ، حتى يباح لأجلها
السؤال (١) .

حكم الكسب

والغزالي مع هذا لا يرى الكسب منافيا للتوكل في كل حال ؛
فمن الخطأ فيما يرى أن « يظن أن معنى التوكل ترك الكسب
بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة
الملقاة ، وكال لحم على الوضغ ، وهذا ظن الجاهل ، فإن ذلك حرام
في الشرع ، والشرع قد اثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من
مقامات الدين بمحظورات الدين ؟ » وقد بين أن الإنسان في سعيه
إلى مقاصده إما أن يكون لجلب نافع هو مفقود عنده كال كسب ،
أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل
به كدفع الصائل والسارق ، أو لازالة ضار قد نزل به . كالتداوى
من المرض .

والنافع باعتبار الأسباب التي يجلب بها ثلاث درجات :
مقطوع به . ومظنون ظنا يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس به
ثقة تامة ، ولا تطمئن إليه .

والأولى كالأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله

(١) قامت حجة يوم الامتحان بسبب هذا الحكم « واتكر فضيلة الاستعانة
الشيخ عبد المجيد اللبان أن يكون الغزالي قال شيئا من ذلك . وهذا يدل على
أن الفطرة الغالبة تستنكر السؤال .

وقد كتب فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار بهامش النسخة التي
كانت عنده ما يأتي : كانت قدم المعري أرسخ في الزهد من قدم الغزالي . فقد
كان متحفظا بالزهد عملا واشتهر ذلك عنه اشتها را لا شبهة فيه . وقد قال :

الأمر قد أصبحت في دمة أروى القليل ولا أهتم للثروت
وشاهد خالتي أن الصلاة له أمر عندي من دوى وياقوتى
ومع هذا فإياه في الزهد خير من رأى الغزالي ، لأنه كان مع إعجابه بالقناعة
والزهد يعيب على القانع الزاهد أن يكون عيشه من فضلات أهل اليسار .
ويقول :

ويجبني دأب الدين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحاح

ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف ، كمن يرى الطعام موضوعا بين يديه وهو جائع . ثم لا يمد اليه يده ، لانه يرى السعى الى تناوله ومضغه تفويتا للتوكل ، وهذا فيما يرى الغزالي جنون « انك ان انتظرت ان يخلق الله فيك شبيعا دون الخبز ، او يخلق في الخبز حركة اليك ، او يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله الى معدتك ، فقد جهلت سنة الله . وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في ان يخلق الله نباتا من غير بذر ، او ولد زوجتك من غير وقاع ، فكل ذلك جنون » .

والتوكل في هذا المقام — كما نص الغزالي — لا يكون بالعمل ، بل بالعلم ، ومعنى ذلك انه لا يجوز لك ترك الاسباب ، وانما تعلم ان الله هو مسبب الاسباب .

والثانية الاسباب التي ليست متيقنة ، ولكن الغالب ان المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيدا ، كمن يترك الامصار والقوافل ، ويسافر في البوادي التي يندر أن يعرقها الناس ؛ ويكون سفره من غير زاد ، فهو ليس شرطا في التوكل ، بل استصحاب الزاد سنة الاولين ، ولا يزول التوكل به .

وقد أسرف الغزالي حين تحدث عن هذا الموقف في المنهاج ، وانظر ماذا يقول : « فان قلت : فهل تدخل البادية بلا زاد ؟ فاقول : ان كان لك قوة قلب بالله تعالى وثقة بالغة بوعد الله سبحانه وتعالى ، فادخل ، والا كن كالعوام بملأئهم » ص ٨٢ .

ولو اننا رجعنا الى ما وضعه من آداب المسافر لعلمنا انه احتاط هناك ، فحث المسافر على ان يأخذ حاجته من الزاد ؛ ثم أوصاه بأن يأخذ قدرا يوسع به على رفيقائه ، فكيف يصبح المسافر بزاده في البادية من العوام ؟ ومن عسى أن يكون هؤلاء العوام المؤدبون ؟

وقد توقع الغزالي أن يسأل عن حمل رسول الله وأصحابه للزاد ، ولكنه تفضل فأجاب بأن ذلك مباح غير حرام ! ثم توقع أن يسأل : هل ترك الزاد أولى أم أخذه لمن قوى يقينه ؟ وأجاب في المنهاج بأن الترك أفضل ، وأنا لا أعلم لهذا الفضل أساسا غير التنسك الذي ينكره العقل ، ويأباه الدين !

ولم يفت الغزالي أن يذكر أن هذه المجازفة قد تكون القضاء بالأبدى الى التهلكة ، فأجاب بأن شرطها أولا رياضة النفس حتى تحتمل الجوع أسبوعا أو ما يقاربه ، وثانيا أن يكون المتوكل بحيث يقوى على التقوى بالحشيش ، وما يتفق من الأشياء الخسيسة ، اذ لا يخلو الأمر من أن يجد آدميا في بحر الأسبوع أو ينتهى الى محله ، أو قرية ، أو الى حشيش يجترىء به !

واحب أن يذكر القارئ هذه الصورة الغريبة ، فان الغزالي يدمو اليها جمهور المسلمين !

وانظر كيف يقول : « فان قلت فما قولك في القعود في البلد بغير كسب . أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما . بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن ينفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ، ففعله ذلك حرام . وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة ، فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وان كان مشغول القلب بالله غير مشرف الى الناس ، ولا متطلع الى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه الى فضل الله تعالى واستغاله بالله فهو أفضل . »

وما أدري كيف يتفق هذا مع قوله في نفس الصفحة : فإذا
التباعد عن الأسباب كلها مراعاة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ؟
الا ان يكون السؤال من الأسباب ، وهو سبب مهبئ !

وأحب أيضا ان يذكر القارئ هذا التناقض في الجمع بين
التوكل وبين السؤال !! وكيف تقوم لامة قاعة وهى تربي على هذه
الاخلاق !!

ثم ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده ، وبين من
يدخل البادية بلا زاد ؟ لا فرق الا ان الثاني قد يجد من يتصدق
عليه ، أو يجد حشيشا يقتات به ! ولو ذكر الغزالي أن اليد العليا
خير من اليد السفلى ، وان الله كرم بنى آدم وحملهم في البر والبحر
ورزقهم من الطيبات ، لما اختار لامرئ هذا الحظ الخسيس ،
ولما وضع هؤلاء المشردين ، في طبقة الموكلين .

والدرجة الثالثة ملاسنة الأسباب التى يتوهم افضاؤها الى
المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى التدبيرات الدقيقة
في تفصيل الاكتساب ووجوهه . يقول الغزالي : « وذلك بخرح
بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذى فيه الناس كلهم ،
أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح » (١) .

وإذا كان الاحتيال لكسب المباح مما ينافى التوكل ، فقد انهدم
أعظم ركن في بناء الممالك والشعوب . والغزالي يردد النقرة من
الحيلة لكسب الرزق ، وقد لاحظنا ذلك عليه حين تكلم عما يجمل
بالتاجر من أن لا يكون أول داخل في السوق ولا آخر خارج منه .

ونرى الحاجة ماسة الى أن ننبيه الى أن فهم التوكل بهذه
الصورة خطأ صراح ، وليس علينا من حرج اذا رأينا الغزالي من
الخطائين ، وما نريد أن نزيد !

مقامات المتوكلين

وللمتوكل مقامات ثلاثة .

الأول - مقام من يترك الزاد وهو يدور في الوادي ، وإنما كان هذا افضل فيما يرى الغزالي لأن فيه تثبيتا على الرضا بالموت !

الثاني - مقام من يقعد في بيته أو في مسجد ، ولكنه في القرى والأمصار . وهذا اضعف من الأول كما يقول .

والثالث - من يخرج للكسب على الوجه الذي ارتضاه حين تكلم من آداب الكسب ، وهو أن لا يقصد به الاستكثار ، ولم يكن اعتماده على مصاعته وكفايته ، وعجيب والله أن يكون الكسب أدنى درجات المتوكلين .

توكل المهيل

غير أن الغزالي يخص تلك الحالة الشديدة بالمنفرد ، وقد قدمنا أنه يرصى له الاقتناع بان الموت من جملة الأرزاق .

أما المهيل صاحب الأولاد فإنه لا يجوز له المقام الثالث ، وهو توكل المكتسب ، كتوكل أبي بكر رضي الله عنه إذ خرج للكسب « فأما دخول البراري وترك العيال توكلًا في حقهم ، أو التعمود عن الاهتمام بأمهم توكلًا في حقهم ، فهذا حرام . وقد يقضى إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذًا بهم . بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله . فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتماد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ، وهذه مجازفة من الغزالي : إذ يرضى أن يعود الرجل أبناءه على الجوع ، وأن يمرتهم على الاعتماد بالموت جوعا في سبيل الآخرة ، وقد يكونون لم يبلغوا سن التكليف .

يقول الغزالي : « وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت أن تأخر الرزق نادرا ، وملازمه البلاد والأمصار

وملازمة البوادي التي لا تخلو عن الحشيش وما يجري مجراه .
فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ... الخ ؟
ونكرر ما لاحظناه من أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ مبين ،
فانه يجر القادر على الطلب الى الرضا بالسؤال ، وانتظار
المصادفات ، والترحيب بالموت ، مع أن قطع أسبابه من أول ما يعنى
به بناء الأخلاق .

الادخار

ورأى الغزالي في الادخار عجيب ، اذ أفضل الحالات عنده
أن حصل على مال بأرث أو كسب أو أى سبب من الأسباب ان يأخذ
قدر حاجته في الوقت : فيأكل ان كان جائعا ، ويلبس ان كان
عاريا ، ويشترى مسكنا مختصرا ان كان محتاجا ، ويفرق الباقي
في الحال . ولا يأخذ ، ولا يدخر ، الا بالقدر الذى يدرك به من
يستحقه ويحتاج اليه ، فيدخره على هذه النية !

والذى يدخر لسنة ليس من المتوكلين أصلا كما يقول !
والذى يدخر لأربعين يوما فما دونها يحرم من المقام المحمود
الموعود في الآخرة للمتوكلين .

ونحِب أن يتأمل القارئ هذا الراى في الاقتصاد ، فقد أكثر
المؤرخون من لوم العرب على اهمال هذا العلم ، وعدوا الجهل به
سببا لسقوط المملكة العربية ، مع أنها كانت تسيطر على أخصب
بلاد العالم كمصر والعراق . ولكن كيف يحترم هذا العلم في أمة
يقول امام الأئمة فيها : ان ادخار المال لأربعين يوما يحرم المرء من
المقام المحمود ! ؟

وقد تفضل الغزالي فأباح للمعيل أن يدخر قوت عياله لسنة !؟
وتفضل كذلك فأجاز للرجل أن يدخر الكوز وأثاث البيت ! !
والفرق عنده بين الكوز وغيره ، أن سنة الله لم تجر بتكرر
الأوامر مع الحاجة اليها في كل وقت ، ولكن جرت سنته بتكرر

الأرزاق في كل سنة . وكان عليه أن يعرف أن الرزق إنما يتجدد في كل سنة ، لمن يملك من المزارع والمناجر ما يتجدد ربهه في كل سنة . فيأعجبا كيف نجيز التوكل اثلاف رأس المال !

آداب المتوكلين

- وضع الغزالي الآداب الآتية للمتوكل حين يخرج من بيته :
- ١ - أن يعلق الباب ، ولا يستقصى في اسباب الحفظ ، كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق ، وجميعه اغلافا كثيرة !
 - ٢ - أن لا يترك في البيت متاعا يحرص عليه السارق !
 - ٣ - ما يضطر الى تركه في البيت ، ينبغي أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه !
 - ٤ - اذا عاد فوجد المال مسروقا فيسبى ان لا يحزن ، بل يعرج اذا امكنه !
 - ٥ - ان لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ . فان فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على ما فات !
 - ٦ - ان يغتم لأجل السارق وعصيانته وعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اد جعله مظلوما ولم يجعله ظالما !
- وما ادرى ما ادى انسى الغزالي ان يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مغوحا ، وان يعلق عليه لوحة مكتوبا فيها بخط واضح جميل : من اراد أن يأخذ شيئا من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف ! !
- وليس من التوكل بالطبع أن ينقلب المرء الجنة ، لينالوا على يد الوالى جزاء ما قدمت أيديهم . بل التوكل هو أن لا يبالغ المرء في اسباب الحفظ ، وأن يوطن النفس على ما يسرق من متاعه ، وأن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغتم لأن هذا السارق المسكين عصي الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله على أن جعله من المظلومين ، ولم يجعله من الظالمين .

واظرف ما في هذا الباب دموع الغزالي الى ان يجعل الرجل
ما سرق منه ذخيرة له في الآخرة ، وان اعيد اليه فالاولى ان
لا يقبله !

توكل الخائف

يقدر الغزالي ان الضرر قد يعرض للخوف في النفس والمال ،
اما في النفس فكانتوم في الأرض المسببة ، او في مجارى السيل من
الوادي ، او تحت الجدار المائل ، او السقف المنكسر ، وكل ذلك
فيما يرى منهى عنه ، لانه تعريض للهلاك بلا فائدة .

وجملة القول ان اسباب الخوف اما مقطوع بها او مظنونة
او موهومة ، وترك الموهوم هو شرط التوكل ، فالمبالغة في الاحتياط
تبعد المرء عن مقام المتوكلين ؟

وهنا لا نرى بأسا من تحقيق مسألة أخطأ فيها الغزالي ، فقد
عد من الأسباب الموهومة الكي ، وذكر ان رسول الله لم يصف
المتوكلين الا بترك الكي والرقية والطيرة . ولو صح رأيه فيما
استشهد به ، لكان للرقية والطيرة فائدة موهومة ، مع انه يستحيل
ان يرى رسول الله قيمة لهذه الاسباب ، وانما يريد أن يضيف
المتوكلين والمتطيرين والراقين الى جملة الموسوسين .

ولو كان للكي فائدة موهومة لما عد تركه من التوكل ، وهو يتعلق
مباشرة بالصحة . وانما نهى عنه الرسول لأن ضره كثير ، ومحقق ،
يونفعه قليل بل موهوم . وفوق هذا يجب أن نلاحظ أن الاسباب
الموهومة لم يكن تركها شرطاً في التوكل الا لأن في تركها تعويداً على
المخاطرة ، وهي من صفات الأحياء ، فاذا اختلفت الظروف ، وكانت
وحاية الاسباب الموهومة نوعاً من الحيطة ، فاني لا افهم كيف تحرم
المرء من المقام المحمود !

واذا خاف الانسان على ماله ، فله ان يغلط بيته ، وأن يعقل
بعميره ، لان هذه اسباب عرفت بسنة الله اما قطعاً واما ظناً ؟

فلا ينقض بها التوكل ، كما لا ينقض بدفع العتارب والحيات
والسباع ، لأن الصبر على هذه جنون .

توكل المريض

يقسم الفزالي الأسباب المزيلة للمرض الى مقطوع به ، ومظنون ، وموهوم ، ويقرر أن ترك المقطوع به ليس من التوكل بل تركه حرام عند خوف الموت . وكان عليه أن يتنه الى أن المرض متى وجد ، فالمت مخوف في كل حال ، لأن للمرض طفولة وحدانة وفتوة ، فان ترك وهو ناشئ أمسى وهو قوى متين ، بل يجب حرب جراثيم المرض ، لأنها تبيض وتفرخ ، ثم تصبح أعداء الداء . فاما الموهوم فشرط التوكل تركه . وقد بينا ما تختلف عليه هذه الحال .
وأما المظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل ، وما الى ذلك من الاسباب الظاهرة عند الأطباء ، فليس تركه من التوكل ، كما أن تركه ليس محظورا كالمقطوع به ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الاحوال وفي بعض الأشخاص . وهذا ما لا نوافق عليه الفزالي ، لانا لا نفهم كيف يكون الحرص على الصحة مما يفضل اغفاله في بعض الأحيان .

والى القارىء الاحوال التى يحمد فيها عنده ترك التداوى !

١ - أن يكون المريض من المكاشفين ، وقد كوشف بأن أجله انتهى ،
وان الدواء لا ينفعه (١) .

٢ - أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته .

٣ - أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذى يؤمر به موهوم النفع
بالنسبة لعلته .

٤ - أن يقصد بترك التداوى استبقاء المرض لينال اجر الصابرين ،
او ليمرن نفسه على الصبر الجميل !

٥ - أن يكون قد سبق له كثير من الذنوب ، ويرى المرض تكفيرا
اذا طال ، وكان قد عجز عن التكفير !

١٠ - أن يستشعر في نفسه مبادئ البطر والطغيان بقول مدة الصحة ، فيترك التداوى خوفاً من أن يعاجله زوال المرض ، فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان .

ويحسن أن نلفت النظر الى أن هذه أسباب ضعيفة ، لا تقتضى ترك الدواء ؛ وهى فى الوقت نفسه تدل على مبلغ حرص الغزالي على نزعة الصوفية ، فمن الواضح أن اىثار المرض فى سبيل الفراق من آفات العافية ، انما هو عمل سلبى قلل الفناء . وماذا يضرنا لو حاربنا المرض ، ثم رجعنا بعد ذلك الى حرب ما للصحة من الآفات ، لنخرج رجالاً صحاح الجوارح والقلوب ؟

والغزالي فوق ما سلف يفضل كتمان المرض ، ولا يجيز اظهاره الا فى الأحوال الآتية :

١ - أن يكون الغرض التداوى ، فيذكر المرض للطبيب ، لا فى معرض الشكاية ، بل فى معرض الحكاية .

٢ - أن يوصف المرض لمن يرجى منه الدعوة الى الصبر .

٣ - أن يقصد باظهار المرض اظهار العجز والافتقار الى الله .

قال الغزالي : « فبهذه النيات يرخص فى ذكر المرض ، وانما يشترط ذلك لان ذكره شكاية والشكوى من الله حرام . ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله . فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن بحكم فيه بأن الاولى تركه . لانه ربما يوهم الشكاية ، ولانه ربما يكون فيه نصنع ومزید فى الوصف على الوجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلأ فلا وجه فى حقه للاظهار ، لان الاستراحة الى الدواء افضل من الاستراحة الى الافشاء » .

وهذه الكلمة الاخيرة غاية فى الحكمة والسداد .

ملاحظات ثلاث

الأولى

جاء في ص ٢٩٢ ج ٤ احياء ما نصه : « فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه وائاء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من اثاث البيت . وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده ، وانما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير الى الفقراء والمتوكلين في زوايا المساجد . وما جرت السنة لتفريق الكيزان والامتعة في كل يوم وفي كل أسبوع » .

وهذه الفقرة تدل واضح الدلالة على أن التوكل هذا نزعة صوفية ، وقد وضع الغزالي مقياسا لتقدير الأعمال هو العقل والشرع ، وما أحسبه يستطيع أن يثبت أن آية « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » خاصة بهذا الصنف من الناس ، بل التوكل المأمور به في القرآن هو الاعتماد على الله مع مباشرة الأسباب والايمان بانه لا يضيع اجر العاملين .

الثانية

جاء في المنهاج ص ٨٠ ما نصه : « فان قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما ؟ فاعلم ان الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه اذ هو شيء من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا على دفعه (١) فان قيل ؟

لكن لهذا الرزق المضمون أسباب : فهل يلزمنا طلب الأسباب ؟ قيل :
 له لا يلزمك ، اذ لا حاجة للعبد اليه اذ الله سبحانه يفعل بسبب
 وبغير سبب ، فمن ابن يلزمنا طلب السبب ثم ان الله تعالى ضمن
 لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب ، قال الله تعالى :
 « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها » ثم كيف يصح ان يأمر
 العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه ، والواحد منا لا يعرف سبب
 الرزق تتناوله من أين يحصل له ، فلا يصح تكليفه . فأمل .
 وقد باملنا كثيرا ، فام نر هذه الحجة الا خيالا في خيال !

الثالثة

اراد الغزالي ان يحض على التوكل فأمر بملاحظة الجنين كيف
 وصلت سرته بسرة الأم لينتهي اليه الغذاء لما كان عاجزا عن الحركة
 والاضطراب ، فلما انفصل سلك الله على الأم الحب لترضعه وهي
 راقعة ، وأدر له اللبن اللطيف ، اذ كان مزاجه لا يحتمل الغذاء
 الكثيف . وانفل الغزالي من هذا الى بيان أن الكبر قد كثرت
 اسباب الرفق به ، فبعد أن كان المنفق واحدا هو الأم او الأب ،
 أصبح اهل البلد كافة يشفقون عليه . ثم أخذ يبين كيف ينتفع
 اليتيم بشفقة المسلمين ، الى آخر ما قال .

وهذه الحجة على الغزالي لا له ، فانه اذا كان الله وصل سره
 الجنين بسرة أمه لضعفه عن الحركة ، وأدر عليه اللبن لعجزه عن
 المضغ ، وسلط على أمه الحب لعجزه عن السعى ، فلماذا منحه
 القوة اذن ، اذا كان لم يشأ أن يستغنى بها عن الناس ؟

فاما ما قاله من أن كل واحد من اهل البلد اذا أحس بمحتاج
 تألم قلبه ، ورق عليه ، وانبعثت له داعية الى ازالة حاجته ، فهي
 أمنية شعيرية ، وليته ذكر أن العرب هموا بترك دينهم ليخلصوا
 من الزكاة !

الفصل الخامس

فضيلة الاخلاص

انتدأ الغزالي كلامه من هذه الفضيلة بقوله تعالى (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ثم ذكر جملة من الاحاديث والاخبار . ثم قرر بعد ذلك ان كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ، ويميل اليه القلب ، قل ام كثر ، اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه ، وزال به احلاصه . ثم بين انه قلما يخلو فعل من أفعال المرء وعبادة من عباداته ، عن حظوظ واغراض عاجله . وان العمل الخالص هو الذى لا باعث عليه الا طلب القرب من الله .
ومقياس الاخلاص فيما يرى الغزالي هو أن يشعر المرء بارتياح حين يجد غيره يعمل عملا كان يريد أن يقوم به . نعرف هذا من قوله :

« وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة هم العلماء . فان الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء ، والفرح بالاتباع . والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الترع الذى شرعه رسول الله . وترى الواقعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين . ويفرح بقبول الناس قوله ، واقبالهم عليه ، وهو يدعى انه يفرح بما يسر له من نصره الدين . ولو طهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه واقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى اذ كفاه هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول : انما غمك لانقطاع الثواب هناك لانصراف وجوه الناس الى غيرك . اذ لو اعطوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لقوات الثواب محمود . ولا يدري المسكين ان اتقياده للحق وتسليمه الامر افصل واجزل ثوابا واعود اليه فى الآخرة » .

وقد انحصر الاخلاص عنده في الامور الدينية ، لغلبة هذه الامور عليه ، ولو كان الغزالي من الذين باشرُوا الحركات العامة ، ووقفوا على الشئون الاجتماعية ، لذكر لنا ضرورياً من الاخلاص في نهوض الافراد بأمهم . وبين لنا كيف يتطرق الغرض الى الأعمال الاجتماعية ، وكيف تشقى الشعوب بأصحاب الاغراض ، فليس الاخلاص وقفاً على الصلاة والزكاة والحج والصيام ، بل الاخلاص فيما بين الرجل وبين أمته ، أوجب من الاخلاص فيما بينه وبين ربه ، لأنه حين يحرم الاخلاص في العبادة لا يضر الله شيئاً فإن الله غنى عن العالمين . ولكنه حين يحرم الاخلاص فيما يعمل لأمته ، يشقى بسوء غرضه ملايين من النفوس ، ثم يصبح وهو منبوذ مهين . ولكن أكثر الناس لا يعلمون !

الباب الثامن
في توقّي الرذائل

تمهيد

لم يضع الغزالي للرديلة تعريفا يخصصها بالذات ، وإنما هي عنده افراط في الفضيلة أو تفريط . وهو يرى أن الافراط في قوة العلم ينشأ عنه المكر والحقد والخداع والدهاء ، وأن التفريط فيها يصدر عنه البله ، والقمار ، والحمق ، والجنون ، وينشأ من الافراط في الشجاعة التهور وما اليه من الجسارة ، والتبجح ، والاستشاعة والتكبر والعجب والبلذخ . ويصدر من التفريط فيها الجبن ، والهلع ، والمهانة ، وصغر النفس ، والنكول . وأما الرذائل الصادرة من الافراط أو التفريط في العفة ، فهي : الشره ، وكلال السهوة ، والوقاحة ، والتخنث ، والتبذير ، والتقتير ، والرياء ، والتهتك والمجانة ، والعبث والشكاسة ، والملق والحسد والشماتة ... الخ .

والاحظ أن كلامه في هذا الباب غير واضح ، وقد لاحظ هو ذلك ، فأخذ يشرح أمثال الرذائل الآتية : الاستشاعة ، الانفراك ، التخاسس ، البدالة ، الشكاسة ، الكرازة ، التحاشي ، النكول ، القمار ... الخ .

والأمر كذلك في الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق . وينبغي أن لا ننسى أن الغزالي يوصي دائما بقلع الخلال الرديئة وغمس مكارم الأخلاق ، ويسمى هذا بالتخلية ، والتحلية ، أي إخلاء القلب من الشهوات ، ثم تحليته بكرائم النزعات .

وإذ كنا بينا رأيه في جملة من الفضائل الضرورية للأفراد ، فإننا ذاكرون كذلك رأيه في طائفة من العيوب والرذائل الكثيرة الوجود ، ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة .

الفصل الأول

رذيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، والى التشفى والانتقام بعد وقوعها . وهو فيما يرى الغزالي ثلاث درجات : التفریط ، والافراط ، والاعتدال .

أما التفریط ففقد هذه القوة ، أو ضعفها . وهو مذموم اذ من ثمراته قلة الأنعة مما يؤنب منه ، كالتعرض للحرم والزوجة ، والأمة ، واحتمال الدل من الأحساء ، وصغر النفس .

وأما الافراط فهو ان تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن العقل والدين ، فلا تسمى للمرء بصيرة ، ولا نظر ، ولا فكرة ، ولا اختيار .

وأما الاعتدال فهو المحمود ، وهو غضب ينتظر إشارة العقل والدين : فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفئ حيث يحسن الحلم .

قال الغزالي « فمن مال غضبه الى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة ، وخسة النفس في احتمال الدل والضيم في غير محله فينبغي ان يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه الى الافراط حتى جره الى التهور واقتحام الفواحش فينبغي ان يعالج نفسه ليغض من سورة الغضب ويقف على الوسط بين الطرفين (١) » .

(١) ١٣٦ ج ٢ احياء *

أسبابه

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالي ترجع الى ثلاثة أقسام ؛
الأول - ما هو ضرورة في حق الكافة كالفوت ، والملبس
والمسكن ، وصحة البدن وهذه ضرورات لا يخلو الانسان من كراهة
زوالها ، ومن الغيظ على من يتعرض لها .

والثاني - ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجهاد والمال
الكثير ، والفلمن ، والدواب وقد صارت هذه الأشياء محبوبة
بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور .

الثالث - ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض ،
وهذا يختلف باختلاف الأشخاص .

علاجه

وقد وضع الغزالي طريقة لاستئصال رذيلة الغضب ، كما وضع
طريقة لتسكينه حين يشور .

أما الطريقة الأولى فهي استئصال الغضب باستئصال أسبابه
وإذا كانت الأسباب المهيجة له هي الزهو ، والعجب ، والمزاج ،
والهزل ، والهزء والتعجير ، والمماراة ، والمضادة ، والفدر ، وشدة
الحرص على حصول المال ، والجهاد ، فينبغي للخلوص من الغضب
إزالة هذه الأسباب ، وهي في أنفسها رذائل تحتاج الى رياضة ،
ورياضتها الرجوع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها ، وتنفر
من قبورها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير
بالعادة مألوفة هينة على النفس . فإذا انمحت عن النفس فقد
ذُكت وتطهرت من هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا من الغضب الذي
يصدر منها .

أما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع الى العلم والعمل . والعلم
ستة أمور :

- ١ - أن يتفكر في الأخبار الواردة في كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال .
- ٢ - أن يخوف نفسه بعقاب الله ، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من يريد أن يمضى فيه غضبه .
- ٣ - أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشهير العدو لمقابلته ، والسعى في هدم أغراضه ، والشتمات بمصائبه .
- ٤ - أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب ، ومشابهة الغضببان للكلب الضارى ، ومساواة الحليم للأنبياء .
- ٥ - أن يتفكر في السب الذى يدعو إلى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ .
- ٦ - أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشئ على وفق مراد الله لا على وفق مراده .

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعيد بالله من الشيطان الرجيم فان لم ينفع ذلك ، فاجلس ان كنت قائما ، واضطجع ان كنت جالسا ، واقرب من الأرض التى منها خلقت ؛ لتعرف ذل نفسك ، فان لم ينفع ذلك فتوضأ ، أو اغتسل بالماء البارد .

دواء الشر بالشر

بعد أن بين الغزالي علاج الغضب ، وفضيلة الحلم ، وكظم الغيظ ، اخذ في بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام . وهو على الجملة لا يجهز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذا سائر المعاصي . ويجوز ان ينتصر المظلوم لنفسه بالكلام في غير تلك المنكرات ، ولكن الأفضل تركه ، فانه يجر إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه .

ثم قسم الناس باعتبار الغضب الى أربعة أقسام : قسم سريع الوقود سريع الخمود ، وقسم بطيء الوقود بطيء الخمود ، وقسم سريع الوقود بطيء الخمود ، وهو شرهم ، وقسم بطيء الوقود سريع الخمود . قال الغزالي وهو الأحمد ما لم ينته الى فتور الحمية والغيرة .

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب احدا في حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظا على المعاقب فيكون متنفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب حظ ، مع أن الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه .

ولا يفوتنا أن نذكر ان الغزالي كرر النصح بتجنب من يتجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولة .
فان الفصل في الصفح الحميل .

الفصل الثاني رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالي وليد الغضب ، فان الغضب اذا لزم كظمه مخرج عن التشفي في الحال ، رجع الى الباطن واحتقن فيه قصار حفدا ، ومعنى الحقد - كما نص على ذلك - أن يلزم المرء قلبه استئفال المغضوب عليه ، والبغضة له ، والنفور منه ، وأن يدوم ذلك ويبقى .

وللحقد ما يأتي من النتائج :

- ١ - الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عن عدوك ، فتفتم للنعمة تصيبه ، وتسرع للمصيبة تنزل به .
- ٢ - أن تزيد على اضرار الحسد في الباطن فتظهر الشماتة بها أصابه من البلاء .

- ٣ - أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك .
- ٤ - أن تعرض عنه استصغارا له .
- ٥ - أن تتكلم فيه بما لا يحل : من كذب ، وغيبة ، وافشاء سر ، وهتك ستر .
- ٦ - أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه .
- ٧ - أن تؤذيه بضرب أو شبهة مما يؤلم بدنه .
- ٨ - أن تمنعه حقه : من قضاء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظالم .

قال الغزالي : « وكل ذلك حرام . وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما يعصى به الله ، ولكن تستثقله في الباطن . ولا ينتهي قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به عن البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته ، أو الدعاء له ، والثناء عليه ، والتحريض على بزه ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ، وإن كان لا يعرضك لعقاب (١) » .

وللحقود عند القدرة ثلاثة أحوال : الأولى استيفاء الحق من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل ، والثانية الإحسان بالعفو والصلة وهو الفضل ، والثالثة الظلم ، وهو المنهى عنه .

الفصل الثالث

وذيلة الحسد

هو إحدى نتائج الحقد ، وله فيما يرى الغزالي أربع مراتب :
الأولى - أن يحب المرء زوال النعمة عن غيره ، وإن كانت لا تنتقل إليه وهذا غاية الخبث .

(١) ١٨٦ ج ٢ ، ٢

الثانية - أن يحب زوالها اليه : لرغبته في مثل تلك النعمة ،
كان يرى عند غيره امرأة جميلة ويجب أن تكون له ، فمطلوبه تلك
النعمة لا زوالها ، ومكروهه فقدها لا تنعم غيره بها .

الثالثة - أن لا يشتهي عينها لنفسه ، بل يشتهي مثلها ، فان
عجز عن مثلها أحب زوالها ، كي لا يظهر التفاوت بينهما .

الرابعة - أن يشتهي لنفسه مثلها ، فان لم تحصل فلا يحب
زوالها عنه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه ان كان في الدنيا ، والمندوب
اليه ان كان في الدين .

والرتبة الاولى مدمومة ، وتسمية الثانية حسدا تجوز ، فانما
هى معنى ما للغير ، وهو ايضا مذموم لقوله تعالى (ولا تمنوا
ما فضل الله به بعضكم على بعض) والثالثة أخف من الاولى .

اسبابه وعلاجه

ويرى الغزالي أن أسباب الحسد ترجع الى العداوة ، والتعزؤ
والكبر ، والعجب ، والخوف من فوت المفاصد المحبوبة ، وحب
الرياسة ، وخبث النفس . وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال
والأقران ، والأحوة ، وبنى العم ، والأقارب ، لان كثرة الروابط
تولد أسباب الحسد والنقصاء .

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالي ينحصر في تأديب النفس
وتبصيرها بحظر هذه الرذيلة ، فان الحاسد انما ينكر في غيره نعمة
أنعم الله بها عليه ، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه ، وان
يحفظ وقته فلا يضيعه فيما لا يغنى ولا يفيد ، فليس أضيع من
وقت يصرف في بغض نعمة لا يملك المرء زوالها عن سواه .

وقد قرر الغزالي أن الحسد يكاد يكون طبيعة في النفوس ،
وأن الأمل في السلامه منه بالكلية بعيد .

الفصل الرابع وذيلة العجب

للعالم بكمال نفسه في علم ، او عمل ، او مال ، ثلاث حالات :
الأولى - أن يكون خائفا على زواله ، ومشققا على تكدره ،
او سلبه من أصله ، وهذا ليس بمعجب .
الثانية - أن لا يكون خائفا من زواله ، ولكن يكون فرحانه ،
من حيث هو نعمة من الله ، لا من حيث اضافته الى نفسه ، وهذا
ايضا ليس بمعجب .

الثالثة - أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحانه ، مطمئنا
اليه ، ويكون فرحه من حيث انه كمال ونعمة ، وحير ورفعة ، لا من
حيث انه عطية من الله ونعمة منه ، وهذا هو العجب . فهو ادن
استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى النعم .
قال الغزالي : « فان انضاف الى ذلك أن غلب على نفسه أن له
عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامته في الدنيا
واستبعد أن يجرى عليه مكروها يزيد على استبعاده ما يجرى على
الفساق سمي هذا ادلالا بالعمل . . والادلال وراء العجب ، فلا مدل
الا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل ، اذ العجب يحصل بالاستعظام
ونسيان النعمة دون توقع جزاء ، والادلال لا يتم الا مع توقع جزاء
والعجب والادلال من مقدمات الكبر وأسبابه (١) » .

اسبابه وعلاجه

واليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج :
الأول - أن يعجب المرء ببدنه : في هيئته وصحته ، وقوته ،
وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وجمال صوته .

وعلاجه أن ينظر في مصير الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة ، وكيف يعبت بها التراب .

الثاني - البطش والقوة ، وعلاجه أن ينظر ما حل بقوم عاد .
الثالث - العجب بالعقل ، والكياسة ، والنغطن لدقائق الأمور ، من مصالح الدنيا والدين . وآفه هذا الاستبداد بالرأى وترك المشورة .

وعلاجه أن ينظر في مصير عقله لو أصيب بمرض في دماغه .
الرابع - العجب بالنسب الشريف .

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه يلحق بهم ، فقد جهل .

الخامس - العجب بنسب السلاطين الظلمة ، وأعوانهم ، دون نسب العلم والدين .

وعلاجه أن يفكر في مخازيهم ، وفي مصيرهم يوم الحساب .
السادس - العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعسيرة والأقارب والأنصار والأتباع .

وعلاجه أن يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وإبهم كلهم عبيد عجرة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا .
السابع - العجب بالمسال .

وعلاجه أن يتفكر في آفات المال ، وكثرة حقوقه ، وغوائله .
الثامن - العجب بالرأى الخطأ ، كما قال تعالى : « آمن رين له سوء عمله فراه حسنا » .

قال الغزالي : « وعلاج هذا العجب أشد من غيره ، لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لنركه ، ولا يعالج الداء الذى لا يعرف ، والجهل داء لا يعرف ، فتعسرت مداواته جدا . . . » وانما

ملاجه على الجملة ان يكون متهما لرايه اندا لا نقتر به الا ان يشهد قاطع من كتاب او سنة او دليل عقلى صحيح جامع لشروط الأدلة (١) » .

وقد بين الغزالي فوق ما سلف ان العجب مع الله يدعو الى لسيان الذنوب واهمالها ، فبعض ذنوب المرء لا يذكرها ولا يتفقدتها لظنه انه مستغن عن تفقدتها فينسأها . وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه ، بل يظن انه يغفر له . ومتى أعجب المرء بأعماله عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات أعماله كان أكثر سعيه ضائعا ، فان الأعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية من الشوائب قلما تنفع . وانما يتفقد عمله من يغلب عليه الخوف والاشفاق دون المعجب . فانه يغتر بنفسه وبرايه ، ويأمن مكر الله وعذابه ، اذ يظن انه قد استغنى وباز ، وهذا هو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه . كما قال الغزالي .

الفصل الخامس

رذيلة الكبر

يقسم الغزالي الكبر : الى باطن وظاهر . فالباطن هو خلق في النفس . والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح . ويسمى الباطن الكبر ، والظاهر التكبر . والكبر فيما يرى ثمرة العجب . وينفصل عنه بأنه يتطلب متكبرا عليه ، بخلاف العجب ، فقد يعجب المرء بنفسه ، وماله ، وهمله ، ولو خلق وحده . والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

الاول - التكبر على الله وهو افحش انواع الكبر ، ومثاله ما كان من فرعون .

الثاني - التكبر على الرسل ، ومثاله ما كان من فريش وبنى اسرائيل .

(١) من ٢٨٤ ج ٢ »

الثالث - التكبر على العباد ، بأن يستعظم المرء نفسه ،
ويستحققر غيره .»

اسباب التكبر

وللتكبر سبعة أسباب :

الأول - العلم ، وما أسرع الكبر الى العلماء !

الثاني - العمل والعبادة . ولكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات : الأولى أن يكون الكبر مستقرا في قلب المرء فيرى نفسه خيرا من غيره ، الا انه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى فيه خيرا من نفسه ، وهذا قد غرست في نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها . الثانية ، أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه ، بتصغير خده وتقليل جبينه . قال الفزائي : « وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ، ولا في الوجه حتى يعبس ، ولا في الخد حتى يصعر ، ولا في الرقبة حتى تطأطأ ، ولا في الذيل حتى يضم ، وإنما الورع في القلوب (١) » .

الثالثة : أن يظهر الكبر على لسانه حتى يدموه الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتركبة النفس وحكاية الأحوال والمقامات .»

الثالث - التكبر بالحسب والنسب .

الرابع - التفاخر بالجمال ، وأكثر ما يجرى هذا بين النساء .»

الخامس - التكبر بالمال ، ويجرى هذا بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم ، وبين الدهاقين في أراضيهم ، وبين المتجملين في ملابسهم ، وخيولهم ، ومراكبهم .

(١) ٣٥٥ ج ٢ .»

السادس - التكبر بالقوة وشدة البطش .
السابع - التكبر بالاتباع والانصار والتلامذة والعلماء والعشيرة
والأقارب ، ويجرى ذلك بين الملوك في المكائنة بالجنود وبين العلماء
في المكائنة بالمستفيدين .

قال الغزالي : « وبالجمل فكل ما هو نعمة وامكن ان يعتقد
كمالا وان لم يكن في نفسه كمالا امكن ان يتكبر به (٢) » .
وعلامات التكبر - كما ذكر الغزالي - تظهر في شمائل الرجل :
كصغر خده ، ونظره شزرا ، واطرافه براسه ، وفي جلوسه متكئا ،
وتظهر في مشيته ، وتبخره ، وقيامه وقعوده ، وحركاته وسكناته ،
وفي سائر تقلباته في احواله واقواله واعماله .
وازالة الكبر - فيما يرى الغزالي - فرض عين ، وهو لا يزول
بمجرد التمنى ، بل بالمعالجة واستعمال الادوية القائمة له .

علاجه

ولعلاجه طريقتان :
الاولى - قلع شجرته من مغرسها في القلب ، وذلك بمعرفة
المرء نفسه بالدلة ، وربّه بالعزة ، الى آخر ما قال الغزالي .
الثانية - دفع عارض الكبر ، بدفع الأسباب الخاصة التي
يتكبر بها الانسان على غيره ، وانت لا تزال قريبا من تلك الأسباب
السبعة التي توجب التكبر فيما يراه ، وقد وضع لكل سبب
علاجاً خاصاً ، غير انه لا يفترق كثيراً عما لخصناه له من علاج
العجب ، فلنكتف به ، فان أسباب هاتين الرذيلتين تكاد تكون
واحدة ، وان كانت الثانية نتيجة الاولى .

الفصل السادس آفات اللسان

وقد رأى الغزالي ان اللسان كثير العترات ، ولا بد للمرء من

(٢) من ٢٥٧ ج ٢

صبطه ، فبسط القول في آفاته ، وكتب في ذلك نحو خمسين صفحة ، بين فيها حدود تلك الآفات ، وأسبابها ، وغوائلها ، وطريق الاحتراز عنها .

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت :
ثم قال في تبرير ما دعا اليه من الإخلاد الى السكوت : « فان قلت :
فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلم ان سببه كثرة آفات
اللسان من الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء ،
والففاق ، والفحش ، والمراء ، وتزكية النفس والخوض في الباطل ،
والخصومة ، والفضول ، والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ،
وابداء الخلق ، وهتك العورات .

فهذه آفات كثيرة ، وهي سبابة الى اللسان لا تثقل عليه ،
ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان .
والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يجب ،
ويمسكه ويكف عما لا يجب ، فان ذلك من غوامض العلم » .

ثم خشي ان يرميه القارئ بالاسراف فقال : « وبدلك على فضل
لزوم الصمت امر : وهو ان الكلام أربعة اقسام : قسم هو ضرر
محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم
ليس فيه ضرر ولا منفعة . اما الذي هو ضرر محض فلا بد من
السكوت عنه وكذلك ما فيه من ضرر ومنفعة لا تنفي بالضرر . واما
ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فصول ، والاشغال به نصيب زمان ،
وهو عين الخسران .

فلم يبق الا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام .
وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر اذ يمتزج بما فيه اثم من دفاق
الرياء ، والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس ، وفضول الكلام ،
امتزاجا يخفى دركه ، فيكون الانسان به محاطرا (١) » .

(١) من ١١٨ ج ٢ احياء .

وهذا من الغزالي اغراق في حب السلامة . ونحن ذاكرون
خلاصة هذه الآفات ، لنعرف رايه في طبائع الأفراد .

الكلام فيما لا يعنى

أما الآية الأولى : فهي الكلام فيما لا يعنى : وحده - كما قال
الغزالي - أن تتكلم بكل ما لو سكنت عنه لم تأثم ، ولم تستضر
به في حال أو مال ، ومن أمثلته فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره
وما رأى فيها من جبال وأنهار ، وما وقع له فيها من الوقائع
وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجب منه من مشايخ
البلاد وحوادثهم .

ولم ينتبه الغزالي لخطر هذا المال . فان الكلام عن الأسفار
والرحلات من الأمور ذوات البال ، والحدث عن طبائع البلاد
وأخلاق الناس من المستحسنات . ونحن مدينون بما نعلم من
عادات الأمم وأخلاقها الى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيه
فيقصون علينا ما راوا في أسفارهم من الجبال ، والأنهار ، والأطعمة
والثياب ، وان عد الغزالي حديثهم ولو احترزوا تضییعا للزمان .
ومما أصاب في عده مما لا يعنى أن يرى انسانا في الطريق
فتقول من أين ؟ فرمما يمنعه مانع من ذكره ، فان ذكر تأذى به
واستحيا ، وان لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه .
وكذلك سؤالك امرا عن المعاصي ، وعن كل ما يخفيه ويستحي
منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك .

والباعث على هذه الآية - فيما يرى - هو الحرص على معرفة
مالا حاجة به اليه ، او المبسطة بالكلام على سبيل التودد ،
او تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها .

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم ان الموت بين يديه ، وأنه مسئول
من كل كلمة ، وان أنفاسه رأس ماله ، وان لسانه شبكة يقدر على
أن يقتنص بها الحور العين ، فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين .

يقول الغزالي : « هذا علاجه من حيث العلم ؟ وأما من حيث العمل فالعزلة ، وأن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت من بعض ما يعنيه ، حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه (١) » (١٤) .

فضول الكلام

أما الآفة الثانية فهي فضول الكلام . وهو يتناول الخوض فيما لا يعنى ، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة . فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره . قال الغزالي : « ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين ، فالثانية فضول وهو مدموم وإن لم يكن فيه ألم ولا ضرر (٢) » .

وسبب هذه الآفة وعلاجها مماثلان لسبب وعلاج الكلام فيما لا يعنى .

الخوض في الباطل

وأما الآفة الثالثة فهي الخوض في الباطل . وعد الغزالي منه حكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء . وتجبر الملوك ، ومراسمهم المدمومة وأحوالهم المكروهة وقرر أن مثل هذا لا يحل الخوض فيه وهو حرام ، بخلاف الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى . ويدخل الغزالي في هذا الباب الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم . ثم قال : « وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنيها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاعتصام على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا (٣) » .

(١) ص ١٢١ ج ٢ - أحياء .

(٢) ص ١٢١ ج ٢ .

(٣) ص ١٢٢ ج ٢ .

المراء والجدال

أما الآفة الرابعة فهي المراء والجدال . والمراء كما حدده الغزالي « هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه . أما في اللفظ ، وأما في المعنى ، وأما في قصد المتكلم » .

وبترك المراء فيما يرى يكون بترك الإنكار والاعتراض ، فكل كلام سمعه المرء صدق به أن كان حقا ، وسكت عنه أن كان باطلا أو كذبا . ولم يكن متعلقا بأمور الدين . وليس له أن يعترض في كلام غيره باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللفظ ، أو من جهة النظم والترتيب ، أو من جهة المعنى ، أو من جهة القصد : كأن يقول هذا كلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما أتت فيه صاحب غرض . يقول الغزالي : « وهذا الجنس أن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل . وهو أيضا مذموم ، بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد . أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن » .

« وأما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير ، وتمجيذه ، وتنقيصه بالدح في كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه » .

والباعث على المراء والجدال فيما يرى الغزالي هو الترفع باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنيتان للنفس يرجعان إلى السبعية والكبرياء .

وأما العلاج فيكون بكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره (والسبعية في عبارات المتقدمين هي القوة الوجدانية المشتركة بين الإنسان وبين كباة الحيوانات : قالانتقام قوة سبعية لأنه من صفات الجمل ، والعفة من أكل ما يكسب الغير قوة سبعية لأنه من صفات الأسد »
اذ لا يأكل فريسته) .

الخصومة

أما الآفة الخامسة فهي الخصومة . وهي لججاج في الكلام ليستوفى به مال أو مقصود . قال الغزالي : « فان قلت : فإذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ، وكيف تدم خصومته ؟ فاعلم ان هذا الدم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم ؟ ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية لا يحتاج اليها في نصره الحق واطهار الحق . ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لتهر الخضم وكسره . . . فاما الذي ينصر حجه بطريق السرعة من غير لد واسراف وزيادة لججاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايداء ففعله ليس بحرام ، ولكن الاولى تركه ما وجد اليه سبيلا » .

وقد بين الغزالي كيف توغر الخصومة الصدر ، وتهيج الغضب حتى ينسى المتنازع فيه ، ويبقى الحقد بين المتخاصمين : فيفرح كل واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان في عرصه . فمن بدا بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات .

التقعر في الكلام

الآفة السادسة هي التقعر في الكلام بالتشديق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيها بالتنسيبهات والمقدمات ، وما جرت به عادة المتفاسحين .

والغزالي يفرق بين من يلقي خطبة ، وبين من يتكلم كلاما عاديا ، ولا حرج على الخطيب فيما يرى الغزالي أن يلجأ الى المحسنات اللفظية ، في غير افراط أو اغراب ، فان المقصود من الخطبة تحريك القلوب ، ونشويها ، وحببها ، وبسطها ، ولرشاقة اللفظ في ذلك كله تأثير .

أما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات ، فالغزالي ينكر أن يكون فيها أى مظهر من مظاهر التكلف كالسجع أو غيره « بل ينبغي أن يقتصر المرء فى كل شئ على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم » .

والآفة الخلقية للتصنع فيما يرى الغزالي ترجع الى الباعث عليه : وهو الرياء ، وحب الظهور بالفصاحة ، والتميز بالبراعة .

الفحش

والآفة السابعة هى الفحش ، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة . وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش ، وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد . وقد ذكر الغزالي من ذلك ما يجرى فى الفاظ الوقاع وما يتعلق به ، والعيوب التى يستحيا منها كالبرص والقصرع والبواسير ، ثم حض على استعمال الكتابة فى مثل تلك المواطن .

والباعث على الفحش فيما يرى : اما قصد الإيذاء ، واما الاعتماد الحاصل من مخالطة الفساق ، وأهل الخبث واللؤم .

وقد عد الغزالي الفحش والسب والبذاء آفة واحدة ، وأضاف إليها « البيان » الوارد فى حديث (البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق) وفسر هذا البيان بكشف ما لا يجوز كسفه ، أو المبالغة فى الإيضاح حتى ينتهى الى حد التكلف . أو البيان فى أمور الدين ، وفى صفات الله أمام العوام ، اذ قد ينور من غاية البيان فيها شكوك ووسواس .

اللعن

أما الآفة الثامنة فهى اللعن ، لحيوان أو انسان أو جماد ، وكل ذلك مذموم .

والغزالي فى هذا الباب نظر دقيق : فهو لا يجيز أن تقول فى إنجيل حى من اليهود مثلاً لعنه الله ، كما تقول لمن الله أباً جهل

وَقَرَعُونَ ، فانه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله ، ولا يجيز ان يلعن
 المبتدع لان معرفة البدعة غامضة « ومن بان لنا موته على الكفر
 جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه اذى لمسلم ، فان كان لم يجز »
 ولا يجوز لعن يريد ، لانه لا يجوز ان يقال انه قتل الحسين ، أو امر
 بقتله ما لم يثبت ذلك . فضلاً عن اللعنة : اذ لا تجوز نسبة مسلم
 الى كبيرة من غير تحقيق ، ولا يجوز ان يرمى مسلم بفسق وكفر
 من غير تحقيق » .

قال الغزالي : « والمؤمن ليس بلعان ، فلا ينبغي ان يطلق اللسان
 باللعنة الا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين
 بأوصافهم دون الأشخاص المهيئين » .

المزاح

الآفة التاسعة هي المزاح ، والمعلوم منه فيما يرى الغزالي هو
 الافراط فيه ، أو المداومة عليه . فلك ان تمزح كما كان يمزح
 رسول الله : فلا نقول الا حقاً ، ولا تؤذي قلباً ، ولا تفرط فيسقط
 وقارك » .

الاستهزاء

اما الآفة العاشرة فهي الاستهزاء . وحده كما قال الغزالي :
 « الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه
 يضحك وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون
 بالإشارة والإيماء » .

وقد نص الغزالي على ان هذا انما يحرم في حق من يتأذى به ،
 أقاماً من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت
 السخرية في حقه من جملة المزاح فله حكمه ، لأن المحرم هو
 استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير » .

افشاء السر

الآفة الحادية عشرة هي افشاء السر ، وهو مدموم لما فيه من الإيذاء والتهاون في حق المعارف والأصدقاء ، يقول الغزالي : « وهو حرام اذا كان فيه اضرار ، ولوم ان لم يكن فيه اضرار » . وقد عد من حقوق الأخ على أخيه في كتاب الصحة : « أن يسكت عن افشاء سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وان كان كاذبا ، فليس الصدق واجبا في كل مقام ، فانه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وأن احتاج الى الكذب ، فله أن يفعل ذلك في حق أخيه . فان أخاه نازل منزلته ، وهما كشخص واحد لا يختلفان الا بالبدن » .

الوعد الكاذب

الآفة الثانية عشرة هي الوعد الكاذب ، وقد بين الغزالي أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف ، أو برك الوفاء من غير عذر ، ولا جاح على من عزم على الوفاء فعن له عذر فممنعه .

الكذب في القول واليمين

الآفة الثالثة عشرة هي الكذب في القول واليمين . وقد نص الغزالي على « أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعه ومصلحة فالكذب المحصل لذلك الجهل يكون مآذونا فيه وربما كان واجبا » وقد بينا المواطن التي أباح الغزالي فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه في الوسائل والغايات .

الغيبة

الآفة الرابعة عشرة هي الغيبة . وحدها « أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه ، أو نسبه ، أو في

تخلقه ، أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دلياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته » .

وقد نص على أن التصريح ليس شرطاً في تحقيق الغيبة ، بل تكفى الإشارة ، والإيحاء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة ، والحركة ، وكل ما يفهم منه المقصود .

وللغيبة أسباب نذكر منها الأربعة الآتية :

١ - موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام ،

٢ - ازادة التصنع ، والمباهاة ، كأن يرفع المرء نفسه بتنقيص غيره .

٣ - اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وترجيبة الوقت بذكر عيوب الناس .

٤ - البراءة مما ينسب المرء اليه بتنقيص من يفعله .

وقد تنبه الغزالي الى ما يقع فيه علماء الدين ، فقد نكروا المنكر ، ويقعون في صاحبه ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، مع أنهم يكفيهم أن يشخصوا المنكرات بلا تعرض للأشخاص ، وقد يقضبون لله حين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكنهم يذكرون أشخاصا بالسوء ، فيحبطون ما يعملون .

والغزالي يصف لعلاج الغيبة قراءة الآثار والاحاديث الواردة في هذه الآفة . وقد عد سوء الظن غيبة القلب ونهى عنه ثم ذكر المواطن التي تجوز فيها الغيبة ، وقد فصلناها أيضا في الوسائل والغايات ، كما بينا رأيه في كفارة الغيبة في الخروج من المظالم .

النميمة

الآفة الخامسة مشرة هي النميمة . وهي كما يقول الغزالي : « كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه ، أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول ، أو بالكتابة ، أو بالرمز ،

أو بالإيحاء . وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه أو لم يكن (١) . »

ولم يقتصر الغزالي على تقبيح النسيمة ، وعدها من آفات اللسان ، بل وضع للرجل آدابا خاصة أزاء النمام . وهي :

١ - أن لا يصدقه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة .

٢ - أن ينهأ عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله .

٣ - أن يفيض في الله ، فإنه يفيض عند الله .

٤ - أن لا يظن بأخيه الغائب السوء ، فإن بعض الظن اثم .

٥ - أن لا يحمله ما حكى له على التجسس ، والبحث لأجل التحقيق .

٦ - وأن لا يحكى النسيمة ، والارضى لنفسه ما نهى النمام عنه .

قال الغزالي : « والسعاية هي النسيمة ، إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية » ثم نقل قول مصعب بن الزبير : « نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة والقبول اجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا السامى ، فلو كان صادقا في قوله لكان لثيما في صدقه ، حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة (٢) » .

ولا شك في أن الغزالي يرتضى حكم مصعب في قبول السعاية ، لأنه لم يعقب عليه ، ولم يذكر من أقوال السلف ما ينتقضه . والسعاية والنسيمة شيء واحد ، أو كأنهما شيء واحد ، فمن الواجب أن تكون آداب المرء واحدة أزاء النمامين والسعاة ، وهو ما نحسبه رأى الغزالي وأن لم يصرح به .

وفي الوسائل والغايات تجد ما يجور من النسيمة فيما يرى

الغزالي .

(١) ص ١٥٧ ج ٢ .

(٢) ص ٢٥٨ .

كلام ذى اللسانين

الآفة السادسة عشرة هي كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعاضدين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقهما وهو فيما يرى الغزالي نفاق « ولو دخل الرجل على متعاضدين وجمال كل واحد منهما وكان صادقا لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقا ، فان الواحد قد يصادق متعاضدين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى الى حد الاخوة ، اذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الاعداء ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، اذ يصير نماما بان ينقل من أحد الجانبين فقط ، فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وان لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكن واحد منهما ما هو عليه من المعاداة لصاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك اذا اثنى على أحدهما واذا خرج من عنده ذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت ، أو يثنى على المحق من المتعاضدين في غيبته وفي حضوره ، وبين يدي عدوه . . . ولا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كلام باطل ، فان فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فان لم يقدر فينسكت بلسانه وينكر بقلبه (١) » .

الممدح

الآفة السابعة عشرة هي الممدح ، وهو منهي عنه في بعض المواضع ، وفي بعضها لا بأس به ، بل ربما كان مندوبا اليه ، وقد بين الغزالي أن لهذه الرذيلة أربع آفات في حق المادح ، واثنتين في حق الممدوح ، أما آفاتها في حق المادح فهي :

- ١ - أنه قد يفرط فينتهى به الافراط الى الكذب .
- ٢ - وقد يدخله الرياء ، فانه بالممدح مظهر للحبيب ، وقد لا يكون

(١) ص ١٦٠ ج ٤ .

مضمرا له ، ولا معتقدا لجميع ما يقوله ، فيصير به مرائبا
منافقا .

١١ - وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه ،
ويرى الغزالي ان هذه الآفة تنطرق الى المدح بالأوصاف
المطلقة التي تعرف بالأدلة : كقولك انه متق ، وورع وزاهد ،
وخير ، وما يجرى مجراه .

١٢ - وقد يفرح المدوح ، وهو ظالم او فاسق ، وذلك غير جائز .
اما آفاتنا في حق المدوح فهي :

١ - ان المدح قد يحدث فيه كبرا واعجابا وهما مهلكان .

٢ - وانه اذا انسى عليه بالخير فرح به وفتن ، ورمى عن نفسه ،
فقل جده .

وبعد ان بين الغزالي آفات المدح ، دما المدوح الى ان يكون
شديد الاحراز عن آفة الكبر ، والمجب ، آفة الفتور ، بأن يتأمل
ما في خطر الخامسة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف
من نفسه ما لا يعرفه المادح ، ولو انكشفت له جميع اسراره
وما يجرى على خواطره ، لكف المادح عن مدحه ؛ وحضه كذلك على
ان يظهر كراهة المدح بالدلال المادح .

الفغلة

الآفة الثامنة عشرة هي الفغلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام
لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين .
ومن الأمثلة التي ذكرها الغزالي انه لا يصح ان تقول عبيد
وأمته ، لأننا جميعا عبيد الله ، ونساؤنا جميعا أماء الله ، بل تقول
غلامي وجاريته ... الخ .

السؤال عن صفات الله

الآفة التاسعة عشرة هي سؤال العوام عن صفات الله تعالى
ومن كلامه ، وعن الحروف ، وانه قديمة أو محدثة . يقول الغزالي :

« وكل كبيرة يرتكبها العامى فهم أسلم له من أن يتكلم فى العلم »
لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وإنما شأن العوام الاشتغال
بالعبادات ، والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل
من غير بحث . وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب
منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ، ويتعرضون لخطر
الكفر . وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب
للعقوبة » .

الفناء

الآفة العشرون هى الفناء ، وتجد تفصيلها فى البحث عن رايه
فى الفنون .

وانه ليخيل الى المرء أن الغزالي بالغ فى آفات اللسان ، ولكن
هذه المبالغة ليست الا نوعا من الاحتياط ، وهى ليست كبيرة على
من يطمع فى مكارم الاخلاق .

الفصل السابع

رذيلة الرياء

انك لترحم الغزالي حين تقرا ما كتبه عن الرياء ، فانك تتصوره
رجلا كاد يجن من غلبة الجهال فى عصره . ويكفى أن نلخص آراءه
فى هذا الباب لترى كيف كان الرجل يمقت الرياء ، ويغض من
أعماق صدره أعمال المرائين .

فمما يمقتة الغزالي أن يظهر المسلم النحول والصفار ، ليدل
بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليالى . يقول الغزالي :
« ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين
ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع حق
الذى خفض صوته ، وضعف الجوع هو الذى أضعف من قوته » .

ومن الرياء تشعيث الشعر ، وحلق الشارب ، واطراق الراس في المشي ، والهدوء في الحركة ، وابقاء أثر السجود على الوجه ، وغلف الثياب ، وتشميرها الى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف التوب ، والتطويل في الركوع والسجود .. الخ .

ولم يغفل الغزالي عن الشئون الاجتماعية وهو يتكلم في الرياء فقد بين أن من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن أكل الشبهات ، ليعرف بالأمانة فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم اليه نفقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها ويحجدها . أو تسلم اليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ... الخ .

وللغزالي في هذا الباب نظر بعيد : فهو يعين العيوب الاجتماعية ، ويشرح عيوب العلماء والزهاد . ويظهر أن الناس لعهد كانوا يتخذون دين الله سلماً لأغراضهم الخبيثة : من الفسق والفجور ، ونهب الأموال .

وأكرر ما قلته من أن الغزالي لا يفضب إلا حين يحارب رذيلة يراها بعينه فكلامه في تلك صورة لعصره ، وليس أثراً لمطالعاته في الكتب القديمة التي تصف عيوب الناس . وفي مقدور الباحث أن يستخرج من كتاب الأحياء صورة واضحة للعلماء والزهاد في عهد الغزالي . ولا أقول الحكام والأمراء ، لأنه تكلم عن الحكومة لعهد يضعف وفتور ، ولم يقاس السلاطين شيئاً من لسانه الحديد !!

الباب التاسع
في العلوم والفنون والتربية

تمهيد

نذكر في هذا الباب خلاصة آراء الغزالي في العلم والعمل
والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ، وكيف يفهم علم الفقه ، وعلم
التوحيد ، ثم نذكر بالإيجاز فهمه للفنون الجميلة ، ثم نبين المنهج
الذي وضعه لتربية الأطفال ، وما يراه من آداب المعلمين والمتعلمين ،
وكيف اهمل تربية البنات .

الفصل الأول

العلوم

تكلم الغزالي عن العلم والعمل ، وإيهما أفضل للمريد ، في مواطن كثيرة من مؤلفاته في الأخلاق .

وقد لاحظت أنه لم يكن موحد الرأي في هذا البحث ، فتسارة يقدم العلم على العمل ، وأخرى يقدم العمل على العلم . ويخيل إلى أن نزعتة الصوفية كانت سبب هذا التردد ، بل وأحسب أيضا أنه كان يدارى أهل عصره ، ويسايرهم في كثير من الشئون . فقد أراه بهم بالكشف عن المقصود من العلم المفضل عن العمل ثم يتراجع . ولو جروا قليلا لبين لنا أن العلم النافع لا يقتصر على معرفة العبادات ، وما إليها من دقائق التصوف والتوحيد ، بل هنالك البحث في طبائع الأشياء ، والتنقيب عن السر في أن الله سخر لنا ما في الأرض جميعا .

غير أنه لم يكد يذكر قوله عليه السلام : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر » ، حتى اندفع يقول « ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو : أما أن يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، وأما أن يكون علما سواه . وباطل أن يكون الأول لوجهين : أحدهما أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذي له العلم بالعبادة ، والا فهو عابث فاسق ، والثاني أن العلم

بالعمل لا يكون أشرف من العمل ، لأن العلم بالعمل لا يراد لنفسه ،
وانما يراد للعمل ، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه » .

وكان المظنون بعد هذه المقدمة أن يعطى العلوم ما تستحق من
التفضيل . ولكنه قسمها الى قسمين : عملى ونظرى . اما العملى
فقد قدم انه ليس افضل من العمل ، واما النظرى فقد زيفه
جميعه ، ولم يستبق منه الا ما يرجع « الى العلم بالله وملائكته
وكتبه ورسله ، وملكوت السموات والأرض وعجائب النفوس
الانسانية والحيوانية من حيث انها مرتبطة بقدرة الله عز وجل
لا من حيث ذواتها » .

مناقشة قصيرة

من هنا يتبين أن واجب العابد لا يخرج عن العبادة والتفكير في
المعبود ، وما الى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسول وملكوت
السموات والأرض الى آخر ما قال .

ونسأل الغزالي : ما رايه اذا توقف فهم الكتب السماوية على
ادراك روح التشريع ، بفهم أصول القوانين ؟

وما رايه اذا توقف فهم « عجائب النفوس الانسانية والحيوانية »
على علم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ؟

وما رايه اذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم
والحديث ، لفهم ما قد يضطر اليه المشرعون من الرسل والانبيا
في مختلف العصور ؟

وما رأيه اذا توقف ادراكه ما فى الكتب السماوية من سياسة
الناس على علم الاجتماع ؟

لم ينكر الغزالى اهمية العلوم العقلية ، والنقلية ؛ ولكنه جعل
بعضها وسيلة للعلوم النظرية ، والوسيلة بالطبع دون الغاية فى
الربنة . وجعل بعضها علوما عملية ، وهى ايضا وسيلة للعمل ،
فلا يعقل أن تكون اشرف منه !

فلم يبق من العلم المقدم على العمل الا العلم بالله وملائكته
ورسله واليوم الآخر ؛ وهو فى ذاته علم شريف .

ولكنى احب أن اضع هذا السؤال : أياكون من يشغل نفسه
بهذا النوع من المعرفة افضل امام العقل والشرع ممن افنى عمره
فى درس الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تعزى الديدان التى
تحدث البول الدموى ، والتى تهلك فى كل عام ما يعد بالملايين ؟
وهل يقدم محبى الدين بن عربى يوم القيامة ، على من يقضى حياته
لا فى التفكير فى ملكوت الله ، بل فى غزو السل والسرطان ؟

الشك عن طريق اليقين

وبمناسبة العلم نثبت قول الغزالى فى نهاية الميزان : « ولو لم
يكن فى مجارى هذه الكلمات الا ما يشكك فى اعتقاداتك الموروثة لنتدب
للاطلب ، فناهيك به نفعا . اذ الشكوك هى الموصلة للحق ، فمن لم
يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى
والضلال » .

غير أن الغزالى لم يبين لنا مصير المرء اذا بقى فى شكه ، ولم يهتد
الى اليقين . وما نحسب عصر الغزالى كان يسمح له بشحير
هذه المسألة ، وان كانت غاية فى الوضوح فمتى كان المرء حرا فى

ان لا يثق بعقيدة قديمة مهما اجمع عليها الناس لاحتمال ان تكون باطلة ، فهو بالضرورة غير مسئول عن الوصول الى نتيجة معينة ، وانما يسأل عن اعتقاد ما آداه اليه الدليل .

ولا يفوتنا ان تلفت النظر الى ان الغزالي نبه في عدة مواطن من كتبه الى انه يجب على المعلم ان يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء ، وحض المرشد على الاقتصار مع العامة على المتداول المألوف . ومعنى هذا ان الشك وان كان سبيل اليقين ، الا انه لا يستعمل الا بمقدار . وهذا المنهج يبين لنا ان الغزالي يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية ، وينفر من كل ما يقربها من الانحلال . فللعلماء ان يشكوا وأن يختلفوا ، ولكن عليهم ان يجنبوا العامة مواطن الشك والخلاف ، ومن هنا نفهم كيف يرى ان الاجابة على بعض الاسئلة حرام . وسنعود الى هذا البحث عند الموازنة بينه وبين الفلاسفة المحدثين .

علم الفقه

ولقد بلغ من اقرب الغزالي في التصوف ان جعل الفقه من علوم الدنيا ، والحق الفقهاء بعلماء الدنيا . وانت تعلم قيمة الدنيا عنده !

ولكن ليس الفقه هو معرفة القوانين التي يساس بها الناس ؟
ليكن كذلك ! اذا ما قيمة هؤلاء الناس ؟ اليس الله اخرج آدم من التراب ، واخرج ذريته من سلالة من طين ، ومن ماء دافق ، فاخرجهم من الاصلاب الى الارحام ، ومنها الى الدنيا ثم الى القبر ، ثم الى العرض ، ثم الى الجنة او النار ؟ واذا كان هذا مبدأهم ، وهذه غايتهم ، وكانت الدنيا زادهم ، فما قيمة الفقه ، وما هي اقدار الفقهاء ؟ اليسوا يفصلون في خصومات لو عدلنا ما احتجنا الى ان يفصلوا فيها ، ولما كان لهم قيمة في هذا الوجود ؟

هذا هو منطق الغزالي !

والحمد لله الذي رحم الشرق وأهله من علم الفقه ، ومن عليهم
بالقوانين الأجنبية التي يقدم اليها اصحابها آيات التقديس ، عند
الشروق وعند الغروب !

الفقه لا قيمة له في نظر الغزالي ، لانه يتعلق بسياسة هؤلاء
الناس المناكيد الذين اضطرونا بشرهم الى الفقه والفقهاء ، والذين
لو عدلوا لما احتجنا الى قاض ولا الى فقيه !

صدقت يا مولانا الأستاذ ! ولكن اسمح لنا بأن نذكرك بأن النبي
كان فقيها ، وكانت شريعته فقه ، وهل الفقه شيء آخر غير قواعد
الفصل في الخصومات ؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تحتقر لأجلها الفقه والتشريع ؟
اتركوا الدنيا لأصحابها يا جماعة الصوفية ! اتركوا الدنيا
للمسلمين فان الله لم يبعث محمدا الا ليتمكن المؤمنين في الأرض ،
ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين .

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالي وقف في جوهره على علماء
المكاشفة .

وما هو علم المكاشفة ؟

هو علم لا نعرفه ، ولكن يقال ان سوء الخاتمة معد لمن ليس له
منه نصيب ! !

ويقال ان أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ، وتسليمه
لأهله ! ويقال كذلك ان أقل عقوبة من ينكره الا يدوق منه شيئا !

وما هي غاية هذا العلم ؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات
النامات !

وإنا لا أدرى سبب هذه الشهوة الغريبة التي تحمل علماء الدين
على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عميت قلوبهم حتى
اندفعوا يذكرّون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن يتورّع عنه
المؤمنون !

يطمع الغزالي في معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله عين
الجهل ، ونفس الضلال ! ويطمع كذلك في معرفة صفاته النامات ،
وهو الذي بلغ به الأدب مع الأشاعرة والمعتزلة إلى الاختلاف في
صفات الله ، وفي كلامه ، وفي أفعاله ، وفي رؤيته بالأبصار يوم القيامة
إلى غير ذلك من المباحث التي لا يقدم عليها غير عمى القلوب !

والظاهر أن الغزالي ومن على شاكلته لم يشهدوا المعركة القائمة
بين الهدى والضلال ، ولم يروا يوما واحدا كيف تتصاول العقول ؛
فإن البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه ، وإنما سبيل المؤمنين
أن يتأملوا ما يحيط بهم من جلال الوجود ، وأن يبحثوا في المراد من
أن الله سخر لهم ما في الأرض جميعا ، فإنه ليس للعاقل أن يترك
الانتفاع بما تلمس يده ، وترى عينه ، ليغيب في مجاهل من الظنون ،
يسمّيها سفها علم التوحيد .

وما أسفت لشيء أسفى لانحصار الأفكار الإسلامية « في معرفة
معنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ومعنى لفظ
الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور
للك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكو
السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين
ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة
والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى لقاء الله
والنظر إلى وجهه ، ومعنى القرب منه والنزول في جواره ، ومعنى

حصول السعادة بمرافقة الملا الأعلى ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء » .

فان هذه فى الأصل أكثرها رموز ظنها المسلمون حقائق ، فوضعوا لها ضروبا من التفسير والتأويل .

والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا : فهم يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود ، وفى مقدور المرء أن يجد مئات الكتب فى وصف الحشر والنشر ، ولا يجد كتابا واحدا فى تحديد المراد من الخلافة الإسلامية ، التى قامت بسببها آلاف الفتن ، ومئات الحروب .

والغزالي من الذين ساعدوا على بقاء هذه العماية ، فقد وضع الكتب المطولة فى كيفية العزلة ، ولما أراد أن ينتقد الشئون الاجتماعية وضع كتابه « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، فكان آية فى السخف والاضطراب .

والى من تقاضى هؤلاء العلماء ؟

تقاضىهم الى القرآن : ففيه الدعوة الى الملك ، والى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وهل الاخلاق شىء آخر غير حرب الدلة والقلّة : فى الأفراد ، والجماعات ، والشعوب ؟

نقول هذا ونطالب كل مسلم بالحدس البالغ عند مطالعة كتب المتقدمين ، فان أكثرهم لم يعرف السياسة ، ولا شئون الاجتماع . والا فإين قرر المؤلفات فى الأمور السياسية والاجتماعية ؟ وإين البصر النافذ الى أعماق الحياة الدولية ؟ بل وإين الخبرة بالسريرة الانسانية ، التى حسيوها لا تعدو طلاب الجنة من الزهاد ، والعباد ، من كل راض بالفقر ، قانع بالسؤال ؟

الفصل الثاني

الفنون

أباح الغزالي أن يحب المرء لجماله ، فكان ذلك منه اعترافاً بالخاصة الفنية ، التي يدرك بها الأديب ، والفنان ، والفيلسوف ، ما في العالم من دقائق الجمال .

وتجد في حقوق الأخوة من هذا الكتاب أن الغزالي ضرب المتل بالنظر إلى العواكه ، والأنوار ، والأرهار ، والتعاح المشرب بالحمرة ، وإلى الماء الجاري والخضرة . ومعنى هذا أن الإنسان متى جاز له ، وبعبارة أدق ، متى أمكن له أن يحب هذه الأشياء بلانية سيئة ، فقد يمكن له أن يحب الرجل الجميل بلا غرض خبيث .

وشاهدنا في هذه الفكرة ، هو أن الغزالي يؤمن بأن للروح شيئاً من السلطان ، وله بعض الحقوق . فانه متى جاز أن يحب الرجل لجماله ، والجمال في الرجال كثير ، فقد أصبح للروح الحق في أن يتمتع بكل جميل ، متى استطاع أن يتحلى بالمغاف . وهذا فيما أرى اعتراف من الغزالي بضرورة وجود الفنون الجميلة لتتمتع بها الأرواح ، كما يجب أن يملأ الخزائن والأسواق ، لتجد الأجسام ما نحتاجه من الغذاء .

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالي حين تكلم عن التشريع: فقد قرر أنه يسير بغريق من العلماء إلى أن النفس تموت ؛ فأننا سألناه : هل يقضى ذلك بتحريم التشريع ؟ وبالطبع ليس عند الغزالي جواب على هذا السؤال !

وكذلك نسأله الآن : يجوز أن يحب الشخص الجميل ، ولكننا لاحظنا أن مثل هذا الحب قد يجر إلى الفسوق . فهل يحرم لذلك حب كل شخص جميل ؟ وليس للغزالي أيضاً على هذا السؤال جواب !

وانما قدمنا هذه الكلمة امام رايه عن الفنون الجميلة ، ليعرف
المقارئ انه لم يذكر اصلا من اصول الاخلاق يبرر رايه في الفنون
فقد اتى عليها جميعا بالنقد والتجريح ، وان لم ينكر « أن الله سرا
في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح » واحسب انه لو تروى قليلا
لعرف أن الله سرا فيما تحدث الفنون ، من أنواع الفتون .

الشعر

رأى الغزالي في الشعر رأى عجيب ، فهو يرى أن مقصوده
الملح والدم والتشبيب . وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير
ذلك فهو مقصود حميد ، وان قبح في بعض الأحوال .

وقد رأى الغزالي نفسه امام امر واقع : وهو أن الشعر أنشد
بين يدي رسول الله ، ولكنه اعتذر عن هذا بأن المبالغات التي وردت
في ذلك الشعر ، لم يقصد بها الكذب ، وانما هي من صنعة الشعر .
فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التي وضعها الشعراء .

ولا ادل على هوان الشعر في نظر الغزالي من قوله : « وأما الشعر
فكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، الا أن التجرد له مدموم »
ص ١٣١ ج ٣ .

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنان ، الذي يريد أن يمثل
عصره ، وقطره ، في صحيفة التاريخ . ومتى كان من المدموم أن
يتجرد المرء للشعر ، فمعنى ذلك أن الشعر لا يصح أن تخصص له
حياة فرد من الأفراد . وان جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا
ما حسن منه ، لأنه ككل كلام : حسنه حسن ، وقبيحه قبيح !

ولا يفوتنا أن نلفت النظر الى أن الأحاديث التي رواها الغزالي
في ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة ، بدليل ما روى الغزالي
نفسه ، مما يناقضها كل المناقضة ، فكان عليه أن يراعى تلك
الظروف .

الموسيقى

تكلم الغزالي عن الموسيقى باحتياط يدل على مبلغ رايه في هذا الفن الجميل ، وهو يقسم الاصوات الموزونة باعتبار مخرجها الى ثلاثة : ما يخرج من جماد : كصوت الزامير ، والاوتار ، وضرب القضيب ، والطبل وغيره . وما يخرج من حنجرة حيوان ، وذلك الحيوان اما انسان ، او غيره : كصوت العنادل ، والقمارى ، وذوات السجع من الطيور . ثم يحكم بان سماع هذه الاصوات يستحيل ان يحرم كونها طيبة او موزونة ، اذ لا ذاهب الى تحريم صوت العنديل ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغى ان يقاس على صوت العنديل الاصوات الخارجة من سائر الاجسام باختيار الادمى كالذى يخرج من حلقه ، او من القضيب والطبل والدف .

الى هنا لاتجد شيئا يغض من الموسيقى باعتبار انها فن جميل ، ولكنك تجده يقول بعد ذلك : « ولا يستثنى من هذا الا الملاهي والاوتار والمراير التى ورد الشرع بالمنع منها ، لا للدتها ، اذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتن به الانسان ، وانما حرمت لعل ثلاث : احداها انها تدعو الى شرب الخمر ، فان اللذة الحاصلة بها انما تتم بالخمر ، ومثل هذه العلة حرم قليل الخمر . الثانية : انها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الاتس بالشرب ، فهي سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق اذا قوى فهو سبب الاقدام . والثالثة : الاجتماع عليها ، وهو من عادة اهل الفسق » ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحريم الزمار العراقي ، والاوتار كلها ، كالعود والصنج والرباب والبربط (١) وكل ما يذكر بالخمر ، ومجالس الخمر ، فاما ما عدا ذلك فهو علم الاباحة ، قياسا على اصوات الطيور .

(١) البربط . كجمر هو العود مغرب بربط اى صدر الاوز لانه يشبهه *

وما نريد أن نناقش هذا الرأي ، ولا أن نبحث في الأساس الذى وضع عليه ، ولكن ننبه على أن فيه دلالة على دقته في وقاية الجبهة الخلقية ، وحرصه على أن يظل المرء بعيدا عن مثار الشهوات .

ونضيف الى ما سلف من رايه في الموسيقى ، أنه عد بيع الملاهى من المنكرات التى يجب كسرها ، حين تكلم عن منكرات الاسواق ، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع القيان ، وعد اعطاء المال للمطرب اسرافا يجب على المحتسب انكاره ، ولم يعين مهنة المطرب ، فصلح لأن يطلق على المغنى والموسيقار . ونص في ص ٣٢٧ ج ٣ احياء على أن أصوات المزامير والأوتار اذا ارتفعت في دار بحيث جاوزت الحيطان ، فلمن سمعها دخول الدار وكسر الملاهى ، ونص كذلك على أن للمرء الحق في أن يكسر العود اذا رأى شخصا يحمله .

ومما سلف نعلم أنه لا يحرم الموسيقى مرة واحدة ، ولكننا نعرف أنه لا يقيم لها وزنا باعتبار أنها فن جميل ، فمن الواضح أن لكل فن سيئات وحسنات ، وأن السيئات لا تفل قيمة في نظر الفنان من الحسنات ، اذ كان جمال الفنون يرجع أكثره الى ما تحدثت في عشاقها من الجرأة على المؤلف ، وهو ما يخافه الغزالي ويتوقاه .

وهذا الذى يوجب كسر العود ، لا يبيح فيما نظن أن تبني دار للموسيقى ، وأن يختار للتعليم فيها حسان الأصوات ، وصباح الوجوه !

ولا ننسى أنه لم يحرم الأوتار والمزامير الا لأنها تذكر بمجالس الخمر ، فلندكر أنه يحرم من أجل الخمر هذه اللذة الروحية البديعة . فهي عنده « أم الخبائث » ، وأصل المنكرات .

الفناء

لم يفرد الغزالي بابا للموسيقى ، ولا للفناء ، وانما تأخذ رايه

في هذين الفنين مما جاء في كتاب السماع والوجد ، وهو الكتاب الثامن من ربيع المعاديات من كتب الاحياء .

وأول ما يلتفت النظر الى رايه في الغناء ، موافقته للشافعي في ان الرجل الذي يتخذ الغناء صناعة لا تجوز شهادته ، لان الغناء فيما يرون من اللهو المكروه ، الذي يشبه الباطل ، ومن اتخذه صناعة كان منسوباً الى السفاهة ، وسقوط المروءة !

ومتى كان الغزالي يرى أن محترف الغناء مردود الشهادة ، فإنه لا يرى للغناء قيمة ، وما ظنك بغير يهبط بصاحبه الى الحضيض ، ويستقل عدالته بين الناس .

ونحن متى ذكرنا كلمة فن ، فانا نذكر بجانبها ما يجب على الأفراد والحكومات من تشجيعه ، لان الفن ليس ضرباً من اللهو المكروه ، وانما هو لهو مفروض ، تحتاجه الأرواح والأجسام ، فيما تحتاجه من صنوف الغذاء ، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالي . بل المغرم بالسماع والمفرط فيه هو أيضاً سفيه ، ترد شهادته ، لان المواظبة على اللهو جناية !

والفن — كما تعلم — لا حياة له الا بوجود الهواة ، فلن يحسن الغناء الا اذا وجد هواة الانشاد والسماع ، ومتى كان الاكثار من الانشاد ، والافراط في السماع ، جناية ، وكان من واجب كل فرد ان يحارب هذه الجناية ما استطاع ، فقد أصبح ما نسميه فن الغناء ، عرضة للانقراض ، ولا عبرة بما يقوله الغزالي من اباحته اذا لم يوجد موجب التحريم ، فحسب الفن ضياعاً أن تقول انه مباح .

غناء المرأة والأمرد الجميل

ولا يجيز الغزالي أن يسمع الغناء من امرأة لا يحل النظر اليها ، وتخشى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الأمرد الذي تخشى فتنته .

وقد توقع الغزالي أن يسأل سائل : هل ذلك حرام في كل حال ، حسماً للبَّاب ، أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في حق من يخاف العنت ؟ وأجاب بأن هذه المسألة يجاذبها أصلان أحدهما أن الخلوة بالأجنبية ، والنظر إلى وجهها حرام ، سواء أخيفت الفتنة أو لم تخف ، لأنها مظنة الفتنة على الجملة . والثاني إن النظر إلى الصبيان مباح ما لم تخف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الحسم ، بل يتبع فيه الحال ، وصوت المرأة دأثر بين هذين الأصلين ، فان قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق ، إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هجانها ، ولا تدعو إلى سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة الماسة كتحرريك السماع ، بل هو أشد ، وصوت المرأة في غير الغناء ليس بمودة ، ولكن للغناء مريد أثر في تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات ، فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر الحريم عليه (١) .

موضوع الغناء

ولا مانع فيما يرى الغزالي من أن يكون في الغناء تشبيب بوصف الخدود ، والأصداغ ، وحسن القد ، والقامة ، وسائر أوصاف النساء ، بشرط أن لا يكون في امرأة معينة ، فانه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة إلا أن تكون زوجته أو جاريته ، فان نزل على أجنبية أقهر من العصاة . ويحرم على من كان في غرة الشباب أن يستمع ، إذا كانت الشهوة غالبية عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يقلب (٢) .

(١) انظر ص ٢٨٠ ج ٢ احياء .

ما يباح من الغناء

- واليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الفزالي :
- ١ - عشاء الحجيج ، اذ يدورون في البلاد بالطلل والشاهين والغناء .
 - ٢ - ما يعتاده الفزاة لتحريض الناس على الغزو .
 - ٣ - الزجريات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء ، وهذا مباح في كل قتال مباح ، ومندوب في كل قتال مندوب ، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الدمة .
 - ٤ - اصوات النياحة في البكاء على الخطايا والذنوب .
 - ٥ - السماع في أوقات السرور المباح ، كالغناء في أيام العيد ، وفي العرس ، وفي وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن ، وعند قدوم الغائب .
 - ٦ - سماع العشاق ، تحريكا للشوق ، وتهيجا للعشق ، وتسليه للنفس . وهذا حلال ان كان المشتاق اليه ممن يباح وصاله ، كمن يعشق زوجته ، أو سريته ، فيصغى الى غنائها لتضاعف لذته ، وكذلك ان غضبت منه جاريته ، أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب ، فله أن يحرك بالسماع شوقه ، وأن يستثير به رجاء لذة الوصال ، فان باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعد ، اذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء .
 - ٧ - سماع من أحب الله وعشقه واشتاق الى لقاءه ، فلا ينظر الى شيء الا رآه فيه . وقد أطل الفزالي في هذه النقطة ، ثم قرر ان اطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة ، لأن كل محبوب سواه يتصور له نظير ، اما في الوجود واما

فى الامكان ، اما جمال الله فلا ثانى له ، لا فى الامكان ، ولا فى
الوجود (١) .

آداب السماع

لا يعتد الغزالى بسماع من يطرب للفناء بمجرد الطبع ؟
ولاحظ له فى السماع الا استلذاذ الالحان والنعيمات ، اذا كان هذا
الدوق لا يتطلب لوجود غير الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ
بالاصوات الطيبة . ويسخر الغزالى ممن ينزلون المسموع على
حسب شهواتهم ، ومقتضى احوالهم ، ويرى حالتهم هذه اخس
من ان تفرد بالبيان .

ويعتد فقط بمن ينزل ما يسمعه على احوال نفسه فى معاملته
الله ، او من عزب عن فهم ، ما سوى الله حتى عزب عن نفسه
واحوالها ، ومعاملاتها ، وكان كاللدهوش القانص فى عين الشهود ،
الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتى قطعن ايديهن فى مشاهدة
جمال يوسف عليه السلام (٢) .

واذا سمع احد هؤلاء « الموفقين » ذكر عتاب او خطاب ،
او قبول او رد ، او وصل او هجر ، او قرب او بعد ، او تلهف
على فائت ، او تعطش الى منتظر ، او شوق الى ورد ، او طمع
او باس ، او وحشة او انس او وفاء بالوعد ، او نقض للعهد ،
او خوف من مراق ، او فرح بوصول ، او ذكر ملاحظة الحبيب ،
ومدافعة الرقيب ، الى غير ذلك مما تشتمل عليه الاشعار ، فلا بد
ان يوافق بعضها حالا فى نفسه ، فيورى زناد قلبه .

ولهؤلاء وضع الغزالى الآداب الآتية :

١. - مراعاة الزمان ، والمكان ، والاخوان : فليس له ان يسمع
وقت شغل القلب ولا فى شارع مطروق ، او موضع كربه ،
او مع قوم من اهل الدنيا يحتاج الى مراقبتهم ، ومراعاتهم .

٢ - أن يكون مصفيا الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات الى الجوانب ، منحرفا عن النظر الى وجوه المستمعين ، وما يظهر عليهم من احوال الوجد مشغولا بنفسه ومراعاة قلبه .

٣ - أن لا يغوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط نفسه . ولكن أن رقص أو تبكى بغير قصد الرياء فهو مباح .

٤ - موافقة الغيام في القيام ، اذ قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختياره من غير وجد ، وقامت له الجماعة ، فلا بد من الموافقة ، رعاية لأدب الصحبة .

وهناك أدب خامس وضعه الغزالي خاصا بالشيخ المرشد وهو ملاحظة المريدين ، فينبغي أن لا يسمع في حضورهم ، اذا كان فيهم من لم يدرك من الطريق الا الاعمال الظاهرة ، ولم يكن له ذوق السماع ، أو رزق ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالذات الى الشهوات ، والصفات البشرية ، أو كسرت شهوته ، وأمنت غائلته ، وانفتحت بصيرته ، واستولى على قلبه حب الله ، ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ، ولم يعرف أسماء الله وصفاته ، وما يجوز عليه وما يستحيل .

الرقص

وقد رأينا الغزالي يبيع الرقص ، ولكن أى رقص ؟ هو ما يجرى في مجالس الفناء الذى قصد به الحث على العمل للأخرة ، وما نحسبه بمنع أن يرقص الرجل في مجلس تغنيه فيه امراته أو جاريته . وعلى كل حال فلنسجل هنا أن الرقص والفناء يجب فيما يرى الغزالي أن يكونا بعيدين كل البعد عن مشار الشهوات ، وما نريد أن نفصل أثر هذا التخرج في حياة

الأمم ، وإنما تنبه فقط على أن الغزالي يضع حول الشهوة أسوارا من حديد ، ولا تخرج الأخلاق عنده إلا رجلا مملوئين بالحيطة ، قد بغضت إليهم بسمات الحياة ، وقلما ينتج هؤلاء في ميدان الحياة لأن التنسك باب الخمود .

النقش والتصوير

أراد الغزالي أن يدم (الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات) بسبب ما تورث من الكبر ، فلم يزد على أن قال : « وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما (١) » .

أذن الصناعات دون العلوم ، وإنما كان الطب والحساب الخ من الصناعات ، لأن العلم فيما يرى الغزالي هو ما يوصل إلى الآخرة ، وما يخص الدين فهو صناعة . وقد نص على أن من الصناعات ما هي مهمه . ومنها ما يستعنى عنها لرجوعها إلى طلب التنعم والتزين في الدنيا من أجل ذلك حض المسلم على أن يشتغل بصناعة مهمة ، ليكون بغيامه بها كافيا عن المسلمين مهما في الدين . ثم قال :

« وليجتنب صناعة النقش والصيافة ، وتشبيد البنيان بالجص ، وجميع ما تزحرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين (٢) » .

وقد عد بيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الأطفال منكرا تجب إزالته ، والصور التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام تجب إزالتها على كل من يدخله أن قدر ، فإن كان الموضع مرتفعا لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا

(١) انظر من ٣٥٢ ج ٢ .

(٢) ٧٦ ج ٢ .

لضرورة ، وليعدل الى حمام آخر ، فان مشاهدته المنكر غير جائزة . ويكفيه ان يشوه وجهها ويبطل به صورتها (١) .

« ولا يمنع من صور الاشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان ... وأما الصور التي على النمازق ، والزرابى المفروشة ، فليس منكرا . وكذا على الأطباق والفصاع ، لا الاواني المتخذة على شكل الصور ، فقد تكون رءوس بعض الجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه (٢) » .

على ان كلمة الغزالي لم تكن واحدة فيما يخص البناء والزخرفة ، فقد رايت كيف بين أن تشييد البنيان ، وكل ما تزخرف به الدنيا كرهه ذوو الدين ، ومع هذا قال بعد : « وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام ، لان التزيين من الأغراض الصحيحة . ولم تزل المساجد تزين وتنفش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه الا مجرد الزينة فكذا الدور » .

واذا كان التزيين من الأغراض الصحيحة ، فكيف تكون صناعته غير مهمة (٣) .

خلاصة هذا البحث

نرى مما سلف ان النقش مكروه وانه لا يجوز تصوير الحيوان ولا حرج في استعمال النمازق والزرابى المصورة ، بصورة

(١) وضع لفيلة الأستاذ الشيخ الجار بهامش نسخته ما يأتى : لعل الشيخ محمد صائم الدهر الذى شوه وجه أبى الهول وغيره من الصور وجملاً أكبر همه ذلك قد سرى اليه هذا الفكر من احبائه الغزالي وقد رايت في بعلبك صوراً في الرواق المحمول على الإعمدة وهى مشوهة ، وقيل لنا انها شوهت من أيام دخول العرب ذلك البلد . وشاهدت كذلك صورة البغل وهو معبود أهل ذلك البلد قديماً مشوهة ، وهو وجه انسان بصورة اسد .

(٢) كأتى بالرجل ينظر الى الشيء نظرة علمية فيقفى بعدم الضرر فيه اذا كان على حد الاعتدال وينظر اليه نظرة صوفية فيكرهه وهذا منشأ الاضطراب الظاهري لان الكلام في موضوعين .

عبد الوهاب النجار

الحيوانات طبعاً ، لأنها موضوع الاستثناء . ويظهر أنها استثنيت
لأن الصور فيها ستصير ممتنة بالاستعمال ، وعلى الاخص
الاطباق والقصاص . وهو يتبع في هذا الرأي جمهور الفقهاء ، إذ
يرون التصوير داعياً الى الوثنية . وقد نهوا عما يذكر بعبادة
الأوثان .

ولا يفوتنا في ختام هذا الباب أن ننبه أجمالاً على أن الغزالي
لم يعن بتربية الأذواق وهذه الآراء التي قدمناها له في العنوان
الجميلة تدل على اهماله هذا الجانب من بناء الاخلاق .

ومما يلاحظ أنه يغشى بعض النظرات الدقيقة في كتبه بأخبار
وأقاصيص تحمل القارئ حملاً على ازدياد الزهادة ، والإخلاص
الى الخمول . وأكرر ما قلته غير مرة من أن في هذا الشطط
شيئاً من الحق ، وهو الحرص البالغ على السلامة . والنفرة
المطلقة من مواطن الشبهات . ولهذا القصد محاسن . وفيه
كذلك كثير من العيوب .

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسمى الغزالي رياضة الصبيان ، وكانت كلمة صبي في
التعابير القديمة تقابل كلمة طفل في التعبير الحديث ، وكذلك كلمة
صبية تقابل كلمة طفلة أو فتاة ، فكانوا يقولون دخلت عليه صبية
حسنة كما نقول فتاة حسنة .

وقد سبقت كلمتنا في ورثة الاخلاق عن فطرة الأطفال ، فلا
نعود إليها الآن ، وإنما نذكر المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية
الطفل ، وهو تفصيل ما أجيلاه في واجبات الآباء .

فيجب على الوالد فيما يرى :

- ١ - أن يؤدب ابنه ، ويهديه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ؛ ويحفظه من قرناء السوء .
- ٢ - وأن لا يحجب آية الزينة ، وأسباب الرفاهية ، لئلا يتعود التنعم ؛ فيعسر تقويمه بعد ذلك .
- ٣ - وإذا رأى فيه مخائل التمييز ، وبوادر الحياء ، فليعلم أن عقله مشرق ، وأن تنمية هذه الباكورة من عزم الأمور ، وأحسن ما تنمى به أن تستعان في تأديبه وتهديبه .
- ٤ - وليعلم أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام ، فينبغى أن يؤدب في ذلك ، وأن يعود أحد الطعام يمينه ، والبدء باسم الله ، والأخذ مما يليه ، وعدم السبق في الطعام ، وعدم تحديق النظر إليه ، وإلى من يأكل معه ، والتهمل في الأكل واجادة المضغ ، وعدم الموالاة بين اللحم ، والحلر من تلمح اليد والثوب ، وتعود الخبز القفار في بعض الأحيان حتى لا يرى الادم حتما (١) .
- ٥ - وينبغي أن يقبح عنده كثرة الأكل ، بدم الطفل الشره ومدح المتأدب القليل الأكل ، وأن يحجب إليه الابتار بالطعام وقلة المبالاة به ، والقناعة بأى طعام كان .
- ٦ - وأن يحجب إليه الأبيض من الثياب ، دون الملون ، وأن يفهمه أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال ، وإنما هو عادة النساء والمخنثين ، وأن يحفظه من مخالطة الاطفال الذين هودوا بالتنعم ولبس الثياب الفاخرة ، ومن مخالطة كل من يسمع منه ما يرغب في ذلك .

(١) الخبز القفار هو الذي لا ادم فيه .

- ٧ - وإذا ظهر من الطفل فعل محمود فينبغي أن يجازى عليه بما يفرح به ، وأن يمدح أمام الناس ، فإن أساء مرة فيجمل بالوالد أن يتغافل عنه ، ولا يكشفه ، ولا سيما إذا تستر الطفل واجتهد في الاخفاء ، فإن مكاشفته قد تزيد جسارة وعدم مبالاة . فإن عاد فليعاقب سرا وليحذر عواقب الافتضاح ، وليكن العتب قليلا لئلا يهون على الطفل وقع الملام ، وسماع التآنيب ، وركوب القبيح .
- ٨ - وينبغي أن يمنع من النوم نهارا ، فإن ذلك يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ، ولكن يمنع الفراش الوثير ، لتصلب أعضاؤه ويعود خشونه الفراش .
- ٩ - ويجب أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فإنه لا يخفى إلا ما يعتفد أنه قبيح .
- ١٠ - وليعود المني في بعض التهسا ، لتجنب اليه الحركة والرياضة .
- ١١ - ولينمنع من كشف أطرافه .
- ١٢ - وينبغي أن يمنع من الافتحار على أقرانه بشيء مما يملكه والده ، أو بشيء من مطاعمه وملابسه ، أو لوحه ودواته ، بل يعود التواضع ، وطيب الحديث .
- ١٣ - ويجب أن يعلم أن الرفعة في الاعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لؤم ، وخسة ، ودناءة ، أن كان غنيا ، ودله ، ومهانة ، أن كان فقيرا : فلا يصح أن يأخذ شيئا من الأطفال .
- ١٤ - وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ، ولا يمتخط ، ولا ينشأ بحضرة غيره ، ولا يستدير سواه ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يسند رأسه وساعده ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام .

٢٥ - ويجب أن يمنع القسم ، صادقا كان أو كاذبا ، لئلا يعتاد ذلك .

١٦ - وليعود أن لا يتكلم الا مجيبا ، ويقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع اذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويفسح له المكان .

١٧ - ويجب أن يمنع من لقو الكلام ، ومن اللعن ، والسب .

١٨ - وليعود الصبر اذا ضربه المعلم ، فلا يكثر الصراخ ، ولا يستشفع بأحد ، وليذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصراخ دأب المعاليك والنساء .

١٩ - وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب باللعب الجميل يستريح به : فان منع الصبي من اللعب يميئ قلبه ، ويخمد ذكائه ، ويحمله على الاحتيال للخلاص من الكتاب .

٢٠ - وينبغي أن يعلم طاعة والدبه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سنا من قريب واجنبي .

٢١ - واذا بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويعلم كل ما يحتاج اليه من امور الشرع .

٢٢ - وليخوف من السرقة ، واكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والفحش ، وكل ما يغلب على الاطفال .

هذه خلاصة ما وضع الغزالي في التربية . وما انكر أن فيها شيئا من التكرار وارى أنه في مثل هذه المواطن جميل .

وانما لاحظ أنه لا معنى لان تحجب الى الطفل التياب البيض

بنوع خاص . ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة إذ ذاك (١) .
والإحظ كذلك أنه لا يصح أن يعلم الصبي أن هناك فئة مخشّة
تميل إلى اللون من الثياب ، فقد يحسن أن لا تطرق أذان الصبي
بمثل هذا الهجر ، بل يجب أن لا يعرف أن الطفل قد يتخلق
بأخلاق النساء . ولا أفهم معنى أن يدعى الطفل إلى عدم أرخاء
يديه ، بل يضمهما إلى صدره حين يمشي ! ويضحكني أن ينصح
الطفل بالصبر والاحتمال حين يضربه المعلم ، وكان أولى أن ينهى
عن هذه العادة الشنعاء ، التي لا تجمل بالمعلمين (٢) .

ومن أدق ما تنبه له الغزالي تلميحه إلى أن يعلم الطفل
أسرار البلوغ حين يصل إليه .

والغزالي يسمي المدرسة بالكتب والكتاب ، وليس له في هذا
الباب غير برنامج ضئيل ، يمثل ما كان يفهم في عصره من المدارس
الأولية والابتدائية . ويتلخص هذا البرنامج (في تعلم القرآن ،
وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار) ولم تخطر له الرياضة ببال .
ولم يتعرض للغة الأدب ، ولكنه به على أن الطفل يجب أن « يحفظ
من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة
الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الطرف ورقة الطبع ، فان ذلك
يفرس في نفوس الصبيان بدور الفساد » .

والغزالي يعد الطفل في الواقع لأن يكون جندياً في الحاة إذ
يحرم عليه كل مظاهر اللين . وإن كان لم يفصل عن غايته الأخلاقية

(١) يرى الأستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيض فيه دعوة
صمنية إلى النظافة لأن الثوب الأبيض يعل عن نفسه حين يحتاج إلى التطهير .

(٢) وضع فضيلة الأستاذ الشيخ النجار بهامش النسخة التي كانت بيده
ما يأتي : أن أطلع أهل السودان فيهم هذه العادة على أنها فائهم يعودون عدم
البكاء والصراخ مهما حل بالواحد منهم من الألم . ومن فعل ذلك غير . بل كثيراً
ما تجد الطفل يأخذ جمره النار فيضعها على ساعده ويذهب إلى أمه ليربها صبره
على بقاء النار تأكل في جسمه دون إظهار تألم قائلاً : ابشري يا أمي أنا أحر البنات .

حين أوصى بأن يعلم أن الموت منتظره في كل ساعة ، وأن العاقل من تزود من دنياه لأخراه . وأرى هذه الوصية حطره ، إذ تصعب العزم في نفوس الأحياء ، ولا نترك للإسلام نفسه جيشاً يحفظ به ثغره ، أو يفتح به قطر ، وما كان الإسلام إلا دين الغزاة الفاتحين .

تربية البنات

لم يتكلم الغزالي عن تربية البنات ، وكان عليه أن يهين نصيباً من عسيه . ولكن الرجل تأثر بعصره ، وبقومه ، فقد كانت تربية البنات مما لا يهتم به الأولون .

وسنرى حين نتكلم عن حقوق المرأة أنه يحسم على الرجل أن يعلم زوجه ، فإن لم يعرف ناب عنها في سؤال العلماء ، ولكنك ستري كذلك أن هذا العلم الواجب على الرجل لامرأته لا يزيد من معرفة الفرائض من صلاة وصيام . ومعرفة العرائض هذه لا تفيد المرأة شيئاً في الحياة المنزلية ، وهي العبء الملغى على عواقب النساء .

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية الطفل ، ورأيت ما خطه لبرنامج التدريس في المكاتب الصغرى ، ولأن نفعت على رأيه في تربية الطلاب ، ونريد بهم من روا الاسنادة من العلم بعد انقضاء ذلك الأمد القصير ، الذي أعد للأطفال .

والغزالي كان أستاذاً في المدرسة النظامية ، وكان يختلف إلى دوسه ثلثمائة من التلاميذ ، وكان له بالطبع رملاء ، وكان لهؤلاء للزملاء تلاميذ ، فمن البعيد أن لا تكون هذه الحركة الأهمه البحث

في التعليم من حيث أنه مهنة ، وهو قد ابتلى بمهنة التعليم !

ولقد تكلم الغزالي عن التعليم ، وأطال في كتاب الاحياء ، وتكلم عنه في الاملاء على ما اشكل من الاحياء ، وذكر انه (افضل من سائر الحرف والصناعات) وبين وجه هذه الافصالية بالتفضيل .

وكل ما تقيد به هذه الحرفة فيما يرى انه يجب ان يقصد بها وجه الله ، ويقول في ذلك : (وانما المعلم هو المفيد للحياة الاخرية الدائمة ، اعنى معلم علوم الآخرة ، او علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فاما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك نموذ بالله منه (١) .

وعلوم الدنيا هي في رايه ما يشمل الطب والحساب والهندسة وتقويم البلدان ، وعلى الجملة كل ما عدا العلم بالله وملائسته وكتبه ورسله واليوم الآخر . فالذى يعلم علوم الدنيا هذه هو بلا شك محترف . ويكفى ان يعصد بتعليمه الآخرة ، ليكون من الناجين .

اضف الى هذا أن الغزالي - لورعه - يشبه العلم بالمال ، فكما ان لصاحب المال حال استفادة ، وحال ادخار ، وحال انفاق على نفسه ، وحال بدل لغيره ، وهو اشرف احواله ، فكذلك لصاحب العلم حال طلب ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصير ، وهو اشرف الاحوال .

والتبصير هو التعليم . والغزالي لا ينكر ان يكون المرء معلما ، فقد كان من المعلمين ، وانما يطالب المعلم بتعليم علوم الآخرة . او علوم الدنيا على قصد الآخرة ، وسترى فيما يذكر من آداب

المعلم عدم أخذ الاجر ، ولكن هذا لا يقدح في نظره الى التعليم كمهنة ؛
فانه يكفي ان يدرك أن التعليم صناعة ، تحتل الاجادة ، كما
تحتل القصور ، وانه يجب على المعلم كيت وكيت ، ليحسن أداء
مهمته ، على وجه نافع مقبول .

وقد وضع للمعلم الآداب الآتية :

١ - أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنبه . ويقول
الغزالي في توابع هذه البنية : وكما ان حق أبناء الرجل
الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك
حق تلامذه الرجل الواحد ، التحاب والتواد .

٢ - أن يقتدى بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ،
فلا يطلب أجرا على افادة العلم ، ولا يفصد به جزاء ولا
شكورا .

٣ - أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من
التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي
قبل الفراغ من العلم الجلى .

٤ - أن يزرع المتعلم عن سوء الاخلاق ، بطريق التلميح والرحمة
لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ،
ويورث الجراة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على
الاصرار .

٥ - أن لا يقبح في نفس المتعلم التلوم التي وراء علمه : فليس
لمعلم اللغة أن يقبح في نفس المتعلم علم الفقه مثلا ، بل
ينبغي ان يوسع عليه طريق التمسك في غيره . وان كان
متكفلا بعدة علوم فينبغي ان يراعى التدرج في ترقية
المتعلم من رتبة الى رتبة .

٦ - أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، ولا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله .

٧ - أن يلقى للمتعليم القاصر الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا الجلى تدقيقا يدخره عنه .

٨ - أن يعمل بعلمه : فلا يكذب قوله فعله . وهذا الأدب الأخير غير خاص بالمعلمين ، ولكنهم أحوج الناس إليه وأولاهم به ، إذ كانوا مرشدين . ومن حسن السياسة على الأقل أن يعمل المرشد بما يقول .

٩ - أن يجمل نفسه كي يعظم في نفوس طلبته فلا يستصغروه ، ولم يذكر الصراحي هذا في آداب المعلم . ولكن ذكره استطرادا في باب النظافة حيث قال . « كان رسول الله مأمورا بالدعوى ، وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا تردريه نفوسهم . ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستصغره عيونهم . وهذا الفصد واجب على كل عالم تصدى للدعوة الخلق الى الله : وهو أن يرمى من طاهره ما لا يوجب برة الناس عنه » .

١٠ - أن ينظر في نية المتعلم : فان راها حسنة علمه ، وان راها سيئة اعرض عنه . فلا يجوز فيما يرى الفزالي أن نعلم من يرى في أقواله ، أو أفعاله ، أو مطعمه ، أو ملبسه ، أو مسكنه ، ما يدل على فساد بيته ، وسوء قصده . ولا يكفي فيما يرى الفزالي أن يقول المعلم : انما أريد نشر العلم ، وللمتعلم بعد ذلك الخيار ، ان شاء أحسن وان شاء أساء ، بل يشبهه بمن يهب سيفا لفاطع الطريق ، ثم يقول : انما أريد السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وان أعينه على الجهاد ، فان استعمل السيف في الأذى فهو وحده المسئول .

ووبما كان يحسن بالفرائض أن ينصح المعلم ببلل الجهد في غزو
الفرائض السيئة التي يراها في تلميذه ، فاما الضن عليه بالعلم فهو
فيما أرى هروب من الواجب ، وعمل سلبى لا يفنى ولا يفيد .

الفصل الخامس آداب المتعلمين

وعلى المتعلم ما يأتى من الواجبات :

- ١ - أن يعدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومدموم الأوصاف .
- ٢ - أن يقلل علاقته من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن
فانه مهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق .
- ٣ - أن يلزم نصيحة المعلم اذعان المريض الجاهل للطبيب
المشفق الحاذق .
- ٤ - أن يحترز في مبدأ أمره عن الاصغاء الى اختلاف الناس فان
ذلك يحير ذهنه ويفتر رايه ، بل عليه أن يتقن أولا طريقة
أستاذه ، ثم يصفى بعد ذلك الى الشبه والمذاهب .
- ٥ - أن لا يدع فنا من الفنون المحمودة الا وينظر فيه نظرا يطلع
به على مفسده وغايته ، ثم ان ساعده العمر طلب التبحر
فيه ، والا اشتغل بالاهم واستوفاه ، وتطرف من البقية .
- ٦ - أن لا يخوض في فن من الفنون دفعة ، بل يراعى الترتيب .
- ٧ - أن لا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فان العلوم
مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق الى بعض . وهذه
الطريقة فيما أرى انما تصلح في الفنون التي كان يعرفها
الفزالى اذ ذاك ، فمن الواضح أن الفقه مثلا طريق للاصول ،
ولكن هل يصح لدينا الآن أن المنطق طريق الحساب ، أو أن
النحو طريق الجغرافيا ، ووصف الشعوب ؟

٨ - ان يعرف ان شرف العلم انما يرجع الى شرف الثمرة أو قوة الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالي اشرف من علم الطب ، لأن ثمرة الأول السعادة الآخروية ، وثمره الثانى السعادة الدنيوية والآخرة خير من الاولى . وعلم الحساب اشرف من علم النجوم لقوة ادلته . وعلم الطب اشرف من علم الحساب لأن الثمرة أولى من قوة الدليل .

وربما كان يحسن أن يتببه الغزالي الى ان للحساب ثمرة لا نقل شأننا عن وثاقة دليله ، ولكن عذره أنه عاش فى عصر قد غاب عن انسانيته أنه خلق لتعمير الوجود .

الباب العاشر
في الحقوق والواجبات

تمهيد

الحق هو ما لك ، والواجب هو ما عليك . فتقول : من حقى ان اتعلم ، ومن واجبى ان اعمل بما اعلم .

ولكن الغزالي يضع كلمة حق موضع كلمة واجب . وربما استغنى عنهما جميعا بكلمة ادب .

وقد فصل الغزالي حقوق المرء نحو نفسه ، ونحو ربه ، ونحو أخيه ، ونحو جاره ، ونحو والديه ، ونحو ابنائه ، وبين آداب التاجر ، والصانع ، والمسافر ، وكاد يستوعب ما للمرء ، وما عليه .

ونحن ذاكرون خلاصة تمثل وجهة نظره فى الحقوق والواجبات ليعرف القارئ اتجاه الفكر الاسلامى فى ذلك الحين .

واجب المرء نحو نفسه

يجب على المرء فيما يرى الغزالي أن يجتهد في أن لا يراه مولاه حيث نهاه ، وأن لا يفقده حيث أمره ، ولن يفدر على ذلك إلا بتوزيع أوقاته ، وترتيب أوراده ، من صباحه الى مساءه .

ويحسن فيما يرى الغزالي أن يستيفظ المرء قبل طلوع الفجر ، وأن يكون أول ما يجري على لسانه ذكر الله ، وأن لا يترك السواك فانه مطهرة للغم ، ومرضاه للرب ، ومسخته للشيطان .

ولا يفوتنا أن نقرر أن عناية الغزالي بالحث على ما تدعو اليه الشريعة الاسلامية من الوضوء والغسل وما اليهما من أنواع الطهارة ، انما هو دعوة صريحة الى الحياة . فان الاسلام بعرضه الوضوء عند كل صلاة ، والغسل عند الاحتلام والوقاع ، انما يرفع من الناس آصار البطالة والخمول .

ولا يعلم الا الله ما كانت تصل اليه حالة الشرق لو لم ينتشر فيه الاسلام ، فانه يعرض على أهله ما فات أكثرهم من سلامة الدوق ، اذ لا يعرفون للنظافة قيمة ، ولا يقيمون للطهارة وزنا ، حتى لنجد من العلماء من ينص على أن نية النظافة تقلل من قيمة الوضوء ، لان الطهارة في نظرهم عبادة آلية ، لا تتعلق بها الأفراض، وسبحان من وهب العقول !!

غير أننا لا نوافق الغزالي فيما ذكر من آداب النوم ، اذ يحض المرء على أن ينام على يمينه كما يضطجع الميت في لحده ، وأن يتذكر أن النوم مثل الموت ، واليقظة مثل البعث ولعل الله يقبض روحه في ليلته ، وأن ينام على طهارة ، وأن تكون وصيته مكتوبة تحت يأسه .. الخ .

وما كنت لأوافق الفزالي على ذلك ، لأنه يجب إقصاء فكرة الموت عن الأحياء فان التفكير في الموت مدعاة الى الزهادة والجمود وهو كذلك نقص في العزائم ، وخمود في القرائح .

وهناك سبل أخرى غير الموت للحض على الطيبات ، فلماذا لا نزين الخير للناس ، ببيان ما يفعل الخير في رفعة الأقدار ، وسمو النفوس ؟

وقد فصل الفزالي آداب المرء نحو نفسه في أكثر كتبه في الأخلاق . ولا عيب عبه غير الأفراد في بحير الدنيا ، وهو عيب فظيع ، فان الدنيا أجل وأعظم مما يتصور هو وأمثاله ممن يرون الموت من جملة الأرزاق ! وهل كان الله عانا يوم خلق هذه الدنيا الجميلة ، التي رميتم عشاقها بالآثم والفسوق ؟

— ٢ —

واجب المرء نحو اخوانه في الدين

وضع الفزالي عده آداب للرجل مع أخيه في الدين ، بعضها لخاص بكيفية المعاملة ، والآخر خاص بتنقية النفس من الضغائن وجرء منها يتعلق بتربية المرء على كف الأذى وإسداء المعروف .

ويخطر بالبال هذا السؤال : ألا يرى الفزالي وجودا لفسير المسلم ؟ وإلا فما رأيه في معاملة من ليسوا بمسلمين ؟

وفي جواب هذا السؤال نذكر ما جاء في إحدى فتاويه (١) من أن الدمي كالمسلم فيما يرجع الى الإيذاء . لأن الشرع خصم دمههم وأموالهم . فيفهم من هذا أن الدمي والمسلم يعاملان معاملة تكاد تكون واحدة ، وان لم ينص على ذلك في الأحياء .

(١) انظر من ١٥ ج ١ من شرح الزبيدي .

والى القارىء خلاصة ما على المسلم لأخيه من الواجبات :

- ١ - أن لا يؤذى احدا منهم بفعل أو قول .
- ٢ - أن يتواضع لكل منهم ، ولا يتكبر عليه .
- ٣ - أن لا يزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام ، مهما غضب عليه .
- ٤ - أن يحسن الى كل من قدر على الاحسان اليه منهم ، بلا تميل .
- ٥ - أن لا يدخل على احد منهم الا باذنه ، بل يستأذن ثلاثا فان لم يؤذن له انصرف .
- ٦ - أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعامل كل امرئ بحسب طريقته ، فانه ان اراد لقاء الجاهل بالعلم ، والامى بالفقه ، والعيبى بالبيان ، آذى وتآذى .
- ٧ - أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان .
- ٨ - أن يكون مع الكافة مستبشرا طلق الوجه رقيقا .
- ٩ - أن لا يعد مسلما بومد الا ويفى به .
- ١٠ - أن ينصف الناس من نفسه ، فلا يعاملهم الا كما يحب أن يعاملوه .
- ١١ - أن يزيد فى توقير من تدل هيئته واثابه على علو منزلته .
- ١٢ - أن يصلح ذات البين مهما وجد الى ذلك سبيلا .
- ١٣ - أن يستر عورات المسلمين كلهم . وقد استشهد الغزالي بهذا الحديث البدع : (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه الا تفتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته) .
- ١٤ - أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين الى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر .

- ١٥ - أن يصون عرض أخيه المسلم ، ونفسه ، وماله ، عن ظلم غيره ، مهما قدر . ويرد عنه ، ويناضل دونه ، وينصره ، قياما بأخوة الاسلام .
- ١٦ - أن يتقى مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن وللاستتھام عن الغيبة .
- ١٧ - أن يجامل أخاه ويواسيه اذا نلى بشر .
- ١٨ - أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالفقراء والمساكين .
- ويرى القارئ في هذه الحقوق شيئا من التكرار . وهذا أيضا يمثل وجهة الغزالي في الأخلاق : فهو كثير الحذر ، شديد الحيطة ، ولا يزال بالمعنى يردده في كتبه ، بل في الكتاب الواحد حتى يرسخ في نفس المستفيد .

— ٣ —

حقوق الجوار

ويرى الغزالي أن الجوار يفتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الاسلام ، فيستحق الجار المسلم ، ما يستحقه المسلم وزيادة ، ويرى قوله عليه السلام : (الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم : فله حق الجوار ، وحق الاسلام ، وحق الرحم . واما الذي له حقان فالجار المسلم : له حق الجوار ، وحق الاسلام ؛ واما الجار الذي له حق واحد فالجار المشرك) .

ويقول تعليقا على هذا الحديث : فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار !

وقد وضع للجار ما يأتي من الواجبات :

- ١ - أن يبدأ جاره بالسلام .
- ٢ - وأن لا يطيل معه الكلام .

- ٣ - وأن لا يكثر عنه السؤال . ولا يتبعه النظر فيما يحمل إلى داره .
- ٤ - وأن يعود في المرض .
- ٥ - وأن يعزيه في المصيبة ، و يقيم معه في العزاء .
- ٦ - وأن يهنئه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه .
- ٧ - وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاما .
- ٨ - وأن لا يطلع من السطح على عوراته ، بل يستر ما ينكشف له .
- ٩ - وأن لا يضايقه بوضع الجذع على جداره .
- ١٠ - وأن لا يصب الماء في ميزابه ، ولا يطرح التراب في غنائه .
- ١١ - وأن لا بضيق طريقه إلى الدار .
- ١٢ - وأن يتعشيه في صرته إذا نابتة نائبة .
- ١٣ - وأن لا يغفل عن ملاحظة داره في غيبته .
- ١٤ - وأن يقض بصره عن حرمة ، ولا يديم النظر إلى خادمته .
- ١٥ - وأن يتلطف لولده في كلمته .
- ١٦ - وأن يرشده إلى ما يجله من أمر دينه ودنياه .

يقول الغزالي : هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها للمسلمين ، ولم يستثن المشرك في جملة هذه الحقوق ، ولكنك رأيت أنه خص الذميين بهذه المساواة ، إذ كان إيذاء الحربى عنده غير حرام .

- ٤ -

حقوق الأقارب

ثبت حق المشرك بالجوار . وكذلك يثبت حقه بالقرابة . و يروى الغزالي في هذا أن اسماء بنت أبي بكر قالت : « قدمت على أمي فقلت يا رسول الله : ان أمي قدمت على وهي مشركة ، أفأصلها ؟ قال نعم . وفي رواية : أفأعطيها ؟ قال : نعم ، صليها » .

ومن الواضح أن القريب المسلم أو الجار يشبّه له فوق حقّ
القربانة ما يتبّت بأخوة الاسلام وبالجوار من الحقوق .

— ٥ —

حقوق الوالدين

يقول الغزالي : كيفية القيام بحق الوالدين تعرف مما ذكرنا
في حق الاخوة ، فان هذه الرابطة أكد من الاخوة ، بل أكثر العلماء
على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات ، وإن لم تجب في الحرام
المحض ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضاء الوالدين حنم .

ويرى الغزالي أن ليس للإنسان أن يبادر بالحج وهو فرض
الآبادن والديّه ، لأن المبادره نقل . وكذلك ليس له أن يخرج لطلب
العلم إلا باذنهما ، ويستثنى علم الفرائض من الصلاة والصوم إذا لم
يكن في البلد من يعلمه . وليته عمم هذا الحكم في جميع العلوم
الضرورية في الحياة .

وينقل الغزالي عن رسول الله أن لزوم الوالدة أفضل من الجهاد
وهو يقدم الوالدة في البر على الوالد .

— ٦ —

حقوق الإبناء

يجب على الوالد :

- ١ - أن يسمي ابنه اسماً حسناً .
- ٢ - وأن يؤدبه إذا بلغ ست سنين ، فإذا بلغ تسع سنين عزّ
فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضربه على الصلاة ، فإذا
بلغ ست عشرة سنة زوجه .
- ٣ - وأن يعينه على برّه ، فلا يحمله على العقوق بسوء عمله .

- ٤ - وأن يسوى بين أولاده .
 • وأن ييلا بالاناث اذا حمل لأولاده طرفه من السوق .

- ٧ -

واجب التاجر

وعلى التاجر فيما يرى الغزالي ما يأتي من الواجبات :

- ١ - ان لا يحتكر ، فيدخر الطعام ينتظر به غلاء الاسعار وهذا مطرد في اجناس الاقوات . اما ما ليس بقوت ، ولا هو معين على القوت كالادوية ، والعقاقير ، والزعفران وامثاله ، فلا يتعدى النهى اليه وان كان مطعوما . واما ما يعين على القوت كاللحم والعواكه وما يسد مسد القوت في بعض الاحيان وان كان لا يمكن المداومة عليه ففيه نظر . ومن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجري مجراه ؛ على أن احتكار الاطعمة جائز اذا استغنى الناس عنها ولم يخش من احتكارها قحط . وبقدر درجات الاضرار تفاوت درجات الكراهة والتحريم .
- وكان على الغزالي ان يبين حكم احتكار الادوية اذا وجد وباء ، أو انتشر مرض من الأمراض . فقد تصبح الادوية اهم من الاطعمة ، ويمسى احتكارها من عظام الامور (١) .
- ٢ - أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها .
- ٣ - أن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا .
- ٤ - أن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئا .
- ٥ - أن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه .

(١) ليس بمستعص على الانسان ان يفهم ذلك من كلام الغزالي . اذ هو يدبر كلامه على محور واحد هو الرق بالاناس ورفع الحرج عنهم وعدم اربابهم بما يكون فيه مشقة عليهم .

عبد الوهاب النجار

٦ - أن لا يروج الزيف من الدراهم أثناء النقد ، اذ يستضر به
المعامل ان لم يعرف ، وان عرف فسروجه على غيره . وهكذا
دوايك ، ومن هنا وجب على التاجر تعلم النقد ، لا ليستقصى
لنفسه فحسب ، ولكن لئلا يسلم الى مسلم زيفا وهو لا يدري
فيكون آثما بتقصيره في تعلم ذلك العلم .

٧ - أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة ، فاما اصل
المغابنة فمأذون فيه ، لأن البيع للريح ، ولا يمكن الا بغبن ما ،
ولكن يرامى فيه التقريب .

٨ - ان يحسن نيته في ابتداء التجارة . فينوى بها الاستعفاف
من السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية الأولاد .

٩ - أن يقصد القيام في تجارته او صنعته غرض من فروض
الكفايات ، فان الصناعات والتجارات لو تركت لهلك اكثر
الناس .

١٠ - أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، بأن يكون
أول داخل في السوق وآخر خارج منه ، وبأن يركب البحر
في التجارة ، ففي الخبر « لا يركب البحر الا بحج أو عمرة
أو غزو » .

هكذا يرى الفزالي . وهذه منه نزمة صوفية لا تأتلف
مع واجب الرجل الاخلاقي في الحياة الاجتماعية . فللتاجر
أن يكون أول داخل في السوق وآخر خارج منه ، بل عليه
ذلك ، وعليه أن يركب البحر في التجارة ، وأن يسلك الى
الريح كل سبيل . والحج والعمرة ، والغزو ، كل أولئك من
وسائل الحياة . ولكن اكثر الناس لا يفقهون .

١١ - أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواضع الشبهات ،
ومظان الريب ، ولا ينظر الى الفتاوى ، بل يستفتي قلبه .
واذا حملت اليه سلعة وابه امرها سأل عنها حتى يعرف
والا أكل الشبهة .

١٢- أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه
ويعد جوابه ليوم الحساب والعقاب .

١٣- أن يقبل من يستقبله ، فإنه لا يستقبل الا متندم مستضي
بالبيع ، ولا ينبغي أن يكون سبب استضرار أخيه .

١٤- أن يخص في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو في
الحال عازم على الا يطالبهم ان لم يظهر لهم ميسرة .

١٥- أن يحسن في استيفاء الثمن ، وسائر الديون ، فيتسامح
مرة ، ويمهل مرة ، ويحط البعض مرة .

وبعد سرد هذه الآداب ، لا يفوتنا أن ننوه بعناية الغزالي بصالح
الهيئة الاجتماعية ، فإن التاجر الذي يتأدب بهذه الآداب تسمى
تجارته ولا شك ربها عاما للناس ، ويصبح خادما لأهل بلده من
حيث لا يعلمون .

هذا وجه الجمال في هذه الآداب التي خص بها التاجر وما انكر
أن فيها جانباً من الضعف بائق التاجر بكثير من التكاليف الظاهرة ،
والمستورة ، في حين أنه يجب تمرينه على المخاطرة في سبيل الحياة ،
ولكن الغزالي لا يعدل بالسلامة شيئاً والسعيد عنده من نجا بدينه ،
وان خسر دنياه .

— ٨ —

آداب المسافر

وضع الغزالي فصولا مطولة عن السفر ، وفوائده ، وآفاته ،
وعده نوعاً من الحركة والمحافظة . وبين الباحث عليه من هرب
أو طلب ، وأطال في ذلك وأجاد .

نحن نذكر هنا طائفة مما وضع للمسافر من الآداب :

١ - أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، وأعداد النفقة لمن تلزمه
تفقتة ، ويرد ما عنده من الودائع ، ولا يأخذ لزيادته إلا الحلال
الطيب ، وليأخذ قدر ما يوسع به على رفقائه .

٢ - أن يختار رفيقا ، فلا يخرج وحده ، وليكن رفيقه من أهل
الدين ، فإن المرء على دين خليله .

٣ - أن يودع رفقاء الحضر ، والأهل ، والأصدقاء .

٤ - أن يرحل من المنزل بكرة فان الخير في البكور .

٥ - أن يجعل أكثر سيره بالليل ، فان الأرض تطوى بالليل
ما لا تطوى بالنهار .

٦ - أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشى منفردا خارج القافلة ، فربما
ينقطع ، أو يفتال ، وأن يتحفظ عند النوم بالليل .

٧ - أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق ، ولا يضربها في
وجهها ، وأن يروحها بالنزول عنها غدوة وعشية .

٨ - أن يحمل معه مرآة ، ومكحلة ومفراضا ، ومسواكا ومشطا ،
وقارورة ، وركوة ، وحبلًا .

٩ - أن ينوى في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ، ويجتهد في أن
يسمع من كل واحد كلمة ، أو أدبا ينتفع به .

١٠ - أن لا يزيد على ثلاثة أيام في زيارة أخ له ، وإذا زار أحدا
أسألته في سفره ، فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة .

١١ - أن يرجع من سفره إذا رأى في نفسه نقصانا عما كان عليه في
الحضر .

واجب أن ينتبه القارئ الى دقة هذا الأدب الأخير .

حقوق المرأة

لا يرى الفزالي ان المرأة تساوى الرجل ، بل يرى أن الرجل سيد المرأة . ويقول فيمن اطاع زوجه ، وملكها نفسه « انه عكس القضية . واطاع الشيطان لما قال : « ولامرنهم فليقرن خلق الله » . اذ حق الرجل أن يكون متبوعا لا تابعا . وقد سمي الله « الرجال قوامون على النساء » ، وسمى الزوج سيدا فقال : « وألفيا سيدها لدى الباب » . فاذا انقلب السيد مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا (١) .

ولم يقتصر الفزالي على ذلك ، بل حكم على طبيعة المرأة حكما أقسى من الصخر ، فقد قال في معرض الحديث عن ادب النساء (والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل) واستدل بحديث لا أعلم مبعاه من الصحة ، وهو قوله عليه السلام : (مثل المرأة الصالحة كمثل العراب الأعصم بين مائة غراب) .
واليك جملة ما وضع الفزالي للمرأة من الحقوق :

أولا - على الرجل أن يحسن الخلق معها ، وأن يتحمل الأذى منها ، ترحما عليها لعصور عقلها . ويقول الفزالي : « وأعلم انه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيسها وغضبها » .

(١) ان النساء يقلبن عليهن الزاح المبصى . فليس يثأرن بالتاليه من الامور ويحملن من الهفوة الصغيرة أمرا خطيرا ويصيرن الحجة من مخالفتهم قبة وبينهن ملائ الشقاق على أوهم أسامي . وهذا أمر لا يعرفه الا مجرب ممارس لاحوال الزوجات وبخاصة من كان لهن في البيت نظائر ومنااسات كزوجة اخي الزوج وأخته ولحق ذلك من لم زوج . وهكذا فهناك الشقاق الدائم والخصام الذي لا ينقضي . ولا دوام لذلك سوى أن يكون الزوج قاهر الحكم ، نافذ الكلمة ، مطاع الأمر ، فاذا تصدق أو وهن فلا انتضاء لشقاء البيت .

عبد الوهاب النجار

ثانيا - أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبية ، والمزاح ، والملاعبة ، فهي التي تطيب قلوب النساء . ويقول الغزالي : « وقد كان رسول الله يمزح معهن ، وينزل الى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق » وهذا تأكيد لرأيه في طبيعة المرأة .

ثالثا - الاعتدال في الغيرة ، فلا يتغافل الرجل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها ، ولا يبالغ في اساءة الظن ، والتعننت وتجسس البواطن .

رابعا - الاعتدال في النفقة ، فلا ينبغي أن يقتصر عليها في الإنفاق ، ولا ينبغي أن يسرف ، ولا ينبغي ترك الحلوى بالكلية ، وينبغي أن يأمر الرجل أهله بالتصدق ببقايا الطعام ، وما يفسد لو ترك . وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير اذن الزوج . ولا ينبغي أن يستأثر الرجل عن أهله بماكول طيب ، فإن ذلك ينافي المعاشرة بالمعروف .

خامسا - على الرجل أن يعلم زوجه أحكام الصلاة ، فإن لم يعرف ناب عنها في سؤال العلماء ، وليس لها أن تخرج لطلب العلم ما دام الزوج لم يقصر في تعليمها الفرائض - فإن قصر فلها الخروج للاستفادة ، بل عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها . ومتى تعلمت الفرائض فليس لها أن تخرج لتعلم فضل الا برضاه . وللرجل الحق في أن لا يدخل عليها الرجال ، وأن يمنعها من الخروج الى المساجد والأسواق .

وهنا نلفت النظر الى أن الغزالي يقرر وبلح في تحريم خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، ولم يفرق بين العلماء وغير العلماء ، والمرأة المعجوز فقط هي التي يجوز لها عنده زيارة المساجد وان خالف ذلك بعض الشيء ما كان على عهد رسول الله . ويكاد يجزم بأن النبي لو شاهد أهل عصره لشدد في التضييق على المرأة .

سادساً - إذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل ، فإذا خرج الى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهما ، والعادل واجب في العطاء والمبيت ، وأما في الحب والوقاع فهو تكليف بما لا يطاق .

سابعاً - إذا وقع بين الزوجين خصام ولم يلتئم أمرهما ، فإن كان من جانبهما جميعاً ، أو من الرجل فلا بد من حكيمين : أحدهما من أهله والآخر من أهلها ، لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ، وليس للمرأة أن تتولى تأديب الرجل حين يكون الخصام من جانبه لئلا تسلط فلا يقدر على اصلاحها كما يقول الغزالي .

وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ، فللرجل أن يؤدبها لا ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكن ينبغى أن يتدرج في تأديبها . فيقدم أولاً الوعظ ، والتحذير ، والتخويف ، فإن لم ينجح أولاً ظهره في المضجع ، وانفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو في البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال ، فإن لم ينجح ذلك ضربها ضرباً غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظماً ، ولا يدمى لها جسماً ، ولا يضرب وجهها فإن ذلك منهي عنه .

ثامناً - أن ينظر الرجل في حاجة امراته الى التحصين ، فإن تحصينها واجب عليه . وللغزالي في هذا الموضوع كلام كله سداجة : إذ تراه يضع طائفة من الأدعية يقوم بها الرجل عند الوقاع ، حتى ليذكر أن بعض أصحاب الحديث كان يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته ! ! وما أدري كيف تصلح هذه اللحظة للأدعية والأوراد ، وما الى ذلك مما يضعف الشهوة ، ويبعث على الخمود !

تاسعاً - الطلاق مباح ، ولكنه ايداء . ولا يباح للرجل ايداء المرأة الا بجناية من جانبها أو ضرورة من جانبه . ومهما أذت زوجها أو يذأت على أهله فهي جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . ويرى الغزالي أن حق الوالد مقدم على حق الزوجة ، فإذا كرهها الوالد لفرض غير فاسد فقد جاز

الطلاق . وان كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى بمال ، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى ، فان ذلك اجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . وعلى الزوج أن يتطلف في التعلل بتطليق زوجته من غير تعنيف واستخفاف . وان يطيب قلبها بهدية على سبيل الجبر والامناع ، وان لا يغنى سرها لا في الطلاق ولا في النكاح .

ومما سلف بيانه ، نعرف ان الغزالي لم يفكر في المرأة الا من حيث هي زوجة ، فلم يذكر شيئا عن حقوقها الاجتماعية ، ولم يتكلم عن تعليمها قبل الزواج ، ولم يسمح للمتزوجة بشيء من العلم أكثر من الفرائض ، وهي غاية بسيطة بالطبع ، لأن تعلم الفرائض لم يكن موضع خلاف . وكل هذا نتيجة محتومة لرأيه في طبيعة المرأة ، اذ كانت عنده في مقام التابع ، ومن طاعة الشيطان ان تصبح في مقام المنبوع !

— ١٠ —

الرفق بالمرأة

ولم يكتف الغزالي بهذه الحقوق في صيانة المرأة ، بل حث الرجل على الرفق بها في كل حال ، فذكر في ص ١٢١ من كتابه « التبر المسبوك » ان من احب أن يكون مشفقا على زوجته رحيمًا بها ، فليذكر أن المرأة لا تقدر أن تطلقه ، وهو قادر على طلاقها متى شاء ، وانها لا تقدر أن تأخذ شيئا بغير اذنه ، وهو قادر على ذلك ، وانها ما دامت في حباله لا تقدر على زوج سواه ، وهو قادر على أن يتزوج عليها ، وأنه لا يخافها وهي تخافه ، وانها بقنع منه بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لا يرضى بجميع أفعالها ، وانها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لآجله ، وهو لا يفارق أحدا ، وأنه يقدر أن يتسرى ويختص بالجوارى دونها ، وانها تخدمه دائما وهو

لا يخدمها ، وأنها تتلف نفسها إذا كان مريضاً وهو لا يهتم لها
ولو مات .

والأحظ أن هذه النصيحة الشعرية تفترض أن يكون الرجل
مسيطراً على المرأة ، وأنها كالحمل الوديع . ومن الواضح أن الرجل
لا يكون دائماً على هذه السيطرة ، والمرأة لن تكون دائماً بهذه
الوداعة : ولكن عذر الغزالي في إطلاق هذا النصح ، أن الغالب وقوع
هذه الحال ، فالرجل في الغالب يأمر وينهى ، والمرأة تسمع وتطيع ،
وما عدا ذلك شذوذ ، وهم لا يضعون القواعد للشواذ !

والذي لا شك فيه ، من بين ما قال الغزالي ، أن الرجل يملك
رقبة المرأة ، ويستطيع أن يتزوج من غيرها إن شاء ، ويتصرف في
البيت بلا رقيب ولا حسيب ، وأن المرأة تركت من أجله أمها وأبائها
واقاربها ، وهو لم يفارق لأجلها أحداً من العالمين .

— ١١ —

واجبات المرأة

النكاح نوع رق — كما يقول الغزالي — فالزوجة رقيقة الزوج ،
وعليها طاعته في كل ما يطلب ، مما لا معصية فيه . وإليك خلاصة
ما عليها من الواجبات :

١ - أن تكون قاعدة في قعر بيتها ، ملازمة لمفرزها ، لا يكثر صعودها
وإطلاعها على سطوح الجيران .

٢ - وأن تكون قليلة الكلام لجيرانها ، ولا تدخل عليهم إلا في حال
يوجب الدخول .

٣ - وأن تحفظ بعلمها في غيبته وحضرته ، وتطلب مسرته في جميع
أمرها ، ولا تخونه ، لا في نفسها ولا في ماله .

٤ - وأن لا تخرج من بيتها إلا بأذنه ، فإن خرجت بأذنه فمختفية

في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية ، دون الشوارع
والاسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها
بتشخصها .

٥ - وأن لا تتعرف الى صديق لبعلا في حاجاتها ، بل تنكر على
من تظن أنه يعرفها أو تعرفه .

٦ - وإذا استأذن صديق لبعلا على الباب ، وليس البعل حاضرا ،
لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام ، غيرة على نفسها وبعلا وأن
تقنع من زوجها بما رزقه الله .

٧ - وأن تقدم حقه على حقها وحقوق سائر اقاربها .

٨ - وأن تكون متأنظة في نفسها مستعدة في جميع الاحوال ليعتصم
بها ان شاء .

٩ - وأن تشفق على اولادها .

١٠ - وأن تكون قصيرة اللسان من مراجعة الزوج وسب الأولاد .

١١ - وأن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها .

١٢ - وأن لا تذهب الى الحمام ، الا اذا لم يكن في البيت مستحم ،
وكانت نفسها او مريضة ، وان دخلت فلا تدخل الا بمئزر
سابق .

— ١٢ —

آداب الكتاب

ومما يوضح بعض الجوانب في تصور الغزالي للحياة ، وحرصه
على النظام ، ما وضعه من آداب الكتاب ، فقد نتبين بذلك وجهة
نظره فيما ينبغي أن يكون عليه الكاتب من الخبرة والكفاية ، ولم
تنشأ الا لمثل ذلك كليات الصحافة في العهد الحديث .

ويرى الغزالي أن الكاتب يجب عليه :

- ١ - أن يعرف بعد الماء وقربه تحت الأرض .
 - ٢ - وأن يعرف زيادة الليل والنهار ، ونقصانهما ، في الصيف والشتاء ، ومسير الشمس ، والقمر ، والنجوم .
 - ٣ - وأن يعرف الحساب ، والهندسة ، والتقويم .
 - ٤ - وأن يعرف اختيارات الأيام ، وما يصلح للمزارعين .
 - ٥ - وأن يعرف الطب والأدوية .
 - ٦ - وأن يعرف ريح الشمال والجنوب .
 - ٧ - وأن يعرف الشعر والقوافي .
 - ٨ - وأن يكون خفيف الروح ، طيب اللقاء .
 - ٩ - وأن يحسن برى القلم وقطه ، ورفع وحطه ، كما قال !
 - ١٠ - وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه .
 - ١١ - وأن يظهر بشبا قلمه ما يجول في نفسه .
 - ١٢ - وأن يعرف ما يمد من الحروف .
 - ١٣ - وأن يبين الخط ، ويعطى كل حرف حقه .
- وقد وضع الفزالي فوق ما تقدم صورة لما يمد أو يقصر من الحروف ، ووضع طريقة لبرى الأقلام العربية ، والفارسية ، والعبرية ، وما يجب أن يكون عليه المقط من الصلابة ، وما ينبغى أن يمتاز به القرطاس من التساوى والصقالة ، وما يحسن من تشابه صورة الأحرف ، ليقرب الخط من الجمال . وكل ما تقدم هو بالطبع صورة لأراهم إذ ذاك فيما ينبغى أن يكون عليه الكتاب »

— ١٣ —

واجبات الملوك

يتكلم الفزالي كثيرا عن « الأمراء والسلاطين » ويذكر ما لهم وما عليهم ، ويجد في حقوق المحتسب من هذا الكتاب ما وضعه من

الفرق بين ارشاد العامة ، وارشاد الأمراء والسلاطين كما يقول :
وقد وضع لهم كتابا خاصا سماه « التبر المسبوك في نصيحة
الملوك » ، وهو الذى قدمه للسلطان محمد بن ملك شاه ، وقد
فصلنا رأينا فيه ، فلا تعود اليه الآن .

ويستحسن الغزالي أن يقسم الملك نهاره الى أربعة أقسام :
قسم لعبادة الله وطاعته . وقسم للنظر فى أمور السلطنة ، وانصاف
المظلومين ، والجلوس مع العلماء والعقلاء لتدبير الامور ، وسياسة
الجمهور وتنفيذ الاوامر ، والمراسيم ، والكتابة ، وانفاذ الرسل ،
وقسم للأكل والنوم ، والتزود من الدنيا ، وأخذ الحظوظ من الفرح
والسرور . وقسم للصيد ولعب الكرة والصولجان وما أشبه ذلك .

وينصح الغزالي للملك بأن لا يشتغل دائما بلعب الشطرنج
والترد ، وشرب الخمر وضرب الكرة والصيد ، لأن هذه تمنعه عن
الأعمال ، ولكل عمل وقت ، فاذا فات عاد الربح خسرتنا .

ويفهم من هذا أن الملك يجوز له شرب الخمر مع الإقلال ،
ولكن هذا يناق حرس الغزالي واصراره على حرب المسكرات ،
فلا يبعد أن تكون هذه الكلمة دست أو وقعت سهوا فى كتاب
« التبر المسبوك » .

ويجب فيما يرى الغزالي أن يراعى الملك ما يأتى من الأصواق :

١ - أن يعرف قدر الولاية وخطرها ، وما يكون من سعادته اذا
أحسن ، ومن شقائه اذا أساء .

٢ - أن لا يقنع برفع يده عن الظلم . بل يهذب غلمانه
وأصحابه وعماله ، ونوابه ، فانه عن ظلمهم مسئول .

٣ - أن لا يتكبر ، فان التكبر داعية الغضب والانتقام .

٤ - أن يفرض نفسه واحدا من الرعية فى كل ما يعرض عليه
فما لا يرضاه لنفسه لا ينبغى أن يرضاه لأحد من المسلمين

٥ - أن لا يشغل بنوافل العباداة ، ويبابه أحد من أرباب الحوائج .

٦ - أن لا يعود نفسه الاشتغال بالشهوات : من لبس الثياب الفاخرة ، واكل الأطعمة الطيبة ، بل يعود القناعة في جميع الأشياء ، فلا عدل بلا قناعة .

٧ - أن يتجنب الشدة ، والعنف كلما أمكنه الرفق .

٨ - أن يجتهد في أن ترضى عنه الرعية بموافقة الشرع .

٩ - أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع .

١٠ - أن يعين رعيه اذا وقعت في ضائقة ، وأن ينفق عليها من خرائنه ، اذا وقعت في قحط أو غلاء ، لأن في ذلك استبقاء لطاعتهم ودرءا لمطامع المحتكرين .

والغزالي لا يستنكر قسوة الملك ، اذا توفيت الرعية ، بل يدعو الى أن تهابه الرعية وهو بعيد ، ويقول : وسلطان هذا الزمان يجب أن يكون له اوفى سياسة ، وأتم هيبة ، لأن أناس هذا الزمان ليسوا كالمقدمين ، فان زماننا هذا زمان ذرى الوقاحة والسفهاء ، وأهل القساوة والشسحناء . وإذا كان السلطان والعياذ بالله بينهم ضعيفا أو كان قبيح ذى سياسة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد ، وأن الخلل يعود على الدنيا والدين « (١) » .

والسياسة في كلامه هذا معناها الحزم في شدة وقسوة ، لينتهى المفسدون .

« (١) » من « التبر المسبوك » .

حقوق الوزراء

وعلى الملك أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

الأول - إذا ظهرت منه زلة ، أو وجدت منه هفوة ، فلا يعاجله بالعقوبة .

الثاني - إذا اتسعت حاله في خدمته واستغنى ، فلا يطمع في ماله وثروته .

الثالث - إذا سألته حاجة فلا يتوقف في قضائها .

وينبغي أن يمنحه ثلاثة أشياء :

الأول - أن لا يمتنع عن رؤيته متى اختار أن يراه .

الثاني - أن لا يسمع في حقه كلام مفسد .

الثالث - أن لا يكتم عنه شيئاً من سره ، لأنه مديبر الدخل وبه عمارة الحزائن والولايات .
ويجب على الوزير :

أولاً - أن يكون محباً للخير ، مبغضاً للشر .

ثانياً - أن يعين الملك على الشفقة بالرعية إذا رأى منه الميل لذلك .

ثالثاً - أن يرشده باللطف إذا رأى منه ميلاً للظلم .

ويقول الغزالي في نصيح الملك الذي أهداه كتابه : « وينبغي أن تعلم أن دوام الملك بالوزير ، وأن دوام الدنيا بالملك ، وينبغي أن تعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير » ٧٩

وهذه الواجبات التي وضعها للملوك والوزراء تعتبر في الواقع مجملة بالنسبة لما يحتاجون إليه من شتى الأدب في

معاملة الرعية ، ومعاملة جيرانهم من الدول ، ولكن يلاحظ كذلك أنه حكم الشرع في جملة هذه الآداب ، وقد وضع الفقهاء أحكام تخص الخلفاء والولاة ، وما أحسبه يخالفهم في هذا الباب .

— ١٥ —

معاملة الملوك الظالمين

ومما يوضح جانباً من جوانب الأخلاق عند الفزالي رأيه في معاملة الظلمة من الأمراء والسلاطين ، فقد حتم على من يأخذ مالا منهم أن ينظر كيف وصل إليهم ، وأن يتأمل الصفة التي استحق بها الأخذ ، والمقدار الذي يأخذه ، وهل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق ، وبين أنه إذا لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام ، فلاخذ منه سحت محض . وأن واجب الورع يقضي بأن لا يأخذ المرء شيئاً من مال الظالم على الإطلاق ، فإن لم يستطع فيأخذ ما يتأكد أنه حلال .

أما الدخول على الظلمة وغشيان مجالسهم فهو محظور ، ولا تجوز زيارة الملك الجائر إلا بعلدين : الأول - أن يكون من جهتهم أمر الزام ، لا أمر اكرام ، ويعلم الرجل أنه أن امتنع أودى ، أو فسدت طاعة الرعية : فتجب عليه الإجابة ، لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق ، حتى لا تضطرب الولاية .

الثاني - أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواه . أو من نفسه ، بطريق الحسبة ، أو بطريق التنظيم .

وإذا دخل عليك السلطان الظالم زائراً فجواب السلام لا بد منه ، والقيام له غير حرام ، والأولى تركه إن لم يكن معه أحد ، ثم تأخذ في تعريفه ما يجهله ، وتخويفه فيما هو مستجريء عليه ، وأرشاده إلى ما هو غافل عنه .

والأفضل فيما يرى الغزالي أن يعتزلهم المرء فلا يراهم ولا يروونه ! والأمر كذلك في معاملة قضاتهم ، وعمالهم ، وخدمهم .

وللغزالي في هذا الباب تفاصيل عجيبة فيما يتعلق بما يقيمون من الفناطر والطرقات والمساجد والسقايات والأسواق . واخص ما يلاحظ أنه إنما يدعو إلى أن يخلص المرء ذمته ، مع البعد كل البعد عما يعرض إلى فتنه أو اضطراب .

— ١٦ —

حقوق الأخوة

المراد بالأخوة الصحبة والصدقة ، إلى غير ذلك مما تشتمل الألفة والألفة — كما نص الغزالي — ثمرة حسن الخلق ، إذ يوجب التحاب والتألف والتوافق ، كما أن سوء الخلق يشمر التباغض ، والتحاسد ، والتدابير .

ويجب فيما يرى الغزالي أن يكون للرجل أعداء يبغيضهم في الله ، كما يجب أن يكون له أصدقاء يحبهم في الله .

ولكن الحب في الله ، والبغض في الله غامض ، وكشف الغطاء عنه ، قسم الصحبة إلى : ما يفع بالاتفاف ، كالصحبة بسبب الجوار ، أو بسبب الإجماع في المكنب ، أو في المدرسة ، أو في السوق ، أو على باب السلطان ، أو في الأسفار ، وإلى ما ينشأ اختيار ويقصد ، وهو المراد . إذ لا نواب ولا عتاب إلا على الأفعال الاختيارية . والصحبة عبارة عن المجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة . وهذه الأمور لا يقصد بها الإنسان غيره إلا إذا أحبه . والذي يجب : أما أن يحب للهائه ، وأما أن يحب للتوصل به إلى مقصود ، وذلك المقصود : أما أن يكون مقصورا على الدنيا وحفظها . وأما أن يكون متعلقا بالآخرة . وأما أن يكون متعلقا بالله تعالى .

حب المرء لذاته وجماله

يرى الفزالي ان الانسان قد يحب لذاته ، لا لفائدة تنال منه في حال أو مآل ، بل لمجرد المجانسة ، والمناسبة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية ، ويدخل في هذا القسم ، فيما يرى ، الحب للجمال إذا لم يكن للمحب غرض خبيث ، فان الجمال مستمتع لذاته ، وإن قدر فقد أصل الشهوة . والفزالي يضرب المثل لهذا بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، وإلى الماء الجاري ، والخضرة من غير غرض مدموم إذ تحب لعينها . وهذا الحب كما يقول الفزالي لا يدخل فيه الحب لله ، بل هو حب الطبع ، وشهوة النفس ، وهو مباح لا يوصف بمدح ولا بدم .

الحب للمنافع الدنيوية

وقد يحب الانسان لينال من ذاته غير ذاته . كما يحب الرجل سلطانا لانتقامه بهاله ، أو جاهه ، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده .

والتوصل اليه - كما يقول الفزالي - ان كان مقصور الفائدة على الدنيا ، لم يكن حبه من جملة الحب في الله ، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه لا يقصد به الا الدنيا كحب التلميذ لأستاذه ، فهو أيضا خارج عن الحب لله ، فانه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فمحبوبه العلم .

وينقسم هذا الحب فيما يرى الفزالي الى مدموم ومباح ، فإن كان يقصد به التوصل لأغراض مدمومة كقهر الأقران ، وحيازة أموال اليتامى ، وظلم الرعية بولاية القضاء أو غيره ، كان الحب مدموما . وإن كان يقصد به التوصل الى مباح فهو مباح .

الحب للمنافع الآخروية

وقد يحب الإنسان ، لا لداته بل لغيره ، وذلك الغير ليس راجعا الى حظوظه في الدنيا ، بل يرجع الى حظوظه في الآخرة ، كمن يحب استأذه لأنه يتوصل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة . وهذا من جملة المحبين في الله . ومثله من أحب زوجته لأنها آلة الى مقاصد دينية ، كالتحصن والولد الصالح .

الحب لمنافع الدنيا والآخرة

ويقول الفزالي : ليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجلة حظا البتة . ويقول : اذا اجتمع في قلبه محبتان : محبة الله ، ومحبة الدنيا . فاجتمع في شخص واحد المعنيان جميعا حتى صلح لأن يتوسل به الى الله وإلى الدنيا ، فاذا أحبه لصلاحه للأميرين جميعا فهو من المحبين في الله ، كمن يحب استأذه الذي يعلمه الدين ، ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة في المال .

الدنيا خليفه بالحب

ولا يفوتنا ان ننوه بما وفق اليه الفزالي حين قال : « وعلى الجملة ، فاذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضا لحب الله تعالى ، فحب السلامة ، والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا لا كيف يكون مناقضا لحب الله ؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين احدهما اقرب من الاخرى . فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غدا ولا يحبها اليوم ؟ وإنما يحبها غدا لأن الفلأ سيصير حالا راهنة . فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة . الا ان الحظوظ العاجلة منقسمة الى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها ، وهو الذي احترز عنه الأنبياء ، وأمروا بالاحتراز عنه . والى ما لا يضاد ، وهو الذي لم يمتنعوا عنه كالنكاح الصحيح والكلأ الحلال .

« وليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض لك ترتبط به ، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل في جملة الحب لله » .

وانما نوهنا بهذه الفقرة لأنها في صوابها تناقض ما يردده الغزالي من احتقار الأغراض الدنيوية ، والإشادة بالحياة الأخروية مما يخيّل إلى القارئ أن الدنيا عنده أحقر من أن تتعلق بها الأغراض !

الحب لله

وقد يجب الإنسان في الله ولله . دون أن ينال منه شيء ، أو يتوسل به إلى امر وراء دانه . وهذا أعلى الدرجات . وهو غاية في الدقة والغموض .

ميزان الحب

بين الغزالي أن المرء قد يحب لداته ، وقد يحب لمقصود دنيوي أو آخروي ينال منه ، وقد يحب الله . لا لغرض يعصد في حال أو مآل .

ولكن ما هي دلائل ذلك الحب ، حميدا كان أو غير حميد ؟ وبأي ميزان يوزن ذلك الميل ، حتى تعرف درجات المحبين ؟

لقد وضع الغزالي ميزانا هو أدق موازين الحب في هذا الوجود ، وهو المال ! وانظر قوله : « ومن أحب ملكا أو شخصا جميلا أحب خواصه وخدمه ، وأحب من أحبه ، إلا أنه يمتحن الحب بالمعاملة بحفظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يبيع للنفس حظا إلا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى

فأترك ما أريد لما يريد

وقول من قال . . .

فما لجرح اذا أرضاكم ألم

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحفظ دون بعض ، كما تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله ، أو في ثلثه ، أو في عشره . فمقادير الأموال موازين المحبة ، اذ لا تعرف درجة المحبوب الا بمحسوب يترك في مقابلته فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يملك لنفسه شيئاً .

المال هو أذق موازين الحب في هذا الوجود ، وقد أفصح من ذلك الغزالي ، وإن سبقه قول جميل :

سليى مالى يا بئين فانمما
يبين عند المال كل ضنين

ما للأخ على أخيه

وبعد الميزان الذى وضعه الغزالي للمحبة . لا ترائنا في حاجة الى جمال ما فصله من حقوق الأخوة ، ويكفى أن نذكر أنه يرى للأخ حقاً على أخيه : في نفسه ، وماله ، وقلبه ، ولسانه ، ولكل حق من هذه الحقوق درجات تتناسب مع ما تنطوي عليه الصدور من حب قوى أو ضعيف .

حقوق الأخ المذنب

على أنى أرى من الواجب أن أذكر رأى الغزالي في حقوق الأخ المذنب ، فإنه فيما أعتقد رأى كله صواب ، وهو في الوقت نفسه كثير على عصر كالعصر الذى عاش فيه الغزالي ، فلسنا نجعل أن الناس كانوا اذ ذاك قليلي التسامح ، وأنهم كانوا مملوئين بالريب والظنون .

يرى الغزالي أن الصداقة لحمة كلحمة النسب . والقريب لا

ينبغي أن يهجر بالعصية . فقد قال تعالى للنبي في عشيرته : « فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون » ولم يقل انى برىء منكم ، مراعاة لحق العرابية ، ولحمة النسب . قال الغزالي « ومن حيث أن الأخوة عهد ينزل منزلة القرابة ، فادا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العهد . ومن الوفاء به ان لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقر الدين أشد من فقر المال . وقد أصابته حاجة لا والتمت به آفة افقر بسببها في دينه ، فينبغي أن يراقب ويراعى ، ولا يهمل ، بل لا يرال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التي ألمت به . فالأخوة عده للسائبات ، وهذا من أشد النوائب » .

وفد توقع الغزالي أن يقول قائل : ان معارف المعصية لا تجوز مؤاخاة ابتداء فنحجب مغاطعه انتهاء . لأن الحكم اذا بنت بعلة فالقياس أن يرول بزوالها . وعلة عهد الأخوة التعاون في الدين ، ولا يسمر ذلك مع مفارقة المعصية . وقد أجاب بأن المعصية انما منع ابتداء المؤاخاة مع العاسق لأنه لم تتقدم له حق ، أما الأخ المذنب فقد ثبتت أخوته ، فلا تسقط بالمعصية ، كما لا تسقط العرابية ، ومتى بقيت فقد نعى ماكان لها من الحفوف .

ويزيد الغزالي أن مصاحبة العاسق خير من مجانبته ، اذ كانت الصحبة داعية الرجوع الى الحق ، والاقلال عن الباطل ، بخلاف المجافاة ، فقد تقوى فيه الاصرار والعناد . وهذه عظة بالغة ، لأولئك الذين كلما راوا مبطلا فروا منه باسم الدين ، وهم يفرون من الواجب لو يعلمون !

— ١٧ —

البغض في الله

يقول الغزالي : « كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله فانك ان احببت انسانا لانه مطيع لله ، ومحبوب عند الله ، فان

مصاصه لا بد أن تبغضه ، لانه عاص لله وممقوت عند الله ، ومن أحب لسبب بالضرورة يبغض لضده ، ولكن البغض كما رأيت لا يوجب المجافاة .

العصيان بالاعتقاد

والمخالف لأمر الله اما ان يكون مخالفا في عقده أو في عمله ، والمخالف في العقد اما مبتدع أو كافر ، والمبتدع اما داع الى بدعته أو ساكت ، اما بعجزه أو باختياره : فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة :

الاول - الكفر والكافر ان كان محاربا فهو يستحق القتل والارقاق ، وان كان ذميا فلا يجوز ايداؤه الا بالاعراض عنه والتحقيق له .

الثاني - المبتدع الذي يدعو الى بدعته . فان كانت البدعة بحيث يكفر بها فامرهم أشد من الدمي . لانه لا يقر بجزية ، ولا يسامح بعقد ذمة . وان كان مما لا يكفر به فامرهم بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لا محالة ، ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر ، لأن شر الكافر غير متعد . اما المبتدع الذي يدعو الى البدعة فيزعم أن ما يدعو اليه حق فهو سبب لفواية الخطي وشره منع ، فالاستحباب في اظهار بغضه ، ومعاداته ، والانقطاع عنه ، وتحقيره ، والتشنيع عليه ، وتنفير الناس منه ، أشد .

الثالث - المبتدع العاصي ، الذي لا يقدر على الدعوة ، ولا يخاف الإقداء به ، فامرهم أهون . والأولى أن لا يفانح بالتغليظ والاهانة ، بل يتلطف به في النصيح ، فان قلوب العوام سريعة التغلب .

العصيان بالفعل

أما العصيان بالفعل لا بالاعتقاد فأنواعه ثلاثة :

الاول - وهو أشدها ، ما يتضرر به الناس في دنياهم ، كالظلم

والفصب . وشهادة الزور ، والغيبة . والنميمة ، وهذه معاصي شديدة ، لانها ترجع الى ابداء الخلق . واصحاب هذه المعاصي ينقسمون الى من يظلم في الدماء ، والى من يظلم في الاموال ، والى من يظلم في الاعراض ، بعضها أشد من بعض ، والاستحباب في اهانتهم ، والاعراض عنهم مؤكد جدا .

الثانى - ما يتضرر به الناس في اخراهم لا في دنياهم ، كعمل صاحب الماخور الذى يهين أسباب الفساد ويسهل طرقها على الخلق ، وهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه .

وأنا لا افهم كيف يرى الغزالي أن هذا لا يضر الناس في دنياهم (١) .

الثالث - عمل الذى يفسق في نفسه ، بشرب خمر . أو ترك واجب ، أو مقارفة محظور يخصه . والأمر فيه أخف مما سبقه ، ولكنه ان صودق وقت مباشرة العمل يجب منعه بما يمتنع به منه ، ولو بالضرب والاستخفاف .

نتيجة

ويحسن بالقارئ أن يضم الحب في الله ، والبغض في الله ، الى ما قرره الغزالي من وجوب الاحتساب ، فان ضم هذه الابواب بعضها الى بعض يعطينا صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه المسلم أو المريد أو ذو الخلق الحسن فيما يرى الغزالي .

والرجل الذى أحاطه بالحسبة ، والحب في الله ، والبغض في الله ، هو رجل يعرف ما يجب عليه للهيئة الاجتماعية ، التى تصلح بصلاح الأفراد ، فيهدب نفسه أولا ليفهم بالضبط ما له وما عليه ،

(١) لم يكن للزنا في هذه من المضار الدنيوية من الامراض الفتاكة كالزهرى ونحوه ما له اليوم فلم يرتق ينظره الى أكثر من الضرر الدنى لانه هو المائل امامه .

ثم يدعو الناس الى حفظ أموالهم وأنفسهم ؟ وينهاهم عن اقتراف ما يضر بهم وباخوانهم في الدين ، ثم يبغض بقلبه ويجوارحه من يفض من العقيدة ، او يظلم الناس . وقد فصل الغزالي ذلك كله بأسلوب بالغ التأثير ، ودعم كلامه بكثير من الآيات والأحاديث والأخبار .

— ١٨ —

آداب الزواج

يسمى الغزالي آداب الكاح ، وهو أصح في التعبير ، لأن النكاح في كتب التشريع لا يراد به الجماع ، وإنما يقصد به العقد . ولكننا قلنا آداب الزواج ، مجازاً للعرف الحديث .

وقد وضع الغزالي عدة آداب للنكاح ، تعد في الواقع ترغيباً فيه ، وهي في جملتها من الآداب العادية . ويهمنى منها أدب واحد ، أصاب الغزالي في الاهتمام به ، وهو تربية النفس بالزواج على احتمال أعباء المعاش . فقد ذكر أن الفائدة الخامسة من فوائد النكاح « هي مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى في إصلاحهن ، وإرشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لاجلهن ، والقيام بتربيته لأولاده : فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم . وإنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقوقها . والا فقد قال عليه السلام : « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » . ثم قال : « الاكلّم راع ، وكلّمك مسئول عن رعيته » وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله . ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل ثلاث : أحداها أنه

يطلب الحلال لنفسه ولغيره . وقد قال عليه السلام : « ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى في امرأته » .

ويقرر الغزالي بعد هذا أن في الصبر على الأهل رياضة للنفس ، وكسرا للفضب ، وتحسينا للخلق . ويذكرني هذا الأدب بما يكرره سيدي الاستاذ الدكتور منصور فهمي في رسائله من كلمة « غرم الحياة وغنمها » ويريد بذلك الترحيب بما في الحياة من متاعب ، في سبيل ما فيها من الطيبات . والحق أن احتمال الأهل والولد من عزائم الأمور . والشبان الذين ينفرون من الزواج ايثارا للراحة ، إنما هم جبناء ، ضعفاء ، لا يصلحون للجلاد في ميدان الحياة .

— ١٩ —

الخروج من المظالم

ونريد أن نبين رأى الغزالي فيما يجب على التائب الذي ظلم الناس . لأن في ذلك بيانا لرأيه في احترام ما يلزم المرء من مختلف الحقوق . وقد بدأ الكلام في هذا الموضوع بقوله عليه السلام : (من كانت له عند أخيه مظلمة في عرض أو مال ، فليتحللها منه من قبل أن ياتي يوم ليس هنالك دينار ولا درهم) .

مظلمة العرض

فإن كانت المظلمة متعلقة بالعرض ، فواجب على المفتاب أن يتدم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج من حق الله . ثم يستحل المفتاب ليحله ، فيخرج من مظلمته . وينبغي أن يستحلّه وهو حزين متأسف نادب على فعله . لئلا يقارف بريائه معصية جديدة .

مظلمة المال

وان كانت المظلمة في المال فعليه ان يميز الحرام ، وان ينظر في مصرفه .

فان كان الحرام معلوم المعين : من غصب ، او ودیعة ، او غیر ذلك ، فأمره سهل . وان كان متلبسا فلا يخلو أمره من ان يكون في مال هو من ذوات الامثال ، كالحبوب والنقود والادھان ، او ان يكون في اعيان متمایزة : كالعبید والدور والثياب .

فان كان في المتماثلات ، او كان شائعا في المال كله ، كمن اكتسب بتجارة يعلم انه قد كذب في بعضها بالمرابحة ، وصدق في بعضها ، او من غصب دھنا وخلطه بدهن نفسه ، وفعل ذلك في الحبوب والدرھم والدنانیر ، فلا يخلو أمره من ان يكون معلوم القدر او مجهولا . فان كان معلوم القدر : كان يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف . وان اشكل فله طریقان : أحدهما الأخذ بالیقین ، والاخر الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قال به العلماء .

وفي الاعيان المتمایزة : كالدور والعبید ، يوزع القاضي الثمن بقدر النسبة . وان كانت متفاوتة لاخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور مثلا ، وصرف الى الممتنع منه مقدار قيمة الاقل ويقدر التفاوت بالمعرف .

صرف المال الحرام

فاذا اخرج الحرام فلا يخلو أمره :

١) اما أن يكون له مالك معين ، فيجب الصرف اليه او الى وارثه . وان كان غائبا فينتظر حضوره . وان كانت له زيادة ومنفعة فلتجميع فوائده الى وقت حضوره .

(ب) وأما أن يكون للمالك غير معين ميثوس منه لا يدرى أملت عن وأرت أم لا . فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه . فان لم يعرف المالك تصدق بالمال ، وله أن ينفقه على نفسه وعلى أولاده أن كان فقيرا . ومثل ذلك ما لو تعدى الرد لكثرة الملاك ، كفلول الفنيمة ، فانه كيف يقدر على جنع الفزاة بعد تفرقهم ؟ وان قدر فكيف يفرق دينارا واحدا على ألف أو الفين .

(ج) وأما أن يكون من مال الفيء والأموال المرشدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك الى القناطر ، والمساجد ، والطرق ، وأمثال هذه الامور التي يشترك في الانتفاع بها عامة المسلمين .

مظلمة النفس

وان كانت المظلمة في النفس ، كالقتل ، فينظر في نوعه ، فان كان خطأ فليسلم الديه ، وان كان عمدا موجبا للفصاص فبالقصاص وله أن يتعرف الى ولي الدم ويحكمه في روحه ، فان شاء عفا عنه وان شاء قتله . وقد تنبه الفزالي الى أن هناك ذنوبا يجب أن تستر ، فلا يصح أن يظهر فيها الاستحلال ، لأن في اظهاره جناية جديدة . والخروج من مثل هذه المظالم يكون بالمجاهدة ، ورياضة النفس ، والاحسان الموصول الى من أساء المرء اليه ، فان في الاحسان جبرا للاساءة ، وهو كل ما يستطيعه التائب في مثل هذه الحال .

— ٢٠ —

واجب الاحتساب

الحسبة والاحتساب في عرف المسلمين عبارة عن الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر اذا ظهر فعله . لقوله تعالى :

ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، والاحتساب واجب على كل مسلم قادر ، وهو فرض كفاية ، اذا قام به واحد من المسلمين سقط عن الجميع ، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره . واذا كانت القدرة شرطا للحسبة فقد أصبحت على ذوى السلطان اوجب ، لانهم اقدر من غيرهم . ومتى أقامت الحكومة محتسبا كان عليه أن يبحث عن المنكر الظاهر ليصل الى انكاره ، والمعروف المتروك ليأمر باقامته ، وكان لكل مسلم الحق في أن يستعديه فيما يجب انكاره .

ومن الفروق بين الحسبة والقضاء ، أن المحتسب يجوز له أن يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف ، وينهى عنه من المنكر ، وان لم يحضره خصم مستعد ، وليس للقاضي أن يتعرض لذلك الا بحضور خصم يجوز له سماع الدعوى منه . وانه يجوز للمحتسب أن يستعمل القوة فيما يتعلق بالمنكرات ، وليس للقاضي غير فحص القضية بالإنابة والوقار .

ويطول بنا القول لو أردنا سرد الفروق بين الحسبة ، وأحكام القضاء ، وأحكام المظالم في الحكومات الاسلامية ، فلنكتف بهذا القدر ، تمهيدا لرأى الفزالي في شروط الاحتساب .

شروط المحتسب

ولا يجب على امرئ فيما يرى الفزالي أن يأمر بخير ، أو ينهى عن شر ، الا بالشروط الآتية :

اولا - أن يكون مكلفا . فلا يجب على الصبي أمر بمعروف ، ولا نهى عن منكر بل يجوز له ذلك ، وليس لاحد أن يمنعه .
ثانيا - أن يكون مؤمنا . ومفهوم أن الفزالي لا يعترف للجاحد بشئ حتى يصلح للارشاد .

ثالثا - أن يكون عدلا . ويناقش الفزالي هذا الشرط ، ويذكر أن الانبياء قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العزيز

هال على نسبة آدم عليه السلام الى المعصية ، وكذا جماعة من
الأنبياء ، فلو اشترطنا في الارشاد أن يكون متعاطيه معصوما عن
المعاصي لأغلق هذا الباب .

رابعاً - أن يكون ماذونا من الامام والوالى . وقد ناقش الغزالى
هذا الشرط ، ورأى أن تخصيص الاحتساب باذن الوالى بعد
أطلاقه في الأحاديث والآيات ، تحكم لا أصل له . وقرر أنه يجب
على المرء زجر المعاصي أينما رآه ، وكيفما رآه .

خامساً - أن يكون قادرا . فليس على العاجز حسيبة الا
بقليه . ولا يفغ سقوط الوجوب عند المعجز الحسى ، بل يلتحق
به ما يخاف منه مكروها يناله ، فذلك في معنى المعجز ، وكذلك اذا
لم يخف مكروها وعلم أن انكاره لا ينفع - وقد اختلفت كلمة الغزالى
في هذه النقطة ففى ص ٣٢٢ ج ٣ من الاحياء ينص على سقوط
وجوب الحسيبة حين يعلم أنها لا تفيد . وفى ص ١٥٣ ج ١ يقول
في النهى عن كشف العورة في الحمام « فاما قوله : اعلم أن ذلك لا
يقيد ولا يعمل به فهذا لا يكون عذرا ، بل لا بد من الذكر ، فلا
يفخلو قلب امرئ عن التأثير من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز
هند التلبس بالمعاصي . وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه وتغيير
نفسه عنه فلا يجوز تركه » .

وقد توقع الغزالى أن يقول قائل : ان المكروه المتوقع ما حسده
الإنسان . فان الإنسان قد يكره كلمة ، وقد يكره ضربة ، وقد يكره
إتقون لسان المحتسب عليه في حقه بالغبية ، وما من شخص يؤمن
بالمعروف الا ويتوقع منه نوع من الأذى . وقد يكون منه أن يسمي
بته الى سلطان ، أو يقدم فيه في مجلس ينضرر بقدره فيه ، فما حد
المكروه الذى يسقط الوجوب به ؟

ويجيب الغزالى بأن الحسيبة لا تسقط الا بالمكروه الظاهر كمن

يعلم انه يضرب ضربا مؤلما يتأذى به ، أو يعلم بأنه تنهب داره ،
ويخرب بيته ، وتسلب ثيابه (١) .

المنكر المنهى عنه

ولا ينهى عن شيء فيما يرى الغزالي الا بالشروط الآتية :
أولا - أن يكون منكرا ، أى محذور الوقوع في الشرع . قال
الغزالي : « وانما عدلنا من لفظ المعصية الى هذا ، لأن المنكر أعم من
المصيبة ، اذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق
خمره ويمنعه ، وكذا ان رأى مجنونا يزنى بمجنونة أو بهيمة ، فعليه
أن يمنعه . ثم قال : ولا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة
في الحمام ، والخلوة بالأجنبية ، واتباع النظر للنسوة الأجنيات ،
كل ذلك من الصغائر ويجب النهي عنه » .

ثانيا - أن يكون المنكر موجودا في الحال ، فلا حسبة على من
فرغ من شرب الخمر ، ولا على من يعلم من قرينة حاله أنه عازم على
الشرب في ليلته .

ثالثا - أن يكون المنكر ظاهرا . فكل من ستر معصية في داره
وأغلق بابها لا يجوز أن يتجسس عليه ، وقد أمرنا أن نستتر ما ستر
الله ، وننكر على من أبدى لنا صفحته .

رابعا - أن يكون المنكر معلوما بغير اجتهاد ، فكل ما هو في محل
الاجتهاد فلا حسبة فيه ، وهذا الشرط الأخير يدل على قدر الغزالي
لحرية الرأي والتفكير ، وما أحوج المصلحين الى تأمله والعمل
بمقتضاه !

صفات المرشد

ويجب أن يتصف المرشد بالعلم ، والورع ، وحسن الخلق .
أما العلم فليعلم مواقع الحسبة ، وحدودها ، ومجاريها ،
وموانعها ، ليقصر على حد الشرع . وأما الورع فليردعه عن

(١) انظر ص ٢٢٢ ج ٢ احياه .

مخالفة معلومه ، فربما يعلم أنه مسرف في الحسبة ، وزائد على الحلة المأذون فيه شرعا ، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض ، وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو أصل هذا الباب .

قال الغزالي : « فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات ، وإن فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت الحسبة أيضا منكرا لمجاوزة حد الشرع فيها » (١) .

وقد نص على أن اشتراط الورع ليس معناه أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ، وإنما يسقط اثره من القلوب بظهوره للناس .

أنواع المنكرات

قسم الغزالي المنكرات الى مكروهة ومحظورة ، وبين أن منع المكروه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام الا اذا لم يعلم الفاعل انه مكروه فيجب ذكره له ، لأن الكراهة حكم في الشرع يجب تبليغه الى من لا يعرفه ، وأن منع المحظور واجب والسكوت عليه حرام .

ثم ذكر طائفة من المنكرات التي تجرى في المساجد ، والأسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة . وآراؤه في هذا الباب مسددة ، ترجع الى الحرص على سلامة الناس في دينهم ومعاشهم ، واصلاح ذات بينهم . فمنها دعوته الى منع ما يؤدي الى تضيق الطرق واستضرار المارة ، ودعوته الى منع الملاك من تحميل الدواب ما لا تطيقه ، وهو رفق بالحيوان . ودعوته الى منع الاسراف في الطعام والبناء . والذي يتأمل ما سرده الغزالي من المنكرات يدرك مبلغ حرصه على غرس الرجولة والشرف في نفوس الأفراد والجماعات .

(١) ص ٢٢٧ ج ٢ احياه .

درجات الاحتساب

للاحتساب درجات ، وهى :

(١) التعريف (٢) ثم النهى (٣) ثم الوعظ (٤) ثم النصيح (٥) ثم السب والتعنيف (٦) ثم التغيير باليد (٧) ثم التهديد بالضرب (٨) ثم ايقاع الضرب وتحقيقه (٩) ثم شهر السلاح (١٠) ثم الاستظهار بالأعوان وجمع الجنود .

وفى الدرجة الأخيرة يقول العزالى : « وربما بسننم الفاسق أيضا بأعوانه ، ويؤدى ذلك الى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . فهذا قد ظهر الاختلاف فى احتسابه الى اذن الامام . فقال قائلون : لا يستقل احاد الرعية بذلك ، لأنه يؤدى الى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد . وقال اخرون : لا يحتاج الى الاذن ، وهو الاقبس ، لأنه جاز للأحاد الأمر بالمعروف ، وأوائل درجاته قد تجر الى ثوان وثوان ، وقد ينهى لا محالة الى التضارب ، والتضارب يدعو الى التعاون . فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه » ص ٣٣٦ ج ٣ .

ارشاد الامراء

ولا يجوز من درجات الاحتساب مع الامراء والسلطين - فيما يرى العزالى - الا الرتبان الاوليان وهما التعريف والوعظ . أما المنع بالقهر فليس لاحاد الرعية مع السلطان ، فان ذلك يحرك الفتن ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد منه من المخلود أكثر .

وأما التخشين فى القول ، كقوله : يا ظالم ، يا من لا يخاف الله ! وما يجرى مجراه ، فذلك ان كان يحرك فتنة يتعدى شرها الى غيره لم يجز ، وان كان لا يخاف الا على نفسه ، فهو جائز ، بل مندوب اليه ، ومن قتل فى هذا فهو شهيد .

الباب الحادى عشر
فى تأثير الغزالى فى عصره
وما تلاه من العصور

تمهيد

أمر الغزالي في عصره أثرا غير قليل : فشطر أهل العلم ، والولة ؟
شطرين : أحدهما ينصره ، والآخر يخذله ، وما زال الفريقان
مختصمان حتى طيرا شهرته في جميع الأفاق .

وقد رأى الغزالي في حياته من يقده ، ويقدمه على جميع
العلماء ؛ ورأى في الوقت نفسه كتبه تحرق في بعض الأقطار
الإسلامية ، رميا لها بالدموة الخفية إلى الكفر واللاحاد !

تجديده للقرن الخامس

وكان جمهور المسلمين فيما سلف يعتقد أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر الدين ، ولهم في هذه العقيدة كلام طويل ، وفيها يقول الجلال السيوطي في أرجوزته :

والشرط في ذلك أن تبض المائة وهو على حياته بين الفئدة
يشعار بالعلم إلى مقامه وينصر السنة في كلامه
وأن يكون جامعاً لكل فن وأن يعم علمه أهل الزمن
وأن يكون في حديث قدروى من أهل بيت المصطفى وقد قوى
وكونه فرداً هو المشهور قد نطق الحديث والجمهور

وهم يعتقدون أن مبعوث المائة الأولى عمر بن عبد العزيز
ومبعوث الثانية الشافعي ، والثالثة الأشعري أو ابن سريج ،
والرابعة الاسفراييني أو الصعلوكي أو الباقلاني ، ويتفقون على أن
مبعوث المائة الخامسة هو الغزالي ، ويقول السيوطي في ذلك :

والخامس الحبر هو الغزالي وعده ما فيه من جدال (١)

وأنا لا أريد الآن تحقيق هذه الفكرة ، وبيان ما تركز عليه من
أساس قوى أو ضعيف ، فهي في ذاتها فكرة سخيفة ، ونظم السيوطي
فيها اسخف ، ويكفى أن يعلم القارئ أن الغزالي بذ معاصريه ،
وأخلفهم ، حتى جاء المتأخرون فعُدوه مجدد المائة الخامسة ، وقد
يتكونون مخطئين !

(١) راجع شرح الربدي ص ٢٦ ج ١ .

المنامات والأحلام

ومما يدل على أن الغزالي شغل الناس ، واحتل أفئدتهم ، وصار موضع وساوسهم ، وهواجسهم ، وأحلامهم ، ما رأيناه لغير واحد من المنامات المتشابهة في تأييد الغزالي ، ونشر فضله .

فهذا السبكي يذكر في طبقاته أنه كان في زمانه شخص يكره الغزالي ويذمه ويعيبه في الديار المصرية ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما بجانبه ، والغزالي جالس بين يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا يتكلم في ! وإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : هاتوا الشياطين ، وأمر به فضرب لأجل الغزالي ، وقام هذا الرجل من النوم وأثر الشياطين على ظهره ، ولم يزل ، وكان يبكي ويحكيه للناس (١) .

ويذكر السبكي أيضا أن أبا الحسن بن حرزهم لما وقف على الأحياء وتامله ، قال هذا بدعة ، مخالف للسنة ، وكان شيخا مطاعا في بلاد المغرب ، فأمر باحضار كل ما فيها من نسخ الأحياء ، وطلب من السلطان أن يلزم الناس بذلك ، فكتب الى النواحي ، وشدد في ذلك ، وتوعد من يخفى شيئا منه ، فأحضر الناس ما عندهم واجتمع الفقهاء ، ونظروا فيه ، ثم أجمعوا على إحراقه يوم الجمعة وكان ذلك يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الجمعة رأى ابن حرزهم في المنام كأنه داخل من باب الجامع الذي تعود الدخول منه ، فرأى في ركن

المسجد نورا ، وإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضي الله عنهما جلوس ، والامام أبو حامد قائم وبيده الإحياء فقال يا رسول الله : هذا خصمى ! ثم جثا على ركبتيه وزحف عليهما الى أن وصل الى النبي صلى الله عليه وسلم فناوله كتاب الإحياء ، وقال : يا رسول الله انظر فيه ، فان كان بدعة مخالفنا لسنتك كما زعم ، ثبت الى الله تعالى ، وان كان شيئا تستحسنه حصل لى من بركتك ، فانصفنى من خصمى ! فنظر فيه رسول الله ورقة ورقة الى آخره ، ثم قال : ان هذا شيء حسن ، ثم ناوله أبا بكر فنظر فيه كذلك ، ثم قال : نعم ! والذي بعثك بالحق يا رسول الله انه حسن ! ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ، ثم قال كما قال أبو بكر : فأمر رسول الله بتجريد أبى الحسن بن حرزهم من نيابه : وضربه حد المفتري ، فجرد وضرب ، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط ، وقال يا رسول الله ، انما حصل ذلك منه اجتهدادا فى سنتك وتعظيما . فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما استيقظ من منامه ، وأصبح ، أعلم أصحابه بما جرى ، ومكث قريبا من الشهر مثالا من الضرب ، ثم سكن عنه الألم ، ومكث الى ان مات ، وأثر السياط على ظهره (؟ !) .

وهناك المنام الذى رأى فيه أبو الفتح الساوى أنه تلا بين يدي رسول الله قواعد العوائد الذى صنفه الغزالى ، وهو منام طويل نقله السبكي فى طباقه . وقد كنت وضعت قائمة لأمثال هذه المنامات ، ثم بدا لى أن اقتصر على ما ذكرت رقبة فى الإيجاز .

وانا لا اتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالى من أصحاب الكرامات ، كما نوه بذلك مترجموه ، كلا ! وانما اتخذها دليلا على

ما وصلت اليه منزلة الرجل في قلوب المسلمين ، فان لما يراه المرء في
 منامه صلة قوية بما يلهج به في يقظته ؛ وهؤلاء الذين جلدوا في
 منامهم ، لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالي وهم أيقاظاً
 وعلى الأخص اذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين في تلك العصور
 الخوالي من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق في عالم الأحياء ،
 وسبحان من جل عن الشريك ! .

— ٣ —

تلامذة الغزالي وأصحابه

ومما يبين عن أثر العالم في عصره ، تلامذته وأصحابه : فهم في
 علمهم ، وأدبهم ، وأثر من آثاره . وقد أثر الغزالي تأثيراً حسناً في
 جمهور كبير من تلامذته وأصحابه ، ذكرهم الزبيدي ، منهم القاضي
 أبو نصر أحمد بن عبد الله الخمقري (نسبة الى خمس قرى التي
 تعرف بسيخ رية) ولد سنة ٤٦٦ وتوفي سنة ٥٤٤ هـ ومنهم الإمام
 أبو الفتح أحمد ابن علي بن محمد بن برهان - بفنح الباء - ولد سنة
 ٤٧٦ وتوفي سنة ٥١٨ ومنهم أبو منصور محمد بن اسماعيل بن
 القاسم الطوسي توفي سنة ٤٨٦ ومنهم أبو سعيد محمد بن أسعد بن
 محمد النوقاني قتل في مشهد علي بن موسى الرضى سنة ٥٥٤ في
 واقعة النفر ومنهم أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن تومرت
 المصمودي الملقب بالمهدي صاحب دعوة سلطان المسلمين عبد المؤمن
 بن علي ملك المغرب ، دخل الشرق وتفقه على الغزالي . ومنهم أبو
 حامد محمد بن عبد الله بن محمد الجوزقاني الاسفراييني . ومنهم
 أبو سعيد محمد بن علي الجاواني الكردي حدث بكتاب « الجوامع
 العوام » للغزالي عنه . ومنهم الإمام أبو سعيد محمد بن يحيى بن
 منصور ولد سنة ٤٧٦ وهو من أشهر تلامذة الغزالي ، تفقه عليه
 وشرح كتابه « البسيط » .

وما أريد أن أطيل في هذا الباب ، وإنما أنص هنا على أن تلامذة

الغزالي أحدوا الأثر الكبير في الحياة الإسلامية ، وأكثرهم ماتوا شهداء ، وليس اشتراك العلماء في الحركات العامة ، إلا أنرا لقوتهم المعنوية ، وإيمانهم بما يدعون اليه . وأنص أيضا على أن تلامذة الغزالي لم يعرفوه غالبا إلا بمؤلف الأحياء ، فهم لم يصحبوه مؤلفاته في الفقه أو المنطق أو الأصول ، وإنما صحبوه على أنه داع إلى الله ، ومرشد لكوارم الأخلاق .

— ٤ —

مؤلفاته وفتاواه

ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالي في الحياة الإسلامية ، عناية الناس بمؤلفاته وفتاواه . فانا نجد مثلا كتابه الوجيز في الفقه وضع له نحو سبعين شرحا كما قال الزبيدي ، وقد قيل : لو كان الغزالي نبيا لكان معجزته الوجيز ! ومن شرح هذا الكتاب الفخر الرازي وأبو النشاء محمود بن أبي بكر الأرموي . والعماد أبو حماد بن يونس الأربلي وأبو الفتوح المجلي ، وأبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزويني الرافعي ، وقد اختصر النووي من شرح الرافعي كتابا سماه الروضة ، وأخرج أحاديثه ابن الملقن في سبع مجلدات ، سماه البدر المنير ، ثم اختصره في أربع مجلدات وسماه الخلاصة ، ثم لخصه في جزء ، وسماه المنتقى . ولخصه أيضا الحافظ بن حجر ، وشرح الوجيز أيضا البدر الزركشي ، والبدر ابن جماعة ، والشهاب البوصيري ، والجلال السيوطي .

ونجد أيضا كتابه « الوسيط » في الفقه ، شرحه تلميذه محمد بن يحيى النيسابوري شرحا سماه « المحيط » في ستة عشر مجلدا ، وشرحه نجم الدين أحمد بن علي بن الرفعة في ستين مجلدا وسماه « المطلب » وشرحه النجم القمولي وسماه « البحر المحيط » ، وشرحه عدد غير هؤلاء ذكرهم الزبيدي في ص ٤٣ ج ١ شرح الأحياء

وقال عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطرابلسي يمدح كتبه
الأربعة في الفقه :

هذب المذهب حبيب احسن الله خلاصه
بسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

ونجد كذلك كتابه « المستصفى » في الأصول موضع عناية
العلماء ، فقد اخصره أبو العباس أحمد بن محمد الأشييلي المتوفى
سنة ٦٥١ هـ . وشرحه أبو علي الحسن بن عبد العزيز الفهرى
المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، وعليه تعليقات لسليمان بن داود الغزنائى
المتوفى سنة ٨٣٢ هـ .

ونجد كتابه « تهافت الفلاسفة » قد أحدث رجة عنيفة بين
فلاسفة المسلمين ، فقام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ، وألف كتابا
في نقده ، ومقام ابن رشد في عالم الفلسفة غير مجهول . ثم جاء
خوجه زاده المتوفى سنة ٨٩٣ هـ ، وألف كتابا في التحكيم بين الغزالي
وابن رشد بإشارة السلطان محمد العاج العثماني . ووضع علام
الدين بن علي الطوسي كتابا في المحاكمة بين الغزالي وابن رشد سماه
« الدخيرة » ومنه نسخه بدار الكتب المصرية نمرة ١٧٤ .

ونجد كتابه « قواعد العقائد » شرحه ركن الدين الاسترأبادي
ومحمد أمين بن صدر الدين الشروانى .

ونجد العلماء عنوا بتحقيق نسبة (المضمون به على غير أهله)
الى الغزالي . وممن بحث ذلك السبكي وصاحب « تحفه الارشاد »
وصنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالكى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، كتابا
في رده ، وهذا مظهر لعناية العلماء بنفى ما دس عليه .

وليست عناية العلماء بفتاواه بأقل من عنايتهم بكتبه ، فقد
جمعها غير واحد ، بل رأينا من كتب دروسه التى كان يعظ بها
الناس في بغداد ، ورأيناهم يحفظون ما نقل عنه من القصائد

لنفرقة (انظر نمرة ٢٤٣ ، ١٢٨ ، ٥٦٢ ، ٢٧٦٢ من فهرست
ار الكتب المصرية) .

ولو رجعنا الى ما الف في الوعظ والفقه في العصر الاخيرة
إبنا اكثر المؤلفين يرجعون الى الغزالي في اكثر الابواب .

وقد اخبرني صديقي عبد القوى افندي الحلبي ان من النادر
، تنشأ مكتبة في أى قطر من الأقطار الاسلامية ، ولا تشمل
إيها على طائفة من كتب الغزالي في الفقه والأخلاق .

- ٥ -

علاقة الفقه بالأخلاق

وقد يبدو لأول نظرة ، ان لا صلة بين اهتمام العلماء بمؤلفاته
، الفقه وبين تأثيرهم بما كتب في الأخلاق ، ولكننا لو عرفنا ن
روح السائد في ذلك العصر كان يجمع بين الفقه والتصوف ،
إبنا أن اهتمام المؤلفين شرح مصنفات الغزالي انما كان ثرا
يمانهم بصلاحه وتمواه ، وقد كانت الأوساط الفقهية ولا تزال
متقد أن لصالح المؤلف ثائرا في الانتفاع بمؤلفاته ، ولو كتب في
لحساب والسجوم .

اضف الى هذا أن الغزالي نفسه كان يعنى بالفقه والتوحيد
، مؤلفاته الأخلاقية ، فكانه يرى هذين العنين جزءا او مقدمة
علم الأخلاق .

والذين عنوا بنقد كتبه انما التفتوا أيضا الى الوجهة
لأخلاقية ، فالقضاة منهم كانوا يرونه خطرا على الأخلاق ، لانه
جانب الشريعة ، وهى فيما يرون أساس الأخلاق . والعلاسة
نهم كانوا يخافونه على الأخلاق ، لأن لها قواعد متينة تلقوها عن
بعلمهم ، وصاحبنا هذا يريد أن يأتى على تلك القواعد بإذاعته
يساوس المتصوفة ، وقد وقع ما كانوا يحذرون .

تأثير الاحياء

ولئن قالوا في « الوجيز » ما قالوا ، ووضعوا عليه ما شاءوا من عشرات الشروح ، وفعلوا مثل ذلك أو قريباً منه في مؤلفاته في الفقه ، والتوحيد ، والأصول ، فإن أبعد كتبه أثراً ، وأسيرها ذكراً ، وإبقاها على وجه الدهر ، هو كتابه « احياء علوم الدين » . بلا جدال .

كتب الغزالي في الفقه ، ولكن لم يجدد مذهبه الا بمقدار . فلم يثر فتنة . وكتب في المنطق ، ولكنه لم يزد عن سواء غير الإبانة والإيضاح . وكتب في الأصول ، ولكن بحيث لا يشير الخصومة . ولا يهيج اللدد . وكتب في الفلسفة . ولكنه لم يزد على أن تغنى بليلى معاصريه . وكتب في التوحيد ، فلم يخالف الأشاعرة الا قليلا ، فظل مستور الحال .

وما كتب « الاحياء » حتى التفت الناس اليه من كل جانب . وسار اسمه مسير الشمس ، وشغلت به جميع القلوب ، شوقا اليه أو عنبا عليه ، أو بغضا له ، أو رفقا به . وقد شهد هذه الضجة ، وسمع هذه الصيحة ، وهو حي يرزق . وحاول أن يهدى ناقليه بكتاب يوضح فيه ما غمض في الاحياء ، وهو « الاملاء على اشكالات الاحياء » ولكنه في الواقع لم يزده الا اشكالا الى اشكال . فلج الناس في المراء فوضع كتابه « المنهاج » على أن يكون موضع وفاق ، فكان في الواقع أيضا ضغنا على ابالة ، ثم مات الغزالي قبل أن يحسم هذا النزاع ، فلم تهدأ العاصفة بموته . بل قامت قيامة الجدل بين تلامذه وبين خصومه ، ولا يزالون مختلفين !

ويمكن الحكم بأن الخصومة التي كانت بين انصار الغزالي وبين خصومه كانت خصومة بين الشريعة والتصوف لا بين انصار

زوالى جميعا صوفية ، أو شبه صوفية ، وخصومه جميعا من ماء الشريعة . وابعدهم فوراً في النيل منه هم المتصدرون للفتيا للقضاء .

فبينما نجد ابن القيم يرميه (بالتخليط والهلديان) نجد أبا حسن الشاذلى يذكر انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه قد باهى موسى وعيسى بالعرالى . وقال : افي أمتيكما حبر كهذا ؟ قال . لا ! ونجد أبا العباس المرسى يشهد له بالصدقية العظمى ! ليت شعري ماهيه ؟

والفرق كبير بين من يرميه بالتخليط والهلديان وبين من يحلم بأن لا يظهر له في أمة موسى وعيسى عليهما السلام .

وقد قدمت لك شيئا من المنامات المتعلقة به ، وبينت ما لها من أسباب ، وإزيد الآن أن كل هذه المنامات مسببة عن « الاحياء » فهي تارة نفع لناقدي ذاك الكتاب ، وتارة تقع للمنتفعين به من علماء الاسلام .

والذين احرقوا « الاحياء » لم يحرقوه لانه كتاب هين ، والذين ألغوا الكتب في نفيه ، لم يفعلوا ذلك لانه كتاب هين ، وإنما نقدوه هؤلاء ، واحرقوه أولئك ، لانه فيما يرون كتاب خطر ، وليكن خطرا على الاسلام والمسلمين ، وليكن كتاب شر وقتنة ، وليكن كتلة زندقه والحاد ، فهو على كل حال كتاب رهيب خشيه أولئك الناس ، وهذا ما يعنيني الآن .

وأشهر من نقد « الاحياء » الامام أبو عبد الله المازرى المالكي المتوفى سنة ٥٣٦ هـ وقد ناقشه السبكي في طبقاته ، فليرجع اليه من شاء ، ويتلخص نقد المازرى في أن الغزالي غير ثقة فيما تعرض له من الفنون ، وأن كتابه (متردد بين مذاهب الموحدين والفلاسفة واصحاب الاشارات) ويتلخص رد السبكي في رمي المازرى بالحسد والكيد للصوفية في شخص الغزالي ، وممن نقده أبو الوليد

الطرشوشى وتجد جملة من نقده فى الجزء الاول من شرح
« الاحياء » للزبيدى . فاما الذين كتبوا فى فضل الاحياء فهم
كثير : منهم الشيخ عبد القادر العيدروس ، وضع كتابا سماه :
« تعريف الاحياء ، بفضائل الاحياء » وفى ايدى الناس كتاب لبعض
الفضلاء اسمه : « بغية القاصدين لفضائل احياء علوم الدين » .

واطال السبكى فى مدحه حتى نقل عن بعض المحققين انه قال :
« لو لم يكن للناس فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى
تصنيفهم بين العقل والنظر والفكر والاثر غيره لكفى » ثم قال :
« وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها واشاعتها
ليتهدى بها كثير من الخلق » ، ولما ينظر فيه ناظر الا ويتعظ به
فى الحال .

ويدل على مبلغ تأثير « الاحياء » عناية العلماء به ، فانا نجد
الحافظ العراقى خرج احاديثه فى كتابين : احدهما كبير الحجم فى
مجلدين ، وهو الذى صنفه فى سنة ٧٥١ هـ ثم اختصره فى مجلد
وسماه « المفتى عن حمل الاسفار » . ثم آتى تلميذه شهاب الدين
ابن حجر العسقلانى فاستدرك عليه ما فاتته فى مجلد . وصنف
الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى كتابا سماه : « تحفة الاحياء
فيما فات من تخريج احاديث الاحياء » وقد سبقنا كلمتنا فيما
نقل السبكى من الاحاديث الموضوعة .

وممن اختصر « الاحياء » ابو الفتوح احمد بن محمد الغزالى
المتوفى بقزوين سنة ٥٢٠ هـ وسماه « لباب الاحياء » واحمد هذا
هو اخو الغزالى . ثم اختصره احمد بن موسى الموصلى المتوفى سنة
٦٢٢ هـ . ثم محمد بن سعيد اليمنى ، ويحيى بن ابي الخير
اليمنى ، ومحمد بن عمر ابن عثمان البلخى وسماه « عين العلم
وزين الحلم » (انظر نمرة ١٠٩ من فهرست دار الكتب المصرية) .
واختصره عبد الوهاب بن على الخطيب المرافى وسماه « لباب

باء « واختصره الشمس محمد بن على بن جعفر العجلوني
بوز بالبلالى شيخ خاتناه سعيد السعداء بمصر المتوفى سنة
١٠٥٠ هـ .

واختصره ابن الجوزى فى كتاب سماه : « منهاج القاضين »
له نسخه مخطوطة بدار الكتب المصرية نمرة ١٦٧ .

وللأحياء شرح مطول يقع فى عشر مجلدات ، وفيما شاء الله من
مفصحات ، ألفه الزبيدى ، وقد اعتمدت على هذا الشرح فى
مبقي كثير من مواطن الخلاف .

ولم يقف الأمر عند شرح الأحياء ، واختصاره ، وتخريج
حادثه ، بل وضعت الأبحاث المفردة ، لشرح كلمة وردت فى
أحياء ، وهى : « ليس فى الامكان أبدع مما كان » ومن شرح
هذه الكلمة : عبد الوهاب الشعرانى ، وعبد الكريم الجبلى ،
ومحمد العربى شيخ الجلال السيوطى ، وأحمد بن مبارك
السجلماسى ، وأبو بكر بن عربى . ووضع ناصر الدين بن المنير
الاسكندرى رسالة فى هذه المسألة سماها : « الضياء المتلالى ، فى
نقيب الأحياء للفرالى » وفى مناقضة هذه الرسالة ألف السيد
السمهودى رسالة تقع فى سبعة كراريس كما قال الزبيدى «
وآلف البرهان البقاعى رسالة فى هذه المسألة سماها « تهديم
الأركان » وآلف الجلال السيوطى رسالة ناقض بها البقاعى سماها
« تشييد الأركان » .

- ٧ -

الانتفاع بمؤلفات الفرالى

ولقد تبعت العصور التى تلت عصر الفرالى فوجدت الانتفاع
بمؤلفاته ظاهرا كل الظهور فى حياة علماء الدين والتصوف
والأخلاق . ولقد رأيت من بينهم من هم يحفظ كتاب الأحياء عن

ظهر قلب . ورايت منهم من كان يتقرب الى الله بنسخ هذا الكتاب . وتجد في ص ٦٩ ج ٣ من « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادى عشر » مظهرا لاثر الغزالى في ذلك العصر ، اذ تجد من العلماء من يتخذ وردا من الاحياء كما يتخذ وردا من القرآن ولولا خوف الاطالة لضربت للقارئ عشرات الأمثال .

وفي العصر الحاضر يدرس كتاب الاحياء في الأزهر والمعاهد الدينية ، وكان الأستاذ الشيخ محمد عبده قرآن يدرس معه كتاب ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق ، ولكن رأى العلماء فيه آراء فلسفية، فقرروا لذلك حذفه ، لئلا يفسد الطلاب .

والأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ينصح لتلامذته دائما بالانتفاع بكتاب الاحياء . وكنت ممن أوصاهم بذلك ، ولكن الله لم يشأن أكون كما أراد الأستاذ ، فقد رأيت كيف صورت الغزالى بصورة الرجل الذى قد يخطئ وقد يصيب ، وهذا من مثلى كثير !

وأثر الغزالى ظاهر في مؤلفات الشيخ الدجوى ، وهو أيضا سبب ضعف تلك المؤلفات : فان كتاب « سبيل السعادة » الذى وضعه الأستاذ منذ بضع سنين ينسب أن يكون خلاصة مشوهة للآراء الحديثة في فهم أصول الأخلاق ، وفضيلة الشيخ معذور لأنه لا يعرف لغة أجنبية ، ولأنه يفض المذنية الحديثة من أعماق صدره، ويستبعد الاهتداء بآراء الفلاسفة المحدثين !

ويمكن الحكم بأن دراسة كتاب الاحياء في الأزهر مجردا من آراء المفكرين في نقده ، وتمييز غثه من سمينه ، كانت السبب في أفساد العقليّة الأزهرية ، وجعلها غير صالحة لأن تسمو بأصحابها الى الطمع فى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

والامل كبير فى أن يصل هذا الصوت الى من ييدهم الأمر فى الأزهر والمعاهد الدينية : فيغيروا ذلك المنهج القديم فى دراسة الأخلاق ، فان فى الأزهر ولواحقه نحو عشرين الفا من الطلبة يميتهن

تلك المذاهب البالية ، التي يعولون عليها في فهم نزعات النفوس ،
وخلجات القلوب . وسبحان من لو شاء لهدانا وإياهم سواء السبيل !

— ٨ —

عناية الأجانب بالغزالي

ومما يتصل بتأثير الغزالي في الحياة العلمية ، عناية الأجانب به :
فقد كتبت عنه عدة مؤلفات بالفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية .
ومنهم من يتعصب له فوق ما يفعل المسلمون . ويعدّه الدكتور زويمر
واحداً من أربعة ويقول : « كل باحث في تاريخ الإسلام يلتقى بأربعة
من أولئك العطاحل العظماء . وهم محمد نبي المسلمين نفسه ،
والبخاري ، والأشعري ، والعرالي » .

والدكتور زويمر من المستشرقين الانجليز الذين درسوا العقلية
الشرقية ، وكتبه عن الغزالي من الكتب القيمة ؛ وتجد فيه من مظهر
العناية بالعرالي ما كتبه عن قبره ، ناعلاً عن خطاب وصله من القس
دونالدسن في ١٧ يناير سنة ١٩١٧ ، وقد زار قبر الغزالي ووجد في
احدى زوايا الحجر كلمة (غزالي) و (بوحي) وأصلها بالطبع
أبو حامد . وهذا هو الرسم الذي أرسله قس دونالدسن الى
الدكتور زويمر عن قبر الغزالي .

ومن أجود ما كتب بالفرنسوية عن الغزالي كتاب Carra de Vaux
والمسيو « كارادي فو » هذا رجل خبير بالحياة الإسلامية ، وله
كتاب عن ابن سينا أحب أن يطلع عليه من يود أن يعرف شيئاً عن
المدارس الفلسفية عند المسلمين ، وإنى لأسف حين أقرر أن
المستشرقين يفهمون مذاهب أهل السنة والمعتزلة أكثر من علماء
الأزهر الذين إذا عرض لهم ذكر المعتزلة لم يزيدوا على أن يقولوا
(قبحهم الله) وقد أخبرني حضرة الأستاذ الدكتور طه حسين أن
المسيو كانونفا وضع كتاباً عن العزالي ، وإنى للوم في أن غفلت عن

هذا الكتاب ، فان الطريقة التي جرى عليها المسيو كازانوفا في كتابة « محمد ونهاية العالم » طريقة تفرى الباحث بتعقب ما يكتب هذا الرجل الدقيق . وآسف أيضا على ان الظروف لا تسمح بأن أترجم شيئا من آراء هذا الرجل ، لأن البحث العلمى عنده فوق كل مقام ، وانما أدعو من يجب الاطلاع الى مراجعة Mohamed et la fin du monde فان فيه من المباحث ما يواتى شهوات العقول ، وللعقول شهوات !! .

وهناك كتاب للمسيو Moher موضوعه :

Etudes sur la philosophie d'Averroes concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali

ويحسن الرجوع الى المقدمة التي وضعها المسيو Lucien Gautier حين نقل « الدرة الفاخرة » الى الفرنسية Traité d'eschatologie musulmane ويحسن الاطلاع على الجزء التاسع من المجموعة السابعة من Journal asiatique وفي مقدور القارئ أن يرجع الى Encyclopédie de l'Islam 20 Livre اذا اراد ان يعرف ما كتب عن الغزالي بالفرنسية والانجليزية والالمانية . وقد اخبرني حضرة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أنه علم أن في اللغة التركية عدة مؤلفات عن الغزالي . واحسب أن السبيل اليها ممهد لمن شاء .

واحب أن يعفني القارئ من تفصيل ما أعرف عن نظري المستشرقين الى الغزالي ومذاهبه الصوفية ، فاني مضطر الى الاكتفاء بارشاده الى طريق الاطلاع .

الفوز للحياة

وبالرغم من تأثير الغزالي في الشرق والغرب ، وتغلغله في أعماق الحياة العلمية ، فان الفوز فيما يظهر لن يكون لآرائه في الاخلاق ، ولكن سيكون الفوز للحياة .

الا ان الاخلاق كالشرائع . فكما نهزم الشريعة امام الحياة ،
كما انهزمت المسيحية لحرونها على ما للحياة من قوانين : كذلك
تنهزم الاخلاق امام الحياة ، حين تخلو عما فى الحياة من عناصر
واصول .

وهكذا انهزم الغزالى حين نازل الحياة !
حرم النقتر والتصوير . ولكن النزعات الشريفة مشيت فى
طريقها بقوة . ولم تصدف عن العوس والتصاوير !
وحرم الغناء . ولكن مشيت الاذواق فى سبيلها بقوة ، ولم نزل
ظامنه الى الانغام والالجان !

وليت حين حرم القس والتصوير والغناء ، وضع لذلك عللا
معقولة ، ولكنه حرم التصوير لانه يدعو الى الوسيه ، وهذا كذب على
الواقع ، فطالما احببنا بهاول الصور ، ولم نفكر فى الوثنية . وحرم
الغناء لانه يدعو الى شرب الخمر . وهذا طين مردود ، فطالما سمعنا
عبد اللطيف أفندى البنا وابراهيم أفندى القباني والشيخ عبد
السميع عيسى ، ولم يفكر فى الخمر ، ولا فى مجالس الخمر !!

ليست الاخلاق شيئا آخر غير مناهج الحياة . والاخلاق التى
تبني بها الامم ليس ما يعرفه الغزالى من البواضع . والتوكل ،
والخمول ، وانما هى فهم قوانين الحياة واحب ان اكرر كلمة الحياة :
لانها عندى غايه الاخلاق .

والفضائل السلبية كالصر ، والزهد ، والقناعة ، لن تكون
فضائل حتى تقضى الظروف باعتبارها اسلحة ماضية فى سبيل
الحياه . فقد يكون الخمول من اسباب الباهة وذبوع الشهرة ، كما
يكون الصيت احيانا من اسباب الخمول .

ولا قيمة للحياة بغير القوة . فيجب ان تكون الاخلاق بابا الى
الحياة القوية . وطالما شككت فى قوله عليه السلام : « اللهم احينى
مسكيناً ، وامتنى مسكيناً . واحشرنى فى زمرة المساكين » !

الباب الثاني عشر
في أنصار الغزالي وخصومه

تمهيد

قدمنا ان الخصومة كان مشارها الفرق بين الفقه والتصوف ،
وان انصار الغزالي كانوا في الاغلب صوفية ، وان خصومه كانوا في
الاكثر من الفقهاء . ونريد الان ان نقفك على ترجمة طائفة من انصار
الغزالي وخصومه ، ونبين بجانب ذلك شيئا مما اخص به اولئك
العلماء الذين حاربوا الغزالي او ايدوه ، لنمهّد لك السبيل الى
فهم الحركة العقلية التي اوجدتها مؤلفات الغزالي ، وسبيلنا الايجاز
في هذا الباب ، لان المقام لا يسمح بالتطويل .

ابن رشد

ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . ودرس في صغره الفقه والتوحيد والأصول . ثم أقبل على دراسة الطب والفلسفة . وكان له بسبب علمه وفضله عدد من الحساد يتقولون عليه الأقاويل . توفي رحمه الله بمراكش في أوائل سنة ٥٩٥ هـ بعد أن ذاق الأمرين من نفى واضطهاد ، جزاء ما قدمت يداه من شرح فلسفة القدماء !

والذي يقرأ حياة ابن رشد ، ويرى ما لقيه في زمانه ، يعلم أن العرب كانوا يحتضرون ، وإن دولتهم كانت تمشي إلى الفناء ، لأن الدين يحاربون الفكر الحر ، ويضطهدون المفكرين الأحرار ، لا يصلحون مطلقا للحياة . وكذلك دالت دولة العرب بعد قليل . وخصوصة ابن رشد للغزالي تكاد تكون فلسفية ، فقد وضع الغزالي كتابا سماه « تهافت الفلاسفة » ، والفرض من الكتاب ظاهر من عنوانه ، فعارضه ابن رشد بكتاب سماه « تهافت التهافت » ، والذي يهمني من معارضة ابن رشد للغزالي إنما هو دفاعه عن ابن سينا والغارابي ، فقد كان الغزالي يراهما من الكفار .

ويتلخص دفاع ابن رشد في أن مسألة قدم العالم وحدوثه التي كانت مثار الخلاف ، إنما كان الاختلاف فيما بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا للاختلاف في التسمية وبخاصة عند بعض القدماء . فإن هناك ثلاثة أصناف من الموجودات طرفان وواسطة بين الطرفين . وقد اتفقوا في الطرفين

واختلفوا في الوسطة . أما الطرف الأول فهو موجود وجد عن شيء ومن شيء ، أى عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم على وجوده وهذه هي حال الأجسام التى يدرك تكونها بالحس مثل الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات . وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه محدث . وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان . وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه قديم وهو الله . وأما الصنف الثالث فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء أى عن فاعل ، وهذا هو العالم بأسره . والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فان المتكلمين يسلمون بأن الزمان غير متقدم عليه لأن الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضا متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون في الزمان الماضى والوجود الماضى فالتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب افلاطون وشيعته وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال في المستقبل . يقول ابن رشد : « فهذا الموجود الأخير الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبهها من الوجود الكائن الحقيقى ومن الوجود القديم . فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديما » ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثا . وهو في الحقيقة ليس محدثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا . فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر ، فان الآراء التى شأنها هذا يجب أن تكون في الغاية من التباعد ، أعنى أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون في هذه المسألة » .

ولم يقف ابن رشد عند هذا الحد ، بل انتقل الى كلام هو في الواقع صفع لادعياء العلم الذين يحسبون قدم العالم وحدوده من الامور الهينة التي يصدرون عنها الفتوى كأنها مسألة طلاق !!
واليك ما يقول في ذلك :

« مع ان هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فان ظاهر الشرع اذا تصفح ظهر في الآيات الواردة في الانباء عن ايجاد العالم ان صورته محدثة بالحقيقة . وان نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين اعنى غير منقطع . وذلك ان قوله تعالى : (وهو الذى خلق السموات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء) . يقتضى بظاهره وجودا قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزمانا قبل هذا الزمان ، اعنى المقترن بصورة هذا الوجود ، الذى هو عدد حركة الفلك . وقوله تعالى : (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) . يقتضى بظاهره وجودا ثانيا بعد هذا الوجود . وقوله تعالى : (ثم استوى الى السماء وهى دخان) ، يقتضى بظاهره ان السموات خلقت من شيء » .

وهناك صفعة ثانية تفضل بها ابن رشد على علماء التوحيد . ذلك بان هؤلاء القوم يخلقون من الأساليب والاصطلاحات مالا يعرفه الدين ، ثم يقولون : من تعدى هذه الحدود فهو كافر .
« فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثنا » ؟ !

واليك ما يقول ابن رشد في ذلك :

« والمتكلمون ليسوا في قولهم ايضا في العالم على ظاهر الشرع ،

بل متاولون ، فانه ليس في الشرع أن الله كان موجودا مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصا أبدا ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات أن الإجماع اتفق عليه ؟ ثم قال : والظاهر الذي قلناه من الشرع في وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء ، ويشبهه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة اما مصيبين ماجورين ، واما مخطئين معذورين فان التصديق بالشئ من قبل الدليل القائم في النفس هو شئ اضطرارى لا اختيارى ، اعنى انه ليس لنا أن نصدق أو لا نصدق ، كما لنا أن نقوم أو لا نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له اذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان أخطأ فله أجر » .

وبمناسبة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا في تكفير الفلاسفة بل أسرفوا في تكفير بعضهم البعض ، بأسباب ضعيفة لا يعرفها الاسلام ، وما زالوا يسرفون حتى حفظ عنهم الراى العام جملة تعابير هى مناط الكفر والإيمان ، وفي كتاب « فيصل التفرقة » للغزالي مظهر لهذه الآراء الفاسدة التى ظننها الاولون حقائق ، وهى في الواقع أباطيل .

والذى أراه أن مجازفة علماء التوحيد في الحكم بحدوث العالم ، وفى وصف الله بصفات معينة محدودة ، وفى تعيين مصير العالم بشكل خاص ، كل أولئك يدل على أن هؤلاء الناس كانوا في غاية السذاجة ، وأن نظرهم كان غير بعيد . وستسخر المقادير منهم يوم تطوى كتبهم وآرائهم ، ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ ، كما دخل من قبلهم الوف الإلوف من أصحاب الشرائع والقوانين .

ابن تيمية

ولد بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ .
وقدم به والده الى دمشق في سنة ٦٦٧ هـ حين استولى التتار على
حوران . وقد تلقى عن والده الفقه والأصول ، ثم عنى بالنظر في
الحساب والجبر والفلسفة ، وتقدم للتدريس وسنه دون العشرين .
وقد بلغت مصنفاته ثلثمائة مصنف . منها تعارض العقل والنقل
والجواب الصحيح في الرد على النصارى واثبات المعاد والرد على
ابن سينا واثبات الصفات والرد على الامامية ... الخ .

قال الحافظ ابن كثير : وفي رجب سنة ٧٠٤ هـ راح الشيخ
تقي الدين بن تيمية الى مسجد الفارنج وأمر أصحابه وتلامذته
بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها هناك . فقطعها وأراح المسلمين
منها ومن الشرك بها ، فأزال عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما .
وبهذا وامثاله أبرزوا له العداوة . وكذلك بكلامه في ابن عربي
وأتباعه ، فحسد وعودى ، ومع هذا لا تأخذه في الله لومة لائم ،
ولم يبال بمن عاداه . ولم يصلوا اليه بمكروه . وأكثر ما نالوا منه
الحبسى ، مع أنه لم ينقطع عن البحث لا ببصر ولا بالشام .

وكان ابن تيمية كثيرا ما ينشد هذه الايات :

لو لم تكن لى فى القلوب مهابة

لم يظعن الأعداء فى يقسحوا

كاليث لماهيب خط له الزبي (١)

وعوت لهيبته الكلاب النبح

يرموننى شمر العيون لأننى

فلست فى طلب العلاء وصبحوا

وقد توفى رحمه الله فى صباح الاثنين عاشر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ وهو فى السجن . فأخرج الى الجامع فى يوم مشهود لم يعهد فى دمشق مثله ، وقد تبرك الناس بماء غسله ، واشتد الزحام على نعشه ، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مرارا ، وقدر من حضر جنازته من الرجال بمائتى الف ومن النساء بخمسة عشر ألفا . ورثاه كثير من العلماء منهم ابن الوردى .

والذى يعود الى ترجمة ابن تيمية فى الكتب التى عنى مؤلفوها بترجمته يعرف كثيرا عن العقلية الاسلامية فى القرن الثامن ، ويكفى أن نلفت القارئ الى قولهم « ودفن بمقابر الصوفية » فإن لذلك معانى لا تغرب عن ذهن اللبيب ، وما اريد أن ازيد .

وابن تيمية من كبار المفكرين فى الاسلام ، ولكنه لا يخلو من سداجة . فأنك بينما تراه يتوغل فى المدركات المعقولة ، تراه ينحدر فجأة فى هاوية الاوهام . من ذلك قوله « العلماء هم ورثة الانبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر » .

(١) الزبي : جمع زبية وهى الحفرة .

وقد اجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم ، اذ كلّ أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعلموا شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم (١) » وهذا بالطبع حكم لا سند له من معقول ، او منقول .

ويعد ابن تيمية من خصوم الغزالي لانه كتب فصولا كثيرة في تناقضه ، وتسفيه بعض آرائه . ومن اعجب ما رأيت له ، حكمه بأن الغزالي هجر طريق الصوفية في اخريات أيامه ، وفي ذلك يقول : « ولهذا بين له في آخر عمره أن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخاري ومسلم ومات في انتاء ذلك على أحسن احواله ، وكان كارها ما وقع في كتبه من نحو هذه الامور مما انكره الناس عليه » .

وانا لا استبعد كلام ابن تيمية ، فان الغزالي كان متقلبا في آرائه لا يستقر على حال . فهو تارة نقيه ، وتارة صوفي ، وتارة فيلسوف .

وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى منهم من يفضل الولي على النبي ، كما رأى من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف على النبي . فاننا نراه يمدح ابن سينا لانه يفضل النبي على الفيلسوف ، ويسمى طريقه طريق العقلاء ، ويدم الغرابي لانه يفضل الفيلسوف على النبي ، ويسمى طريقه طريق الغلاة . ويدم محبي الدين بن مري لانه كان يدعى انه كان يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي

(١) انظر مقدمة رقع الملام .

يوحى به الى النبي ، لأن الملك على أصلهم هو الحال الذي في نفس النبي ، والنبي في زعمهم يأخذ عن ذلك الحال ، والحال يأخذ عن العقل ، فهو على ذلك أفضل من النبي لأنه لا يحتاج الى وسيط .

واحب أن أنه القارئ الى أنى انما اذكر تاريخ فكرة من الافكار الاسلاميه . لا اكثر ولا اقل ، والمؤرخ غير مسئول .

ابن القيم

هو من تلامذة ابن تيمية . ولد في سنة ٥٧١ هـ . وتوفي سنة ٦٩١ هـ لغى في حياته ضروبا من التبدد بسبب آرائه الحرة . فقد حبس مدة لانكاره أن تشدد الرجال الى قبر الخليل . وقد حبس مع ابن تيمية في المدة الأخيرة ، ولم يفرج عنه الا بعد موت استاذة . وله عدة تصانيف . منها « مدارج السالكين » ، و « شرح الكتاب العزيز » ، و « نقد المنقول » ، « والمحك المميز بين المردود والمقبول » ، و « اعلام الموقعين » . . . الخ .

وأبن القيم هذا من الد خصوم الفزالي ، وقد نقلنا جملة من آرائه حين نكلمنا عن اغلاط الاحياء ، فلا نعود اليها الآن .

وأكرر ما قلته من أننى أوجز كل الإيجاز في هذا الباب . فلهؤلاء الذين أترجمهم آراء هى غاية فى الخطورة ، من حيث ما فيها من الدقة ، ومن الجراءة ، مع أنهم فيما أرى كانوا يبالفون فى الاحتياط ، لأن العالم الاسلامى كان يضطهد الفلاسفة اذ ذاك .

ولو سمح لنا الدهر بوضع كتاب في الفلسفة الإسلامية لاستطلعنا
ان نرفع عن هؤلاء الافئدة آصار الخمول .

السبكي

هو ناج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي
المتوفى سنة ٧٧١ هـ . والسبكي هذا من كبار المؤلفين . وكتابه
« جمع الجوامع » في الأصول يدل على كده وكدحه في سبيل العلم ،
وان كان غايه في اللبس والغموض . وكتابه « طبقات الشافعية
الكبرى » كتاب جيد ، من حيث ما فيه من عبون المسائل الفقهية ،
ومن حيث الترتيب . وعقب السبكي يرجع الى ضعفه في النقد
والتمييز ، ولو خلت كتبه من الآراء التي اعتمد فيها على ذاكرته
فقط ، لكان لها شأن كبير .

ويعتبر السبكي من انصار الغزالي ، وقد كتب عنه في الطبقات
أكثر من تماخين صفحة ، « ودافع عنه دفاع الأبطال » حين عرض
لخصومه . وهو يعتقد كل سداجة أنه لو لم يكن لدى المسلمين
غير كتاب الاحياء لكفى !! وما اريد ان اطليل في الكلام عن السبكي ،
فقد عرضنا له عدة مرات .

الزبيدي

هو محمد بن محمد الحسيني الزبيدي . وهو من علماء القرن
الثاني عشر ، وقد وضع شرحا مطولا للاحياء في عشر مجلدات ،
انتهى من تأليف الجزء الاول منه في يوم الجمعة ٢٥ محرم سنة
١١٩٣ هـ . وفي هذا الجزء كتب دفاعه عن الغزالي .

وهو من أشد أنصار الغزالي ، ولكن دفاعه عنه دفاع سخيف ،
لا قيمة له ، لا في نظر الشرع ولا في نظر العقل . من ذلك قوله في
تأييد ما يراه الغزالي من أن الزواج ميل الى الدنيا :

« وأما كون التزويج من جملة الميل الى الدنيا فهو ظاهر ،
لأنه في الغالب يطلب للاستمتاع : وذلك لا يحصل الا بالوقوع في
الآفات التي كان عنها بمعزل أيام عزوبه ، لا سيما أن كان متجردا
عن القيام بالأسباب التي تجلب له أمر معاشه فإنه يتلف بالكلية ،
ويلزمه الرياء لكل من أحسن اليه بلقمة أو خرقة أو غيرهما فأبغض
الخلق اليه من يذمه عنده خوفا من أن يتغير اعتقاده فيه فيقطع
عنه بره فكان عبادة هذا كلها لأجل الذي أحسن اليه » .

وهذا كلام غير مفهوم في الواقع ، فضلا عن أن يكون دفاعا عن
رأى يرى الناس أنه غير صواب .

الباب الثالث عشر
في الموازنة بين الغزالي وبين الفلاسفة المحدثين

تمهيد

هذا باب اذا اطلتہ طال ، لان لآراء الغزالي اشباها كثيرة ، في
الفلسفة الحديثه ، وتحملني الرغبة في الايجاز على الاكتفاء بأهم
وجوه المقابلة بينه وبين الفلاسفة المحدثين . وحسبى أن أدل القارئ
على كيفية السير في هذا الطريق .

الفزالي وديكارت Descartes

أقرب الفلاسفة شبهها بالفزالي هو « ديكارت » لأنه ارتاب كما ارتاب الفزالي ، وبقي في شكه وارتبابه زمنا غير قليل .

ولد « ديكارت » في لاهاي سنة ١٥٩٦ م أي بعد الفزالي بنحو ٥٣ سنة . تلقى العلم في مدرسة يسوعية ، كآثر الاطفال لمعهده ، وحمله جده ونشاطه على دراسة اللغات القديمة ، والأساطير والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والرياضيات ، والأخلاق ، واللاهوت . ولم يقنع بذلك ، بل قرأ كل ما وقع في يده من نادو المؤلفات ، كما حدث عن نفسه . ورحل الى باريس في السادسة عشرة من عمره ، وتطوع في الجندية ، وعمل عدة سياحات في ألمانيا ، والسويد ، والدانيمارك ، ثم استقر في هولنده ، حيث رأى الإقامة فيها أنفع لنشر آرائه بحرية لم تسمح بها فرنسا اذ ذاك .

وبعد أن أقام في هولنده عشرين سنة ، مكبا على وضع مذهبه ، دعته كريستين ملكة السويد لتتلقى عنه العلم ، ولكنه لم يتحمل برد تلك لبلاد ، ففضى نجبه في سنة ١٦٥٠ بعد أن أمضى نحو سنة في ستوكهلم ثم حملت جثته الى فرنسا في سنة ١٦٦٧ ودفن بكنيسة Saint-Etienne

مؤلفات ديكارت

يعتبر ديكارت في نظر مؤرخى الاداب الفرنسية أول رجل عبر بآرائه الفلسمية بلغة واضحة ، وجعل لغة الفرنسيين لغة

فلسفية ، بعد أن كان الفلاسفة من قبله يكتبون فلسفتهم باللغة اللاتينية . وأهم ما يعيننا من مؤلفاته :

Règles pour la direction de l'esprit	—	أولا
Discours de la méthode	—	ثانيا
Méditations métaphysiques	—	ثالثا
Les principes de la philosophie	—	رابعا
Les passions de l'âme	—	خامسا

نفى هذه المؤلفات بسط ديكارت آراءه الفلسفية . فليرجع إليها من شاء ، فإنه لا يوجد عنه شيء مقنع بالعربية .

شكوك ديكارت

وكما ارتاب الغزالي حين رأى صبيان النصراني لا نشوء لهم الا على لنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، فقد ارتاب ديكارت حين رأى شيوع التقليد ، ورأى الناس في الأكثر اما أن يكونوا ضعفاء لا يقدرون على تمييز الحق من الباطل ، فيتبعوا آراء غيرهم بلا بصيرة ، واما أن يكونوا أقوياء فيسرعوا الى الحكم ثقة بفوتهم ، فاذا شكوا بعد ذلك ، فقد لا يهتدون الى سواء السبيل .

ومما حمل ديكارت على الشك ، ما رآه في أسفاره من اختلاف العادات والآراء ، وتباين العقائد والمدركات ، وما تبينه من تأثير التربية في التفرقة بين أخلاق الشعوب .

وأهم ما تنبه له في رحلاته ، الشك في قيمة الرأي العام والاستهانة بكثرة الأصوات ، لأن اجماع الأمة على رأي ، لا يدل على

انه رأى الامة ، فقد يكون رأى فرد واحد ، حملت عليه الامة لسبب من الاسباب .

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل « ديكارت » على الارتباب ، اذ قلما يوجد رأى غريب بعيد التصديق الا وقد قال به فيلسوف . ولكن ديكارت كان فى اربابه اصرح من الغزالى . فبينما نجد الغزالى يحدثنا بانه دام قريبا من شهرين على مذهب الفلسفة « بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » اى انه لم يكشف الناس بشكه الا حين اجمعوا او كادوا يجمعون على تقديسه ، نجد ديكارت يتطلب الأمان الصالحة لنشر شكوكه ، ونجده يحكم ببطلان الآراء التى بنى عليها آراءه حين ظنها حقه ، وبوجوب النخلى مرة واحدة عن جميع آرائه ، ليضع بناء جديدا على اساس جديد .

ونرى الغزالى شك فى المحسوسات ، لأنه ينظر الى الظل فيراه واقفا لا يتحرك ، فيحكم بنفى الحركة ، ثم يعرف بالتجربة والمشاهدة ، انه يتحرك ولكن بالتدرج . ثم نراه هم بالشك فى العقلانيات ، لأنه يعنفد فى النوم امورا ، ويتخيل أحوالا لها ثبوت واستقرار ، ثم يستيقظ فيعلم انه لم يكن لجميع متخيلاته ومعتقداته أصل ، فيسال : بم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ، وقد يمكن أن تطرا عليك حالة أخرى تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ؟

كذلك نجد ديكارت يقرر ان الأشياء التى سلم بأنها اثبت من غيرها واصح ، انما كان اعتمد فى صحتها وثباتها على الحواس ،

وقد تبين غير مرة أن الحواس خداعة - وهو كذلك يرى في نومه
تصورات يعلم حين يستيقظ أنها باطلة ، فمن أين يعرف فضل
اليقظة على المنام ، أو فضل المنام على اليقظة ، وهو في كليهما مضلل
مخدوع ؟ !

الفرق بين الغزالي وديكارت

الفرق عظيم جدا بين الغزالي وديكارت ، فان الغزالي خرج من
شكه بطريقة لا تصل بأحد الى يقين ، خرج من شكه بنور الله %
ونور الله هذا لا يعرفه العلم ، حتى يضمه الى ما لديه من اصول
والغزالي نفسه يشعر بذلك ، فقد نراه يحكم بأن من ظن أن الكشف
موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وينقل
أن رسول الله لما سئل عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى : (فمن
يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قال : نور يقدفه الله في
القلب فيشرح به الصدر ، فقليل وما علامته ؟ قال : التجافي عن دار
الغرور ، والإنابة الى دار الخلود . يقول الغزالي : وهو الذي قال
صلى الله عليه وسلم فيه (ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش
عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف !! .

وما دام الغزالي لم يرجع عن شكه « بنظم دليل وترتيب » كما
قال ، فمن العبث أن نستعين العقل والمنطق لنخرج من ظلمات
الشكوك . وهذا ما يناقض كل ما فعله ديكارت للخروج من شكوكه %
وكذلك كان الغزالي سببا لخمود الفلسفة في الشرق كما كان
« ديكارت » سببا لنهوضها في الغرب .

أسلوب ديكارت

لم ير ديكارت من الحكمه أن يخرج على ما في بلاده من عادات وقوانين ، بل رأى من الخير أن يحافظ على الدين الذى نشأ عليه ، وأن يسير على أكثر الأمور قبولاً واعتدالاً عند أهل عصره ، حتى يتمكن من وضع مذهبه فى طمأنينه وسكون .

ويقول بول حانيه Paul Janet ان ديكارت حين اقتنع بعدم كفايه العلوم المعروفة لعصره ، لم يركن الى الارتياح كما فعل مونتيني Montaigne بل رأى من الواجب أن يبنى صرح العلم على أساس جديد . وكذلك يمكن أن نقول ان الغزالي انهزم أمام شكوكه ، ولكنه لم يركن الى الارتياح كما فعل مونتيني ، ولم يفكر فى وضع العلم على أساس جديد كما فعل ديكارت ، ولكنه انظر هداية الله ، والله يهدى من يشاء !

وأول ما يبدأ به « ديكارت » هو الدعوة الى نيل الكتب وتحكيم العقل ، لأنه يرى أن المؤلفات التى ننطوى على مختلف الآراء ، ليست أقرب الى الحقيقه من التعقبات البسيطة التى يقوم بها رجل سليم الذوق ، وقد لمس الأشياء بيديه . والمهم عنده ان تحسن التفكير ، لا أن تعرف كيف فكر الناس . والبناء الذى قام به مهندس واحد ، أخير عنده من البناء الذى يقوم به عدد من المهندسين ، فان وحدة الذوق من موجبات الجمال .

ويرى « ديكارت » أنه لوضع فلسفة جديدة ، يجب أن يوضع أسلوب جديد . والأسلوب المختار لديه هو الأسلوب الرياضى ، لأنه يعصم الفكر عن الخطأ والضلal .

وقد وضع لأسلوبه هذه القواعد الأربع :

أولاً - لا يصح قبول شئ على أنه حق ، ما لم يعرف (ما هو)
بغاية الوضوح .

ثانياً - تقسيم كل مسألة صعبة الى ما يمكن أن تشتمل عليها من الأجزاء ، ليكون ادراكها سهل المنال .

ثالثاً - ترتيب التفكير ، والابتداء بالموضوعات السهلة البسيطة ، للوصول الى الموضوعات المركبة .

رابعاً - فرض نظام فى الموضوعات التى لا يسبق بعضها بعضاً فى الطبع .

يقول « بول جانيه » : « ولهذه القواعد الأربع فى ذهن ديكارت معنى جد محدود . والقاعدة الأولى تظهر كأنها عادية ، وليس كذلك ، فان اغفال كل سلطة ، واقرار الاستقلال المطلق للعقل ، كان فى أوائل القرن السابع عشر جرأة وبدعة (١) .

ومن جانب آخر ينبغى أن نفهم كلمة (وضوح) فان كل ما نعتقده بقوة ليس واضحاً ، ولأجل وضوحه ينبغى أن يخلص

(١) بدعة : هى الكلمة التى اخترناها لترجمة كلمة (nouveauté)

اقرب الى المراد

العقل من كل تأثير للحواس والخيال ، ليدرك الأفكار بوضوح .
وتمييز ، فان مدركات الحواس مختلطة ، والآراء المعقولة هي التي
تولد من أعماق العقل واضحة متميزة . وكذلك لا يوجد واضح
محسوس ، اذ كل واضح معقول » .

والجرحه التي تدرك الحقيقة مباشرة هي البصيرة . intuition
ولا يريد بها ديكارت ما يتغير من احكام الحواس والخيال ، وانما يريد
بها ادراك العقل السليم اليقظ : الادراك السهل الواضح الذي
لا يتطرق اليه أى شك ، الادراك الحازم الذي يولد فقط من أضواء
العقل .

وبموجب هذه البصيرة يستطيع كل انسان فيما يرى ديكارت
ان يعلم انه موجود ، وانه يفكر . ويستطيع كذلك ان يعلم ان الواحد
نصف الاثنين ، وان $2 + 2 = 4$ كما ان $3 + 1 = 4$ لان هذه
الاحكام مدركة بغايه الوضوح والجلاء .

وديكارت يبدأ بنفسه فيفرض ان جميع ما يراه باطل ، فماذا
يمكن ان يعتبر صحيحا حينئذ ؟ قد لا يثبت الا عدم وجود شيء
يقينى في العالم ، ولكن يبقى بالطبع ان هناك انسانا شك ، وان هذا
الانسان لا محالة موجود وهنا يقول ديكارت كلمته الماثورة
Je pense, donc je suis انا أفكر ، فانا اذن موجود . ولا بأس
فيما يرى ديكارت ان يفش الانسان ويخدع ، فان هذا يدل فقط
على انه رأى الأشياء على غير ما هي عليه ، ولا يناق انه كائن موجود .

ويرى ديكارت أنه قد يرغب في أشياء لن تكون فالمرغوب فيه موهوم ، ولكن الرغبة نفسها حقيقة لا خيال .

وجملة القول في أسلوب ديكارت أنه لا شيء أوضح لديه من أفكاره ، فهو يؤمن أولا بوجوده ، ثم ينتقل الى الأشياء يقيس وجودها بقدر ما فيها من الوضوح ، لأن القاعدة عنده أنه لا يصح قبول شيء على أنه حق حتى يعرف « ما هو » بفاية الجلاء .

ولفلسفة « ديكارت » كثير من الخصوم والأنصار ، ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل ما قيل في النيل منه ، والدفاع عنه ، وربما عدنا إليه في مؤلف خاص .

— ٢ —

الغزالي وبسكال Pascal

ولد بسكال في كليرمون في ١٨ يونيه سنة ١٦٢٣ وانتقل به أبوه الى باريس في سنة ١٦٣١ حيث اتصل بكثير من علماء ذلك العصر ، وكان أول أستاذ لبسكال هو والده الذي عنى بتربيته على قوة الفكر ، وحسن الاستنباط . وقد شغف بسكال بالرياضة ، والفكر فيها وهو يافع . ثم مال الى الفلسفة ، ولكنه لم يعول على عقله ، بل أسلم نفسه لهواجس دينية ، حمل عليها بضعف صحته ، واضطراره الى حياة العزلة والانفراد .

واشتهر بسكال بكتابه « الأفكار » Pensées وهو مجموعة آراء
تجمعت وطبعت بعد وفاته ، وكتابه Lettres provinciales يمثل
رأيه في حياة القسيسين والرهبان .

ووجه الشبه بين الغزالي وبسكال هو أن كلا منهما ابتدا حياته
بقوة قهارة ، ثم انتهت به صحته الى الرضا بالخمول في ظلال
التسك والزهد ، فقد رأيت كيف اقبل الغزالي على كل علم ،
وكيف درس كل النحل ، وعرف بواطن جميع الفرق ، ثم رأيت
كيف رضى بوساوس الصوفية ، وعد كل ما سوى مذهبهم ضلالا
في ضلال !!

وكذلك ابتدا بسكال بتأييد مذهب ديكارت ، والتحمس لنصرة
العقل ، ومحاربة الوسواس القديم . حتى لنجده يدافع عن
الشهوات الكبيرة التي توجد الأعمال العظيمة ، كالحب والطمع .
وذلك في رسالته Discours sur les passions de l'amour ولكن
صححة بسكال أخذت تسوء يوما بعد يوم واضطر الى العزلة في
Port-Royal واختار الفلسفة الصوفية التي لخصها في
محادثته مع مسيودي سباسي كما قال بول جانييه ، ثم
حول اخيرا على الاكتفاء بالانجيل .

ومما يقرب بسكال من الغزالي شكه في قوة الطبيعة الانسانية ،
فهو يرى ان الانسان مملوء بالخطأ الغريزي الذي لا يزول الا بعناية
الله ، وليس هناك شيء يهدي الانسان الى الحقيقة ، بل كل شيء

يُتَّخَذُهُ . ومع أن العقل والحواس أصلان للحقائق فإن كلا منهما
يُخْدَم صاحبه ، والناس يدعو بعضهم بعضا إلى الخداع : فهم
يتبادلون المذبح لعلمهم فيما بينهم بكراهة الحقيقة التي تنافي المديح ،
وكذلك لا يتكلم امرؤ في حضرتك كما يتكلم في مغيبك ، فالإنسان
في نظر بسكال مجموعة من الكذب والورور والنفاق .

وقد بالغ بسكال في احتقار العقل . ثم معنى لو أنه عرف جميع
الأشياء بالوحي والشعور ولم يحتج أبدا إلى العقل ! ! ويتهم بسكال
عقله بإغرائه بالشك . ويعتقد أن الدين لا يأتي مطلقا من ناحية
العقل ، وإنما يأتي من شعور القلب ، ومن هداية الله ؛ ويجوز أن
يأتي الدين من طريق العقل ، ولكن مثل هذا الدين لا ينفع للنجاة !
وهذا بالطبع أسراف .

— ٣ —

الغزالي وهوبس Hobbes

ولد هوبس في إنجلترا سنة ١٥٨٨ ورحل إلى باريس في سن
الأربعين حيث درس الرياضيات وعلوم الطبيعة . ثم زار فرنسا
مرة ثانية وأقام فيها مدة طويلة ، واتصل صلة متينة بالفيلسوف
« جسندي » صاحب الفضل على « مولير » و « فولتير » . ثم
مات في إنجلترا سنة ١٦٧٩ .

وأشهر مؤلفات هوبس هو كتابه
La nature humaine أو Leviathan
La matière, la forme et l'autorité du gouvernement

وفي هذا الكتاب الأخير دافع عن الأثرة ، والاستبداد ، فقد كان هوبس من غلاة الماديين ، والاحساس عنده ليس الا حركة من حركات المنح ، وهذه الحركة متى وافقت الوظائف الحيوية انتجت اللذة ، واللذة تولد الرغبة ، والرغبة تولد الإرادة . فليست الإرادة اذا الا رغبة مسيطرة . وهوبس لا يعرف باعثا للعمل غير طلب اللذة ، أو الهروب من الألم . والعواطف عنده ليست الا صوراً لحب الذات .

وهوبس من اصحاب نظرية العقد الاجتماعي Contrat social التى على بها جان جاك روسو فيما بعد . ويرى هوبس أن الانسان مفطور على الأثرة والشره ، وأن جميع أعماله انما هى سلم الى مطامعه . وهذه الفطرة جعلت الحياة الطبيعية مرة المذاق ، لطمع القوى فى الضعيف . ويتخيل هوبس أن آباءنا الاولين لم يروا سبيلاً الى السلامة من شر الأقوياء غير الانضمام تحت لواء سلطة بشرية تدفع عنهم عادية المطامع ، وهذه السلطة تتمثل فى الملك ، ولهذا الملك جميع الحقوق التى كانت لجميع الأفراد قبل التعاقد ، وليس عليه الا واجب واحد هو : حفظ الأمن .

ويرى هوبس تأسيساً لنظريته أن الدين الحق هو دين الدولة مهما كان جوهره ، وعلى كل فرد الخضوع له ، والخروج عليه كفر ومروق .

ويظهر مما سلف أن هوبس يريد بنظرية العقد الاجتماعى تأسيس الملكية ، ولا كذلك روسو حين يدافع عن هذه النظرية فإنه يرى أن حياة الطبيعة كانت حياة نعيم ، وأن الناس لما أقسدوها بأنفسهم

اضطروا الى أن يتنازل كل فرد منهم عن جزء من حريته ليتكون من مجموع هذه الأجزاء قوة مدنية تدافع عن الجميع ، وهذه القوة لا تمثل في الملك كما يرى هوبس ، وانما تمثل في شخص هو مندوب الأمة ، ولها عزله حين تريد .

الى هنا لا يرى القارئ أى تناسب بين هوبس وبين الفزالي والواقع أن الجمع بينهما بعيد لأن الفزالي رجل تضحيه وأشار ، والخير عنده يرجع في الأكثر الى نفع الناس ، في حين أن هوبس يرى الخير في أن يعمل المرء لنفسه ، قبل أن يحلم بسواه . ولكنى رايت بعد البحث إنهما يتفقان في تكييف وجهة الطبيعة الانسانية ، وإن اختلفا في غاية الأخلاق ، فإذا كان هوبس يرى أعمال المرء مظهرا للأثرة ، ويرى حب المرء لجاره ليس الا ضربا من حب النفس ، وأن طاعته للقوانين الاخلاقية ليست الا سعيًا في سبيل نفعه ، فكذلك الفزالي يتهم أكثر العاملين بالرياء ، ويرميهم بحب الدات .

والفزالي يسمي الظن بالطبيعة الانسانية ، ويرى العمل في الأغلب لا يراد به الا نيل الثواب ، أو الفرار من العقاب ، ولا يزال بالطبيعة الانسانية يفحصها ويسبر أقوارها بمسبر الشك والارتباب ، حتى يصل بعد الفحص الى أن هناك رياء « هو أخفى من ديب النمل » ومن كلامه : « رب عبد يخلص في عمله ، ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ، ولكن اذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له ، وهذا السرور يدل على رياء خفى ، فلولا التفات القلب الى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس » .

والفرق بين الغزالي وهوبس ، يرجع الى أن هوبس يريد أن يجعل وجهة الطبيعة الانسانية اساسا للأخلاق ، فيكون الخير ما ينفع المرء ، والشر ما يضره . ولكن الغزالي يرى أن الخير لا يكون الا حيث ينتفع المرء ولا يضر غيره ، لأن وجهة الغزالي وجهة اسلامية ، لا ضرر فيها ولا ضرار .

— ٤ —

الغزالي وبوتلير Butler

« بوتلير » هو فيلسوف انجليزي ولد سنة ١٦٩٢ وتوفي سنة ١٧٥٢ وهو يعول أكثر من الغزالي على الفطرة الانسانية وعنده ان المرء يستطيع بنفسه أن يدرك ما في عمله من الخطأ والصواب قبل أن يقدم عليه ، وان لم يعلم شيئاً من المباحث الأخلاقية . ويرى أنه لا شيء يدعونا الى طاعة قانون الأخلاق غير اعتماده على السريرة ، ولا يرى بوتلير فرقاً بين السريرة التي تحتم طاعة الأخلاق وبين حب النفس ما دمننا نفهم سعادتنا الحقيقية فان الواجب والمنفعة لا يختلفان عنده ، وهنا يتفق مع الغزالي بعض الاتفاق ، لأن وجهة نظر الغزالي اسلامية ، والاسلام يرى المنفعة في الواجب وان كان لا يرى الواجب في المنفعة ، فان هذا شيء قد يكون وقد لا يكون . الا ان اردنا ما هو نافع في الواقع . على أن بوتلير يقيد اتفاق المنفعة مع الواجب بالأمور الأخروية ، ويرى اتفاقهما في الأمور الدنيوية كثير الوقوع ، لا واجب الوجود .

واجمل ما في بوتلير حكمه على الفضائل بانها قانون الطبيعة في حين أن الغزالي يراها ضرورياً من التكاليف .

Karlyle الغزالي وكارليل

ولد كارليل سنة ١٧٩٥ في قرية اكلفكان بجنوب اسكوتلاندة من والد يشتغل بصناعة البناء . تلقى مبادئ العلم في قريته . ثم دخل جامعة ادنبرج في الثالثة عشرة من عمره . وفي التاسعة عشرة من عمره صار مدرسا للرياضة بمدرسة آنان ، وبعد ثلاث سنين صار رئيس مدرسة ببلدة كركالدى . وفي سنة ١٨١٨ ترك مهنة التعليم . وذهب الى ادنبرج ، وهو لا يدرى ماذا يعمل ، ولكنه درس علم المعادن ، واضطر من أجله الى تعلم الألمانية التي كانت سببا للديوع شهرته . وتوفي سنة ١٨٨١ .

وكارليل هذا من كبار الفلاسفة ، ومن أعظم المدافعين عن الديانات . حتى لنجده يدافع عن الوثنية ، لأنها في رأيه ليست الا افراطا في العجب من الشيء ، حتى ينقلب هذا العجب تقديسا وعبادة ، ولأنه يرى ان الأقدمين ما قدسوا شيئا الا لأنه اله ، او رمزا الى اله . ومن آثار كارليل كتاب الأبطال الذي ترجمه الاستاذ محمد السباعي . وفي هذا الكتاب فصل ممتع عن النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه . كان سببا في تغيير وجهة انظار الأجانب نحو الاسلام . ومن كلامه في ذلك :

« لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد مهذب من أبناء هذا العصر ان يصفى الى ما يظن من ان دين الاسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور . وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال

السخيفة المخجلة . فان الرسالة التي اداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس امثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا . افكان يظن احدكم ان هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر اكذوبة وخدعة ؟ اما انا فلا استطيع ان ارى هذا الراى ابدا ، ولو ان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج . ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول . فما الناس الا بله ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعيب واضلولة ، كان الاولى بها ان لا تخلق . قوا اسفاه ، ما اسوا مثل هذا الزعم . وما اضعف اهله ، واحقهم بالثناء والمرحمة الا » .

وقد دافع كارليل عن الاسلام خير دفاع ، لمناقش من رموه بالقسوة ، واستعمال السيف ، وبين ان المسيحية نفسها لجأت الى القوة حين لم ينفع التسامح . ورد على من زعموا ان القرآن مملوء بالتعقيد ، وبين ان سبب هذه التهمة هو عجز الترجمة عن نقل بلاغة القرآن وحلاوته . وعارض من نسبوا الى رسول الله الهفوات ، وأكد ان طلب العصمة طلب سخيف ، فان العصمة لله وحده ، واكبر الهفوات عنده ان يحسب الكره انه برىء من هذه الهفوات .

الكفر والايمان

يتفق الغزالي وكارليل في ان كلا منهما مؤمن ثابت اليقين ، ويختلفان في فهم السريرة الانسانية ، وفي نتيجة التفكير . فالغزالي لا يعترف للضمير بالصلاحية للحكم ، وانما الشرع هو الفيصل في الحسن والقبح ، فما حسنه الشرع فهو حسن ، وما قبحه فهو قبيح . ولكن كارليل يرى ان الشعور بالواجب معنى ابدى ، وهو جزء من الطبيعة الانسانية ، فهو قوة غريزية لا نحتاج في كسبها اليه شرائع ولا قوانين .

ونتيجة التفكير محترمة عند كارليل ، وهو لا يصدق بأن الأحاد والتفكير يجتمعان في قلب رجل واحد . والاخلاص عنده هو الأساس . ومن كلامه : « يرجى لنا أن نفهم الوثنية متى سلمنا أولا أنها كانت في حين من الاحيان ديننا صحيحا في اعتقاد أهلها » . فلتوفن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الإيمان ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك اصحاء العقول والحواس ، ايقاظا قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم كخلقنا ، لا فرق بيننا وبينهم في حال من الأحوال . ولتوفن كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم ، لامنا بما كانوا يؤمنون به ، ولكننا واياهم سواسية في سائر الاشياء » .

ويتلخص رأى كارليل في أن كل دين فيه عنصر من الحق ، والوثنية عنده ليست الا رموزا شعرية ، وتمثيلا بالمرئيات لما جرى في وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكل دين فيما يرى انما هو رمز وتمثيل ، ولكن الاختلاف هو في المشاعر والأفكار » . والفرق بيننا وبين الوثنيين يرجع الى الشكل اكثر مما يرجع الى الجوهر ، لأن كلامنا يرى التفكير في ملكوت الله نوعا من العبادة ، ونحن لو اغرمنا بالكون كما اغرم الوثنيون به لرأينا الله في كل نجم ، بل في كل زهرة .

رأى القزالي في الاجتهاد

لا يمكن لامرئ ان يكفر ، في نظر كارليل ، ما دام مخلصا في عقيدته ، مهما كانت تلك العقيدة . ولكن القزالي يرى أن الاجتهاد له حد محدود والمختار عنده أن الائم والخطأ متلازمان فكل مخطيء آثم وكل آثم مخطيء ، ومن انتفى عنه الائم انتفى عنه الخطأ ، وهي تقسم النظريات الى ظنية وقطعية : ولا ائمة في الظنيات اذ لا خطأ فيها . والتطعيات عنده ثلاثة اقسام : كلامية ، وأصولية ، وفقهية . ويعنى بالكلامية العقليات المحضة ، والحق فيها عنده واحد . وبين

أخطأ الحق فيها فهو آثم . ويدخل في هذا القسم حدوث العالم ، وأنبأت المحدث ، وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة ، وبعثة الرسل وتصديقتهم بالمعجزات ، وجواز الرؤية ، وخلق الأعمال ، وإرادة الكائنات ، وجميع ما الكلام فيه مع المعتزلة والخوارج والروافض والمبتدعة . فهذه المسائل الحق فيها عنده واحد ، ومن أخطأه فهو آثم فان أخطأ فيما يرجع الى الإيمان بالله ورسوله فهو كافر . وان أخطأ فيما لا يمنعه من معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ، كما في مسألة الرؤية وخلق الأعمال وإرادة الكائنات ، فهو آثم من حيث علل عن الحق وضل ، ومخطيء من حيث أخطأ الحق المتيقن ، ومبتدع من حيث قال قولاً مخالفاً للمشهور بين السلف ، ولا يلزمه الكفر . ويعنى بالأصولية كون الإجماع حجة ، وكون القياس حجة ، وكون خبر الواحد حجة . . . الخ . وهذه المسائل أدلتها عنده قطعية ، والمخالف فيها مخطيء آثم . والفقهيات بعضها يكفر المرء بانكاره ، وبعضها يأتى بجحوده ، فانكار تحريم الخمر والسرقة ووجوب الصلاة والصوم ، كفر . وانكار الفقهيات المعلومة بالإجماع خطأ واثم .

تحرير هذه المسألة

الأصل في الحكم الأخلاقي أن يتبع فرض العامل من عمله : أن خيراً فخير ، وأن شراً فشر . فالعمل الذي أريد به الخير ، هو خير : وأن كان ضاراً في ذاته . والعمل الذي أريد به الشر ، هو شر : وأن كان نافعا في ذاته . ويطلب الرجل فقط بأن يتروى قبل أن يعمل ، ليعرف ما في العمل من ضر ونفع ، وخطأ وصواب . ومتى أفرغ الجهد في البحث فعد آمن المسؤولية ، واستحق حسن الجراء .

ولقد تتبع ما كتبه علماء المسلمين في هذه المسألة فرايتهم لا يكادون يهتدون . وسبب ضلالهم يرجع الى أنهم خلطوا بين الوجهة الأخلاقية ، والوجهة القضائية ، وكان يجب عليهم أن يفصلوا بين الوجهتين . فالذى يقتل مسلماً خطأ مدين من الوجهة

القضائية ولكنه يرى من الوجهة الأخلاقية ، لأنه لم يقصد القتل .
والشرع محق في اعتماده على الوجهة القضائية ، لأن فيها استئصالا
للجرائم ، ولأن القاضي متى عذر كل من ادعى الخطأ فقد يغلت منه
كثير من المجرمين .

والذى يدل على أن وجهة الشرع وجهة قضائية صرفة ، أنه
يكتفى بإيمان المقلد . مع أن الإيمان لا ينفع فيه التقليد . ويقول
الباجورى في ص ٣٢ من حاشيته على الجوهرة ما نصه : « والخلاف
في إيمان المقلد إنما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله وأما
بالنظر إلى أحكام الدنيا فيكفى فيها الإقرار فقط . فمن أقر جرت
عليه الأحكام الإسلامية ، ولم يحكم عليه بالكفر ، إلا أن اقترن بشيء
يقتضى الكفر كالسجود لصنم » وهذا واضح الدلالة على أن النجاة
لا تكون باتباع الشرع . ولكن بالإيمان به . والإيمان شيء آخر غير
ظواهر الأعمال .

الخطأ والعناد

كان على الغزالي أن يفرق بين من يخطئ في العقليات بعند
اجتهاده ، وبين من يعاند . فإن الأقرب إلى الحق أن ينجو من نظر في
النسبة الإسلامية من الفلاسفة بنية حسنة وبقصد الاقتناع ،
ولكنه بعد البحث لم يقتنع ، ولم يقف مع هذا في وجه المسلمين .
ولو أن الغزالي نظر هذه النظرة ، لما كفر ابن سينا والفارابي ، إلا أن
أمكن أن يثبت عندهما العناد مع أنهما لم ينكرا الرسالة المحمدية ،
ولكن الناس لعهد الغزالي كانوا فيما يظهر مصابين بداء الشك في
عقائد الفلاسفة ، ورميهم بالمروق .

وقد جرت بيني وبين فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوي مناقشة
في هذه المسألة منذ ثلاث سنين ، فكان فضيلة الأستاذ يرى أن الكفر
يكفى فيه الجهل ، وكنت أرى أنه لا يتحقق إلا بالعناد ثم رأيت فيما
بعد أن الجاحظ يرى هذا الرأي . وقد نقل الغزالي في المستصفى

« أنه ذهب الى أن مخالف ملة الاسلام ، من اليهود ، والنصارى ، والدهرية ، ان كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور . وانما الآثم الملعوب هو المعاند فقط ، لان الله تعالى لا يكلف نفسا الا وسعها ، وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى اذ استند عليهم طريق المعرفة » وينسب ابن الحاجب الى الجاحظ أنه قال : « لا اثم على المجتهد مع أنه مخطئ ، وتجرى عليه أحكام الكفار ، بخلاف المعاند فإنه آثم » وهذا يدل على ان الجاحظ مع حكمه بنفي الاثم عن المجتهد المخطئ يرى معاملته كما يعامل الكفار ، وهذه بعينها الوجهة القضائية التي حدثتك عنها منذ قليل .

ويظهر أنه كان لهذا الرأي أنصار فيما سلف ، فقد جاء في فصول البدائع ص ٤٢٤ ج ٢ ما نصه « وما نقل عن بعض السلف من تصويب كل مجتهد في المسائل الكلامية كخلق القرآن ، ونفي الرؤية ، وخلق الأفعال ، فمعناه نفي الاثم والمعدورية ، لأحقية القول والمأجورية » وجاء في إرشاد الفحول ص ٢٤١ ما نصه « مسألة الرؤية ، وخلق القرآن ، وخروج الموحدين من النار ، وما يشابه ذلك : الحق فيها واحد ، فمن أصابه فقد أصاب ، ومن أخطاه فقبل يكفر . ومن القائلين بذلك الشافعي فمن أصحابه من حمّله على ظاهره . ومنهم من حمّله على كفران النعم » .

وحكم ابن الحاجب في المختصر عن العنبري أن كل مجتهد مصيب . قال ابن دقيق العيد : « ما نقل عن العنبري والجاحظ ، ان أرادوا أن كل واحد من المجتهدين مصيب لما في نفس الأمر ، الباطل ، وان أرادوا أن من بدل الوسع ولم يقصر في الأصوليات يكون معذورا غير معاقب ، فهذا أقرب . لانه قد يعتقد فيه أنه لو عوقب وكلف بعد استفراغه غاية الجهد لزم تكليفه بما لا يطاق » انظر الشوكاني ص ٢٤٢ .

ترجيح بلا مرجح

يرى الغزالي في كتاب « فيصل التعرقة » أن الرحمة تشمل كثيرا من الأمم السالفة ، وإن كان أكثرهم يعرضون على النار ، أما عرضه خفيفه ، في لحظة أو في ساعة ، وأما في مدة ، حتى يطلق عليها اسم بعث النار . ويرى أن أكثر نصارى الروم والترك لعهدهم تشملهم الرحمة ، لأن منهم من لم يبلغه اسم محمد ، ومنهم من بلغه اسمه مفرونا بأكاذيب نصرف المرء عن النظر . ويرى في كتاب « الصحبة » أنه لا نواب ولا عقاب إلا على الأفعال الاختيارية .

ونسأله : لماذا رجوت أن تشمل الرحمة كثيرا من الأمم السالفة ؟ ليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا حكمت بنجاة الترك ونصاري الروم ممن لم يبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم محرفة منوهة ؟ ليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا قضيت بأنه لا نواب ولا عقاب إلا على ما يفعل المرء باختياره ؟ ليس ذلك لأن عقاب المرء على ما اضطر إليه ، أو أكره عليه ، ظلم وعدوان ؟

وإذا كان ذلك كذلك ، كما يعبر الكتاب الأقدمون ، فلماذا تركم بكفر من لم يعلم وجوب النظر ، أو علم بوجوب المطر ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع . ولماذا يحكم بنفي الاسم عمن بجهتهد ويخطيء في المسائل الفقهية ، وتحكم بالآثم والكفر على من يجهتهد ويخطيء في المسائل الكلامية ؟ ألا يسع العذر لجميع المفكرين على السواء ؟ فإن لم يسعهم ، أفلا يكون هذا الفرق ترجيحا بلا مرجح ، وهو في رأيكم غير معقول ؟

ظلم الأبرياء

وما عجبت لشيء كما عجبت من حكم الجاحظ بمعاملة المعذورين كما يعامل الكفار . فانه إذا صح لديه أن مخالف ملة الاسلام من اليهود والنصارى والدةهرية ، أن نظره فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو

أيضا معذور ، وإنما الآثم المذنب هو المصائب فقط ، أقول إذا صح
هذه ذلك فكيف يحكم بأن يعامل هؤلاء معاملة الكفار ، وهم عند الله
تاجون ؟ أفنكون نحن أغير من الله على دينه الذي لم يكلف فيه نفسا
الأوسعها ؟

ولقد أعلم أن الجاحظ لو كان حيا وسمع هذا السؤال ، لأجاب
بأن في هذا التشديد تقليلا للخوارج على الدين . وهذا جواب
معقول ، ولكن يلاحظ أنه تأييد لما قلناه آنفا من أن علماء المسلمين
نظروا إلى هذه المسائل من وجهة قضائية ، لا من وجهة أخلاقية .
وكان عليهم أن يتنبهوا إلى الفرق بين القضاء والأخلاق ، فمن
الواضح أن القتل الخطأ معاقب عليه من الوجهة القضائية ، مع أن
الذي يقتل خطأ بريء أمام نفسه ، وأمام ربه ، وأمام الواقع .

وأحب أن أتبه القارئ إلى أتى في هذا الحكم لا أتكلم من وجهة
شرعية ، فقد يدعى المدعون أن الشرع لا يعرف ذلك . وإنما أتكلم من
وجهة فلسفية ، وافترض أن الشرع أن لم يتنبه لهذا الحكم ، فقد
كان يجب أن يتنبه له ، وإن يضع له الحدود ، فإن المذنب بريء ،
ومن الظلم أن يقتل الأبرياء .

— ٦ —

الفزالي وسبينوزا Spinoza

ولد « سبينوزا » في أمستردام سنة ١٦٣٢ من عائلة يهودية .
وقد اضطهده اليهود لشكه في تعاليم اليهودية . وهم أحدهم يقتله .
فأضطر لذلك إلى أن يعتزل في لاهاي . وصار يكسب قوته بالعمل
في صقل الزجاج التلسكوب والميكروسكوب . وقد عرض عليه
أصدقاؤه المساعدة عدة مرات ، ولكنه رفض قبول المعونة بعزة
برأيه . وعرض عليه منصب أستاذ للفلسفة بجامعة هيدلبرج ،
ولكنه لم يقبل . حبا في الاستقلال . وعاش عيش الناسكين . وقد

أصيب بعرض الصدر ، فاحتلمه بلا شكاية . ثم مات سنة ١٦٧٧
بعد أن حكم أهل عصره بكفره .

وأهم مؤلفاته *traite théologico politique* وقد نشر في
حياته ، وفيه أخضع الكتاب المقدس للنقد وحرية الفكر . وكتابه
Ethique ظهر بعد موته ، وفيه بسط مذهبه عما وراء الطبيعة ،
وتكلم عن النفس ، والأهواء ، والشهوات .

وسبينوزا من أشد أنصار مذهب الحلول : فهو يرى أن الله هو
كل شيء . وأن كل شيء هو الله . وهو في ذلك يخالف الغزالي إذ
يرى لله وجودا غير وجود العالم . والله في رأيه هو المدبر لهذا الكون ،
ولكن سبينوزا يرى أن الله والعالم شيء واحد ، ويرى الله حالا في
كل ذرة ، وفي كل حبة ، وفي كل نبتة ، وفي كل ورقة ، وفي كل دابة ،
إلى آخر ما في الوجود . وليس للإنسان حرية ، وإن اعتقد أنه حر ،
وإنما يحلم وأعينه مفتوحة !

ومن أجل هذا ثار رجال الدين على سبينوزا ورموه بالزندقة .
قال الدكتور رابورت : « وما كان أبعدّه عن الاتحاد ، فقد كان مملوءا
بحب الله ، حبا جاءه عبر الطبيعة ، فمن كأس الطبيعة الطافحة قد
شرب الألوهية حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه إلا الله (١) » .
وهذا الاعتذار يشبه ما اعتذر به المسلمون عن البسطامي والحلاج ،
ومن اليهم من القائلين بوحدة الوجود .

وغاية الأخلاق عند سبينوزا هي كمال الطبيعة الإنسانية ، فكل
علم لا يفضي إلى ذلك فهو في رأيه غير مفيد ، وهو يتفق مع الغزالي في
هذا المعنى الأخير : أي في احتقار كل علم لا يوصل إلى السعادة ، وإن
اختلفت غايتهم بعض الاختلاف . فان غاية الأخلاق عند الغزالي
هي السعادة الأخروية .

(١) مبادئ الفلسفة ص ١٦٦ .

ومع أن سبينوزا يجعل لكمال الطبيعة الانسانية ، فانه يرى أن التمييز بين النقص والكمال ، والخير والشر ، من الأمور الاعتبارية ، إذ ليس هذا التمييز الا صورة ننتزعها من الموازنة بين الأشياء . فإذا كان الغزالي يرى أن الخير هو ما أمر الله به ، والشر ما نهى الله عنه ، فإن سبينوزا يرى أن الخير هو النافع ، والشر هو الضار . وبعبارة أخرى : الخير هو ما يزيد قوتنا ويمدها للعمل ، والشر هو ما يضعفها أو يضع في سبيلها العوائق . وينتج من ذلك أن الخير يحدث الفرح والشر يحدث الحزن .

ويبقى بعد ما سلف أن السعادة كل السعادة في اكمال العقل لانه في رأيه هو وجودنا الحق ، ثم يقرر أن السعادة في الواقع هي طمأنينة النفس ، التي تنشأ من معرفة الله ، فليس الجهل شرا الا لأن صاحبه دائم القلق والاضطراب ، وليس للحكمة فضل أكثر مما تورث صاحبها من الامن والسكينة ، وهو يتفق مع الغزالي في هذه النقطة الأخيرة .

ومن أظهر الفروق بين الغزالي وسبينوزا نفى الشخصية الانسانية ، ونفى المسؤولية . وهذا واضح ، لانه ما دام العالم هو الله ، والله هو العالم ، فلن يرى سبينوزا للمرء شخصية ، ولن يحكم بأنه مسئول . أما الغزالي فيرى وجود الشخصية الانسانية ويرى أهليتها للجزاء ، والثواب ، والعقاب ، وان كانت عنده أضعف من أن يدرك شيئا بغير هداية الله .

— ٧ —

Gassendi

الغزالي وجسندى

ولد « جسندى » في بروفنس بجنوب فرنسا سنة ١٥٩٢ . اشتغل حينما بتدريس البلاغة والفلسفة ، ثم صار تسييسا وسائر الى هولنده واشتغل بالطبيعيات ولا سيما الفلك والتشريح ، ثم دعى لتدريس الرياضيات بالمدرسة الملكية في باريس سنة ١٦٤٥ وظل بها الى أن توفي سنة ١٦٥٥ .

وأهم ما يمتاز به جسندى هو دفاعه عن فلسفة أبيقور المتوفى سنة ٢٧٠ قبل الميلاد . وأبيقور هذا يرى أن غاية الأخلاق هي السعادة الدائمة : فليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها تجلب لذة ، وليست الرذيلة رذيلة إلا لأنها تحدث المأ ، ولا قيمة لأى عمل فى نفسه إلا بنسبته الى اللذائذ والآلام . وقد كان أبيقور يدافع عن مذهبه بطريقة تقربه من رضا العقلاء ، فكان يرى أنه لا مانع من احتمال الآلام ، لأن ما فى الخروج على الفضيلة من اللذة لا يساوى ما يعقبه من الألم ، وكذلك ما فى الصبر على ترك الرذيلة من فوائد اللذة العاجلة ، يعوض على صاحبه كثيرا من الآلام التى يتعرض لها بإقتراف المنكرات .

ولكن الناس فهموا مذهب أبيقور فهما غير صحيح ، فحسبوه فقط داعيا الى اللذة وأخذوا يصفون الرجل الخليع بأنه (أبيقورى) فجاء « جسندى » فأحيا تعاليم هذا المذهب ودافع عنه . وقد أثر جسندى فى عصره تأثيرا شديدا . وحسبه أن كان من تلامذته « مولير » .

والغزالى تكلم عن اللذة ، وعنى بها كما فعل جسندى ، ولكن الفرق بينهما بعيد ، فان جسندى يرى اللذة غرضا من أهم أغراض الإنسان . ولكن الغزالى يراها صفة من صفاته ، فللعين لذة ، وللأذن لذة ، ولعضو التناسل لذة . ولا قيمة للحياة بغير هذه اللذات . ولكن يجب أن تحد بحدود العقل والشرع ، ومن السهل أن يعرف المرء ما لهما من الحدود . ولكن جسندى يحد اللذة بما لا يصحبه ألم ولا يعقبه ألم . وهنا موضع الخلاف ، فان الزنا فى نظر الغزالى ليست له أضرار دنيوية ، ولكنه يذهب بصاحبه الى النار .»

الفزالي ومالبرانش Malebranche

ولد « مالبرانش » في باريس سنة ١٦٣٨ ومكث قسيسا
خمسين سنة . وكان كل همه أن يوحد بين الدين والفلسفة . وقد
توفي بعد مرض طويل سنة ١٧١٥ .

واهم مؤلفاته *Traité de Morale, Recherche de la Verité*
وهو من أنصار ديكارت والمعجبين به ، ومن القائلين بوجوب حرية
الفكر الى أقصى حد . والقاعدة عنده أنه لا يصح أن نسلم تماما الا
بالقضايا التي تظهر لنا واضحة الى حد أنه لا يمكننا أن نرفض
التسليم بها ، والا تعرضنا لعتب العقل ، وتائب الضمير .

والقاعدة الاخلاقية عند مالبرانش أنه لا يصح أن نحب خيرا من
الخيرات حبا تاما ، ما دمنا نستطيع ألا نحبه بلا ندم . وهنا يتفق مع
الفزالي ، فيقرر أنه لا يجب أن نحب غير الله حبا تاما مطلقا . ونحن
نذكر أن الفزالي قرر أن الحب المطلق لا يكون لغير الله ، لأنه لا نظير
له ، لا في الامكان ولا في الوجود .

ويتفق مالبرانش مع الفزالي في عدم الثقة بأحكام الحواس ، لأنه
واى البصر يختلف حكمه على الأشياء باختلاف القرب والبعد ،
ويضيف الى ذلك شكه في الوحدة الزمنية ، لأنه يرى اليوم على طوله
قصيرا بالنسبة الى الفرح المسرور . ويرى الساعة على قصرها
طويلة بالنسبة الى المتالم الحزين .

ويتفق الفزالي ومالبرانش في فهم الرجل الخير ، فاذا كان
الفزالي يقرر أنه ما هلك امرؤ عرف قدره ، فان مالبرانش يقرر أن
الانسان الخير حقيقة هو من لا يريد أن يكون سعيدا الا بقدر
ما يستحق ، وبقدر ما تسمح له العدالة الالهية .

وفتقر الغزالي ومالبرانش في تقدير اللذة . فهي عند الغزالي
خير الى حد محدود ، ثم تنقلب الى شر . وهي عند مالبرانش خير
دائما ، وان كان التمتع بها لا يفيد دائما ، لأنها قد تصرفنا عن الله .
ويختلفان كذلك في فهم الألم ، فهو عند مالبرانش يكاد يكون خيرا ،
وان كان شرا بالفعل . والغرض من ذلك تبرير الاحتمال . أما
الغزالي فلا يخصص الألم باهتمام خاص ، وان كان يرحب بكل ما يناله
من الأذى في سبيل الله .

وبعد هذه المقارنات الموجزة . أوصى القارئ بأن يعتبر هذا
الباب لمحة يسيرة في جانب ما يجب من درس آراء الفلاسفة المحدثين
واحضه على اتمام ما فاتني اتمامه ، والله بالتوفيق كفيل .

الباب الرابع عشر
في آراء علماء العصر في الغزالي

تمهيد

لا يوجد هذا الباب في النسخة التي قدمت للجامعة المصرية ،
وانما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان ، تكميلا للسلسلة التاريخية ،
التي أردت أن أبين بها قيمة الغزالي في مختلف العصور .

ولقد عجبت حين رأيت العلماء يخشون من تدوين رأيهم في
الغزالي بجرأة وصراحة . وحجتهم في ذلك أن الرأي العام لا يعبل
في الغزالي غير المدح الخالص ، وللغزالي كسائر المؤلفين حسنات
وسيئات ، وهم لا يستطيعون أن يبدؤا شيئا من سيئاته في العلانية ،
كما لا يمكنهم أن يذكروا حسناته مجردة من النقد ، والا كانوا عرضة
للسخرية والاستهزاء !

وإذا كانت الخطة التي جريت عليها في نقد الغزالي تقضى على
بشر ما له وما عليه ، عملا بالنزاهة العلمية ، فقد رأيت أن أتبت
آراء أنصار الغزالي وخصومه في هذا العصر ، وأدونها كما هي بلا
زيادة ولا نقص ، معتمدا في ذلك على محادثات خاصة دارب بيني
وبينهم ، وعلى سند كتابي فيما يتعلق برأي حضرة صاحب العزة
الأستاذ محمد بك جاد المولى وحضره صاحب الفضيلة الأستاذ
الشيخ عبد الوهاب النجار . وأنا أشكر هذين الأستاذين بصفة
خاصة : لأنني لم أر من غيرهما جرأة على التقدم بشيء مكتوب ، وأعذر
من أحجم عن الكتابة ، لأن الضجة التي قامت بعد الامتحان أذهمت
من لم يفهم : أن حرية الفكر في مصر لا تظهر لها ولا بصير .

رأى الدكتور منصور فهمى

الدكتور منصور علم من أعلام هذا العصر ، وهو أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية ، وقد لاقى بسبب آرائه ما يقدر لامثاله عادة من الظلم والاضطهاد . فصلته الجامعة فى سنة ١٩١٣ مجازاة للجمهور الذى غضب وثار بسبب ما شاع اذ ذاك من أنه رعى النبى عليه الصلاة والسلام بحب الشهوات . وقد رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العفل الناضج ظلم مبين ، فنصحهُ يومئذ بأن يصى الجمعة فى الأزهر ليكون فى ذلك قطع لالسنة المرجفين ، وليستطيع دولته أن يرجعه الى الجامعة ، ويصل من عمله ما انقطع ، ولكن الدكتور منصور أبى أن يشهد العلماء له بالإيمان ، لأن الله على إيمانه شهيد ، فشكر لسعد باشا رفقهُ به ، وظل بعيدا عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع اليها على الرأس فى سنة ١٩٢١ .

وللدكتور منصور رسالة عن الفزالى نال بها الدكتوراه من جامعة باريس ، فلرايه فى الفزالى قيمة خاصة . وهو لا يعد خصما للفزالى ولا نصيرا له ، وإنما يشكره على ما آذاه للعلم من الخدمات ، وفقهُ به ، وظل بعيدا عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع اليها على الاعتماد على الذاكرة يورث التناقض والاضطراب .

— ٢ —

رأى الشيخ على عبد الرازق

الاستاذ الشيخ على عبد الرازق رجل ممتاز من بين رجال هذا العصر ، وقد تلقينا عنه دروس الأدب والبيان في الأزهر منذ اثني عشر عاما ، وأماله في علم البيان دليل على عقلته النادرة . ولو مضى في التأليف لأصبح قليل الأمثال .

وقد درس الغزالي بعناية ، وهو يقف ازاء موقف الحيات .

ويقرر أن الغزالي أوجد حركة فكرية في العالم الاسلامي . اما قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الأنظار ، فمن الناس من يراها ضارة ومنهم من يراها ناعمة ، ولا يزالون مختلفين .

— ٣ —

رأى الشيخ يوسف الدجوى

الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى عالم من هيئة كبار العلماء ، وهو ذو نفوذ كبير في الأزهر والمعاهد الدينية ، وأكثر العلماء المتأثرين اليوم من تلامذته . ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلفاته ، لأنها مع قلتها ضعيفة ، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله في دروسه الخاصة وبين ما يدونه في تلك المصنفات ، اذ كان يريد أن يصل بكتبه الى افهام الجماهير ، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية . ورسائله

الصغيرة في تفسير قوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل) تجعلنا نأسف كثيرا على هجره لهذا الأسلوب البديع ، وأقبله على خطة الترغيب والترهيب ، التي تذكرنا بكتاب الأحياء .

ويكاد يعد الشيخ الدجوى خليفة للغزالي في هذا العصر ، ففيه تقريبا كل خصائصه ، من القدرة ، والإخلاص ، وقوة النفوذ ، وبغض الفلسفة ، والحد من أن يتجاوز العقل ما له من الحدود .

— ٤ —

رأى الأستاذ جاد المولى

الأستاذ محمد بك جاد المولى من نوابغ هذا العصر . تخرج من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثاني ، فسافر في أول بعثة أرسلها دولة سعد باشا زغلول حين كان وزيرا للمعارف في سنة ١٩٠٧ ف قضى ثلاث سنين في الكلية الجامعة بمدينة ردينج . ثم عين في سنة ١٩١٠ ماعدا لأستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد وقضى بها ثلاث سنين . ثم عاد في سنة ١٩١٣ فعين في قلم الترجمة بوزارة الأشغال ف قضى بها ثلاث سنين . وفي سنة ١٩١٦ نقل إلى الديوان العالي ، وظل في خدمة الملك إلى سنة ١٩٢٢ حيث نقل مفتشا بوزارة المعارف العمومية .

وقد انتدبته الوزارة مع حضرة الأستاذ مبدع خير الدين ليشتريكا في الامتحان الذي تقدمت له في الجامعة المصرية . ولذلك الجمهور أن الأستاذ جاد المولى بك كان يتأجج غيرة على الغزالي ،

وقد ناقضنى بشدة فى كل الموضوعات التى خالفت فيها الغزالى .
فبدأ لى بعد الامتحان أن أحادثه عن الغزالى من جديد ، فتوجهت
الى منزله لهذه الغاية ، ففضل وأطلعنى على المحاضرات التى كان
ألقاها عن الغزالى فى سنة ١٩١٨ فرايته يفضل على كثير من
الفلاسفة المحدثين منهم والقديماء .

والاستاذ جاد المولى بك لا يشك فى أن المسلمين انتفعوا
بالتصوف أيما انتفاع ، وبقدر نفع التصوف يقدر جهد الغزالى فى
نشره وإذاعته . وقد كان الأستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو
يحدثنى عن ذلك بما كتبه الأستاذ الغمراوى بك فى كتاب الغرائز
ويقول : أن الصوفى هو كالمعلم سواء بسواء ، فكما يجب على المعلم
أن يعمل لاستئصال الغرائز السيئة ، وتوجيه الغرائز الحسنة الى
النواحي النافعة ، كذلك يجب على الصوفى أن يراقب حركات
المريدين . لأن التصوف ليس الا رياضة للنفس .

وبالرغم من عناية الغزالى بالتصوف ، فإن الأستاذ جاد المولى
بك يراه من المجددين وقد سألته عن معنى هذا التجديد ، فقرر أنه
يريد به النهوض بالأنكار الإسلامية التى آمن بها الغزالى ، والتى
كاد يقضى عليها تيار الفلسفة اذ ذاك .

— ٥ —

رأى الشيخ عبد العزيز جاویش

والاستاذ عبد العزيز جاویش امام من أئمة المسلمين فى هذا
العصر . وهو معروف فى جميع الاقطار الإسلامية ، وله إبحاث فى
فلسفة التشريع تعز على من رامها وتطول ، وقد استفاد من النفى

والاضطهاد أيما استفادة ، ووقف بذلك على كثير من عقليات الأمم والشعوب ، وعده الانجليز من بين أعدائهم الألداء في الحرب العالمية . ولقبوه بالرجل الخطر المخيف .

وبعد الشيخ جاويز من خصوم الغزالي . فهو أولا يؤمن بقوة الغزالي ومتانته ، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه الى منزلة المجتهد المطلق ، مع أنه كان « جاهلا » بفن الحديث . ويرى الشيخ جاويز أن جهل الغزالي بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمه العلمية ، ولن ينفعه بعد ذلك ذبوع اسمه في العالمين . ويقرر الشيخ جاويز أن الغزالي متناقض ، وأنه من الصعب تحديد آرائه لأنها قد تختلف في الكتاب الواحد ، ولأنه لم ينكر شيئا الا وقد قال به في بعض أحواله .

— ٦ —

رأى الكونت دي جالارزا

ظل الكونت دي جالارزا أستاذا للفلسفة في الجامعة المصرية ست سنين ، وهو نادرة النوادر في كرم الأخلاق . وله مؤلفات في الفلسفة لا عيب فيها غير الغموض ، وعلمه في ذلك أنه اجنبى عن اللغة العربية .

وهو من أشد أنصار الغزالي ، ويراه المسلم الحق بين فلاسفة المسلمين ويعجب كثيرا بوجهته الروحية وله على الغزالي مأخذ واحد وهو منعه الناس من ورود مناهل العلم ، مع أنه لم يمنع نفسه شيئا من العلوم . ويرى أن الغزالي حرم بذلك من كانوا أهلا للاستفادة ، وإن كان عصم من ليسوا أهلا للانتفاع ، من سواد الناس . والغزالي في رأيه غاية الغايات في الإخلاص .

— ٧ —

راى الدكتور العنانى

الدكتور على العنانى من كبار الاساتذة فى هذا العصر ، وقد مكث فى المانيا نحو عشر سنين ، فتمكن بذلك من ان يدرس الفلسفة دراسة عميقة ، وهو من اساتذة الجامعة المصرية .

والدكتور العنانى ينظر الى الغزالى نظرة خاصة ، من حيث تطور الفكر الاسلامى فهو يرى ان الفكرة الاسلامية كانت تعتمد أولا على الوحي ، ثم دخل العقل على انه مفسر وموضح ، ولكنه ما زال يقوى وينمو حتى كاد يستقل عن الوحي استقلالاً تاماً ، فرأى الغزالى ان يقف فى وجه هذا الاستقلال ، فاخذ يحارب الفلاسفة ويناضلهم حتى اخمل ذكرهم فى الشرق ، وبذلك انتقلت الفلسفة الى الاتدلس ، ووجدت هناك مرعاها الخصيب .

والدكتور العنانى يرى ان الغزالى سلك تلك السبيل خضوعاً للرأى العام فى البداية ، ولكنه تأثر بما دعا اليه فى النهاية ، وعاد حرباً للعقل ، وسلاماً للمبادئ الروحية . وهو لا يصدق ما ذكره ابن تيمية من رجوعه الى ظاهر الشريعة ، فان الرجل كان اخذ اخذاً بمذاهب الصوفية ، وان كان لا ينكر مع ذلك أن له آراء كان يخفيها ويضن بها على الناس .

— ٨ —

راى الشيخ عبد الوهاب النجار

الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار نادرة هذا العصر ، فقد يندر ان يفوته شيء من معارف هذا الجيل . وهو أعرف الناس بروح العرب والاسلام . وقد دوس الغزالى دراسة جيدة . وله على هذا الكتاب ملاحظات يراها القارىء فى الهوامش ، وهى ملاحظات سديدة لم نشأ ان نحرم منها القراء . وقد قابلته اخيراً

لذلك لي أنه فاته أن يضع ملاحظة عما أخذته على الغزالي من تحريم
الفناء في أكثر الأحيان ، وهو يرى أن الغزالي محق فيما يقرر من
الاكتفاء باباحة الفناء حين لا يوجد موجب التحصير . لأن مهنة
الفناء مجلبة للشقاء ، وعلى الأخص حين تضطرب الأحوال .

ورأى الشيخ النجار في الغزالي رأى وسط : فهو يرى أنه في
جملته لا نظير له ، وأن الحكم بتناقضه فيه شيء من المبالغة ، لأن
الرجل كان ينظر إلى الأشياء من جهات متعددة ، وكان لسنه في
ذلك أكبر تأثير . وينكر عليه المبالغة في متابعة الصوفية ، ويضرب
المثل بما يبيحه للفقير من تمزيق الثوب قطعاً مربعة تصلح للترقيع
ويقول : هذا الفقير إما أن يكون في حالة صحو أو في حالة ذهول :
فإن كان ذاهلاً فهو معذور ، ولا حكم له ، وإن كان صاحياً فهو
عابث ، لأنه ما معنى تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعله صالحاً لأن
يرقع به سواء ؟ إن هذا إلا اتلاف !

— ٩ —

رأى الشيخ حسين والي

الأستاذ الشيخ حسين والي من كبار العلماء ومؤلفاته متمسكاً
بالوصوح والبهان ، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذي ظهر منذ
سنين ، ولولا أنه شغل بالإدارة عن التأليف لكان لمصنفاته تأثير عظيم
في بسط آراء المتقدمين في الأصول والتوحيد والأخلاق .

وبعد الشيخ حسين والي من أشد أنصار الغزالي ، فهو يدافع
من وجهته في التصوف لأن التصوف في رأيه لا يخرج عن الأصول
الاسلامية ، والغلو الذي نراه في الأحياء ليس إلا تمكيناً للمعاني التي
يدعو إليها الغزالي . وهو لا يرى أن الغزالي قصد بمؤلفاته فئدة
من الناس ، وإنما يرى أنه كتبها لجميع الطوائف ، وكل فريق يأخذ
بقدر استعداده ، وبقدر ما يصلح له من أنواع الخلال . والغزالي
عنده معذور فيما وقع له من ضعف الحديث . لأنه لم يرد غير

تأييد وجهة نظره فيما اتفق له من الأحاديث والأخبار والآثار .
ومن البعيد أن يضع حديثاً في كتاب من كتبه وهو يعلم أنه موضوع
أو ضعيف ، مع ما عرف عنه من الأمانة والاخلاص .

— ١٠ —

رأى الشيخ عبد الباقي سرور

الأستاذ الشيخ عبد الباقي سرور من العلماء الأفاضل الذين
جمعر بين المعقول والمنقول وكتابه عن « ماضي الاسلام وحاضره »
الذى نشره في جريدة الافكار من أدق ما كتب المصلحون في العهد
الآخر . ويندر أن يظهر كتاب ولا يطلع عليه ، فهو لذلك اعرف
العلماء بالحركة الفكرية ، واعلمهم بما يجرى في عالم السياسة ،
والفلسفة والاجتماع . وهو فوق ذلك اغير الناس على وطنه ودينه ،
وانه لعلى خلق عظيم .

ويرى الشيخ عبد الباقي أنه ليس للغزالي مذهب خاص ،
وانما يتنوع دفاعه بتنوع الراى الذى يدافع عنه ، وهذا منشأ ما فى
كتبه من تباين الآراء : فقد كان يحتج بأصول المعتزلة والاشعرية
والكرامية ، وهو يناقش الفلاسفة ، ويريد أن يجمع فى يده كل
الأسلحة الفكرية ليدفع بها طغيان الفلسفة الذى كان يخشى على
الدين من تياره . والشيخ عبد الباقي يرى أن التصوف فى كتب
الغزالي انما كتب للصوفية ، لا لجميع الناس ، كما يظن ذلك كثير
من الباحثين . ودليل هذا رجوعه فى أخريات أيامه الى دراسة كتب
السنة حتى ليذكرون أنه مات والبخارى على صدره . ولعصم
اختصاص الغزالي بمذهب خاص وجهة شريفة ، هى تحرى الحق
والبحث عن عناصر القوة فيما كان لعهد من مختلف المذاهب .
وهذه الوجهة فيما يرى الشيخ عبد الباقي ضماناً للسلامة من
التقاليد المذهبية التى تغل حرية الفكر ، وتحرم الباحث من الانتفاع
بشمرات العقول .

رأى الشيخ أحمد أمين

أحسن ما يوصف به الأستاذ الشيخ أحمد أمين أنه رجل نافع ،
فإن كتبه ورسائله مفعمة بالآراء الجيدة ، التي تغرس الحياة في
نفس المستفيد . وعمله في لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل
الرجل الذي يعرف أن لا حياة لأمته بغير العلم ، ولهذه اللجنة اثر
كبير في الحركة العلمية ، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا
الجيل .

ويرى الشيخ أحمد أمين أن الغزالي حول الناس عن الاشتغال
بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف
والمصوفية . وحبب ذلك الى الناس . واسلوه في الترفيه
والترويب انفع الأساليب في هداية الجماهير . ويرى معنا أن
الغزالي لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرء من شكوكه . وأن آراءه
في الأخلاق لا تنفع في هذه الأيام ، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة
التنازع ، وهو يفضل السلامة على كل شيء !

خاتمة الكتاب

الآن ، وقد قدمنا للقارئ ما وفقنا اليه في درس الأخلاق عند الغزالي ، نوصيه بأن يرجع أن شاء الى كتاب الاحياء ، وكتاب الميزان ، وكتاب المنهاج ، وكتاب المستصفى ، والى المصادر الأجنبية التى ذكرناها في غير هذا المكان ، والى كل ما يستطيع الوصول اليه مما يتعلق بالغزالي ، ليعرف صحة ما في هذا الكتاب من مختلف الأحكام .

ونحن لا ننكر أننا كنا قساة في نقد الغزالي ، ولكننا نرجو أن يتنبه القارئ أيضا الى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته . ونحب أن يذكر الذين أسرفوا في اللوم عندما علموا بعض ما يحتويه هذا الكتاب ، أننا لم نكتب لارضائهم أو اغضابهم ، وانما وضعنا نصب اعيننا غاية واحدة ، هى خدمة العلم والتاريخ ، خدمة خالصة لوجه الله ، لا للناس .

وأحب أن أسجل هنا كذلك ، انى ترددت فيما نصحنى به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التى ثار من أجلها الخلاف ، فلم أرفع منها شيئا ، وانما أضفت اليها بعض البيان ، فليس على لجنة الامتحان اية مسئولية ، وانما أنا وحدى المسئول .



أما بعد فانى أسأل الله أن يجزئنى فضله على ما قدمت في سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، واليه وحده أرفع الرجاء ، فقد منى الناس بالجهود ، ونكران الجميل .

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا
بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا
وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ
وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » .

الإسلام والأخلاق

يقول المرجفون انى قررت ان الدين الاسلامى دين فتح لا دين اخلاق . ولولا ضعف ملكة النقد فى مصر ، كما شاعت هذه الاكذوبة ، ولا وجدت من يتلقاها بالقبول . فليس من الجائز ان رجلا مثلى قضى فى الأزهر خمسة عشر عاما يحكم بين الجماهير فى دار الجامعة المصرية بأن الدين الاسلامى ليس دين أخلاق ، وهو يعلم على الأقل انه يجد معارضين أشداء من طلبة الأزهر وعلمائه ، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل .

وهانذا أشرح للقراء أصل هذه الأكذوبة التى تناقلها الناس ، ليعلموا الى أى حد يجرؤ المتقولون على تشويه الأحاديث ! قلت فى رسالتى : « ان ما كتبه الغزالى عن التوكل صريح فى الدعوة الى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتسدرج على احتمال الظم والجوع ، والافتناع بأن الموت من جملة الأرزاق » فلما سألنى حضرات الاساتذة المنحنيين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالى ، قدمت لهم قوله : « فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب : أهو حرام او مباح او مندوب ؟ فاعلم ان ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه ، حتى يكون فعله حراما ، بل لا يبعد ان يأتى به الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام ، وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب » .

وهنا لا أكتف القارئ انى حملت على الغزالى حلة شديدة ورميته بجهل أسرار الدين ، وسخرت من الآداب التى وضعها للمتوكل حين

(هـ) نشرت هذه الكلمة فى المقلم بتاريخ ٤ يونيه سنة ١٩٢٤ »

يخرج من بيته : اذ يدعو الى ان لا يترك في البيت متاعا يحرص على السارق ، والى ان لا يحزن اذا سرق متاعه بل يفرح اذا أمكنه ، واذا لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فان فعل بطل توكله ود على تأسفه على ما فات ، ويدعو الى ان يفتن لأجل السارق وعصيا وتعركه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما ! ثم قلت في التعليق على هذه الآداب المينة « وما أدري ما الذي أنسى الغزالي أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحا وان يعلق عليه لوحة مكتوبا فيها بخط واضح جميل : من أراد أن يأخذ شيئا من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف » !

عند ذلك ندمر الحاضرون من العلماء ، وقال فضيلة الشيخ اللبان : لا عيب على الغزالي في ذلك لأن الدين الاسلامي دين أخلاق ، فقلت : وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الأخلاق في شيء ان يجرد المرء بيته حتى لا يبقى فيه متاع يحرص عليه السارق ، فهل جانبت في ذلك الصواب ؟

والظاهر ان حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب ، والاعتداء على الشعوب . كلا يا هؤلاء ! الدين الاسلامي دين فتح ، رضيتم أم كرهتم ، وللفتح شروط وآداب سننها الدين الحنيف ، وأنتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » انما تجارون الأجانب الذين يتوددون اليكم بوصف الاسلام بالقناعة والرضا بالقليل . وهذا خطأ صراح ، فان الدين الاسلامي أبعد الأديان عن الزهادة ، وأبغضها للخمول ، ولا حرج على الاسلام في أن يرغب أتباعه في امتلاك ناصية العالم ، فان هذا أمل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن أمة قوية ، أو ملة قوية ، وضعت حدا لطامعها في الحياة ، وانما ترغب الأمم الضعيفة ، أو الملل الضعيفة ، على أن تحدد آمالها وأطماعها بضيق الحدود !

ستقولون : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لهم

يأمروا المجاهدين بحرب القسيسين والرهبان ، بل أمروهم بالرفق بهم ، والابتناء عليهم ، كما أمروهم بعدم التعرض للأطفال والنساء والكحول . وأقول لكم : ان هذه المعاملة لا تدل على أن الاسلام ليس دين فتح ، ولكنها تدل على أن الاسلام كان احكم من أن يبدأ فتوحاته بارهاق النفوس وتنفير القلوب . وهذه الملاينة ، وذلك الرفق ، من الاسلحة الماضية في استئلال السخائم ، والتبشير بالدين الجديد . وكذلك دعا النبي الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل خصومه بالتى هى احسن ، حتى ظفر بالفتح المبين .

هذا ما اريد من أن الاسلام دين فتح وامتسلاك . ولو بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم ، ورأى ما انتم عليه من قلة وذلة ، لبلى وداءه بدموعه ، ولكان له مع حضرات العلماء موقف يرد الولدان شيئا . افتحسبون أن قوله عليه الصلاة والسلام (انما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق) معناه أنه جاء لينشر علينا ، ويدع فينا ، تلك المبادئ السقيمة ، التى دافع عنها الغزالي وامثاله ، حين تكلموا من التوكل والصبر والخمول ، وتابعهم فى ذلك مع الأسف علماء هذا الجيل ، فى غير خجل ولا استحياء ؟

انا لا انكر أن التوكل فضيلة ، ولكن انكر أن يكون معناه الاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق ، وانما التوكل أن تقتحم المصاعب معتمدا على الله (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) والصبر فضيلة . ولكن على أن يكون صبرا على الجهاد لا صبرا على الضيم ، والخمول فضيلة . ولكن على معنى أن تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حسابا . فاما ما نقل الغزالي من أن بعض العلماء كان يترك الدرس اذا زاد الطلبة على ثلاثة اثارا للخمول ، فهى خطة سلبية ، وهروب من الواجب ، تعالت الأخلاق عما يصفون !

ومن العجيب أن نجد العلماء يضربون الأمثال بزهد النبي وخلفائه ، وكان عليهم أن يعرفوا أن الزهد من النبي وخلفائه فضيلة

قضت بها الضرورة ، وما نحن أولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير الى ما يملك رؤساء الحكومات نظر المحقق المغيظ ، فلا عجب أن يتنبه رسول الله صاحب الخلق العظيم الى ما فطرت عليه الجماهير من حسد من يملكون زمام الأمور . ولو قضت الظروف اد ذلك بأن يكون النبي فردا من جماعة يسوسها غيره ، لرأيناه ينمى ثروته ، ويسعى جادا في استغلال ما يملك من أرض او مال . . على أنى اعلم من سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يدل على أنه كان ينظر الى الدنيا بعين ملؤها الحب والاعزاز ، وحسبنا أن نتلو قول أصدق القائلين : « ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » فهل ثروته قال : آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنتين او حسنات ؟ ! او ليس من جلال الدنيا أن تسوى بالآخرة ؟

من أجل هذا تروني انكر أن تكون « الأخلاق » في الاسلام معناها الرضا بالموجود وان قل وهان ، ومن أجل هذا مارضت الغزالي بعد ما عاشرته في مؤلفاته بضع سنين ، فماذا تنقمون مني بعد هذا البيان ؟

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب الى عربية وفرنسوية . أما المصادر العربية فأهمها مؤلفات الغزالي ، وهي : احياء علوم الدين ، ومنهاج العابدين ، والاربعين في أصول الدين ، وميزان العمل ، وجواهر القرآن ، والادب في الدين ، ومشكاة الأنوار ، ونصيحة الملوك ، والمنقذ من الضلال ، والجام العوام ، وخلاصة التصانيف ، ورسالة الطير ، وكيمياء السعادة ، ومكاشفة القلوب ، وقواعد الطريق العشرة ، والاملاء على ما اشكل من الاحياء ، والكشف والتبيين ، والقسطاس المستقيم ، ومقاصد الفلاسفة ، والتفرقة بين الاسلام والزندقة ، والدرة الفاخرة ، والمستصفى في الأصول .

ومما يتعلق بالغزالي من المصادر العربية : طبقات التسافعية الكبرى للسبكي ، وشرح الاحياء للزبيدي وقوت القلوب : لأبى طالب المكي ، والرسالة القشيرية ، ومجلة الهلال ، والسعادة لابن مسكويه ، وتهذيب الأخلاق له ، وفلسفة ابن رشد لفرح انطون ، والدخيرة في المحاكمة بين نهانت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسي ، وحياة الغزالي للدكتور زويمر ، وفتاوى ابن تيمية ، واعلام الموقعين لابن القيم ، وفصل المقام لابن رشد ، ومحاضرات الكونت دى جالارزا في الجامعة المصرية سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠ ومبادئ الفلاسفة تعريب أحمد أمين ، والملل والنحل للشهرستاني ، ومعجم البلدان لياقوت .

واهم المصادر الفرنسية :

Gazali, par Carra de Vaux

Études sur la philosophie d'Averroës concernant son
apport avec celle d'Avicenne et Gazali, par Moher

Traité d'eschatologie musulmane, par Lucien Gautier.

Encyclopédie de l'Islam (20ème livre).

Histoire de la philosophie, par Paul Janet.

Cours de philosophie, par E. Boirac

Averroës, par E. Renan.

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الدكتور منصور فهمى
١١	فاتحة الكتاب

الباب الأول

فى العصر الذى عاش فيه الغزالى

١٧	المهيد
١٩	الفصل الأول : الدولة السلجوقية
٢١	الفصل الثانى : الباطنية
٢٣	الفصل الثالث : الحروب الصليبية
٢٦	الفصل الرابع : المدارس النظامية
٢٩	الفصل الخامس : روح ذلك العصر
٣٣	الفصل السادس : البلدان التى عرفها الغزالى
٤٦	الفصل السابع : أعيان ذلك العصر

الباب الثانى

فى حياة الغزالى

٥٣	المهيد
٥٥	الفصل الأول : أسرته
٥٧	الفصل الثانى : مولده ونشأته
٥٩	الفصل الثالث : حياته الروحية
٦٠	الفصل الرابع : فهمه للحياة
٦٤	الفصل الخامس : وفاته وورثاؤه

الباب الثالث

في المنابع التي استقى منها الغزالي

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٧١
الفصل الأول : المصادر الفلسفية	٧٥
الفصل الثاني : منبع التصوف	٨٢
الفصل الثالث : من عرف الغزالي من الصوفية	٨٧
الفصل الرابع : منبع الشريعة	٩٠
الفصل الخامس : أساتذة الغزالي وأصحابه	٩٣

الباب الرابع

في مؤلفات الغزالي

تمهيد	٩٧
الفصل الأول : طريقته في التأليف	٩٩
الفصل الثاني : الصوت المردد في مؤلفات الغزالي	١٠١
الفصل الثالث : كتاب الأحياء	١٠٢
الفصل الرابع : اغلاط الأحياء	١٠٤
الفصل الخامس : غفلة الغزالي وعناده	١١١

الباب الخامس

في مباحث تمس الأخلاق

تمهيد	١١٩
الفصل الأول : الخير والشر	١٢١

الصفحة	الموضوع
١١٣٢	الفصل الثاني : الإرادة
١١٤٠	الفصل الثالث : الضمير
١١٤٢	الفصل الرابع : الأغراض والنتائج
١١٤٤	الفصل الخامس : الوسائل والغايات

الباب السادس

في الأخلاق

١٥١	المهيد
١٥٣	الفصل الأول : تربية الخلق
١٥٥	الفصل الثاني : إمكان تغيير الخلق
١٥٩	الفصل الثالث : الطريق إلى تهذيب الأخلاق
١٦٠	الفصل الرابع : غاية الأخلاق
١٦٣	الفصل الخامس : هل تورث الأخلاق

الباب السابع

في الفضائل

١٦٧	المهيد
١٧٣	الفصل الأول : فضيلة الصدق
١٧٥	الفصل الثاني : فضيلة الصبر
١٧٩	الفصل الثالث : فضيلة الخمول
١٨٠	الفصل الرابع : فضيلة التوكل
١٨٤	الفصل الخامس : فضيلة الإخلاص

الباب الثامن

في توقي الرذائل

الموضوع	الصفحة
تمهيد	١٩٩
الفصل الأول : رذيلة الغضب	٢٠١
الفصل الثاني : رذيلة الحقد	٢٠٤
الفصل الثالث : رذيلة الحسد	٢٠٥
الفصل الرابع : رذيلة العجب	٢٠٧
الفصل الخامس : رذيلة الكبر	٢٠٩
الفصل السادس : آفات اللسان	٢١١
الفصل السابع : رذيلة الرياء	٢٢٤

الباب التاسع

في العلوم والفنون والتربية

تمهيد	٢٢٩
الفصل الأول : العلوم	٢٣١
الفصل الثاني : الفنون	٢٣٨
الفصل الثالث : تربية الأطفال	٢٤٩
الفصل الرابع : آداب المعلمين	٢٥٤
الفصل الخامس : آداب المتعلمين	٢٥٨

الباب العاشر

في الحقوق والواجبات

الصفحة	الموضوع
٢٦٣	المهمل
٢٦٥	١ - واجب المرء نحو نفسه
٢٦٦	٢ - واجب المرء نحو أخوانه في الدين
٢٦٨	٣ - حقوق الجوار
٢٦٩	٤ - حقوق الأقارب
٢٧٠	٥ - حقوق الوالدين
٢٧٠	٦ - حقوق الأبناء
٢٧١	٧ - واجب التاجر
٢٧٣	٨ - آداب المسافر
٢٧٥	٩ - حقوق المرأة
٢٧٨	١٠ - الرفق بالمرأة
٢٧٩	١١ - واجبات المرأة
٢٨٠	١٢ - آداب الكتاب
٢٨١	١٣ - واجبات الملوك
٢٨٤	١٤ - حقوق الوزراء
٢٨٥	١٥ - معاملة الملوك الظالمين
٢٨٦	١٦ - حقوق الأخوة
٢٩١	١٧ - البغض في الله
٢٩٤	١٨ - آداب الزواج
٢٩٥	١٩ - الخروج من الظالم
٢٩٧	٢٠ - واجب الاحتساب

الباب الحادى عشر
فى تأثير الغزالى فى عصره
وما تلاه من العصور

الصفحة	الموضوع
٣٠٥	تمهيد
٣٠٧	١ - تجديده للقرن الخامس
٣٠٨	٢ - النماذج والأحلام
٣١٠	٣ - تلامذة الغزالي وأصحابه
٣١١	٤ - مؤلفاته وفتاواه
٣١٣	٥ - علاقة الفقه بالأخلاق
٣١٤	٦ - تأثير الأحياء
٣١٧	٧ - الانتفاع بمؤلفات الغزالي
٣١٩	٨ - عناية الأجانب بالغزالي
٣٢٥	٩ - الفوز للحياة

الباب الثاني عشر
في انصار الغزالي وخصومه

[illegible]

الباب الثالث عشر

في الموازنة بين الفزالي وبين الفلاسفة المحدثين

تمهيد	٣٣٩
١ - الفزالي وديكارت	٣٤١
٢ - الفزالي وبسكال	٣٤٨
٣ - الفزالي وهوبس	٣٥٠
٤ - الفزالي وبوتلير	٣٥٣
٥ - الفزالي وكارليل	٣٥٤
٦ - الفزالي وسبينوزا	٣٦١
٧ - الفزالي وجسندى	٣٦٣
٨ - الفزالي ومالبرانش	٣٦٥

الباب الرابع عشر

في آراء علماء العصر في الفزالي

تمهيد	٣٦٩
١ - رأى الدكتور منصور فهمى	٣٧١
٢ - رأى الشيخ على عبد الرازق	٣٧٢
٣ - رأى الشيخ يوسف الدجوى	٣٧٢
٤ - رأى الأستاذ جاد المولى	٣٧٣
٥ - رأى الشيخ عبد العزيز جاويش	٣٧٤
٦ - رأى الكونت دى جالارزا	٣٧٥

الصفحة	الموضوع
٣٧٦	٧ - رأى الدكتور العناني
٣٧٦	٨ - رأى الشيخ عبد الوهاب النجار
٣٧٧	٩ - رأى الشيخ حسين والى
٣٧٨	١٠ - رأى الشيخ عبد الباقي سرور
٣٧٩	١١ - رأى الشيخ أحمد أمين
٣٨١	خاتمة الكتاب
٣٨٣	الاسلام والأخلاق
٣٨٧	المراجع
٣٨٩	الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب/٥٨٥٨/ ٥٦٧٠

الشعب

٩٩ شارع نمبر المينى بالمترو (مصر)
تصوير ١٩٨١

